
فتح المجيد
شرح كتاب التوحيد
تأليف
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ
راجع حواشيه وصححها وعلق عليها
سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
نشر
مكتبة الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
بريدة - ت : ٤٢٠٢٣٣٣

فتح المجيد

شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

المتوفي سنة ١٢٨٥ هـ

راجع حواشيه وصححها وعلق عليها

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز



الناشر

مكتبة الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ـ آخر ترام النزهة شارع قنال المحمودية

ت : ٤٢٠٢٣٣٣

صاحبها ومديرها/ يسرى محمد عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد فقد اطلعت على الحواشي التي وضعها الاستاذ العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ، على كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» تأليف الامام العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ الامام المجدد لمعالم الاسلام في القرن الثاني عشر الهجري الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي رحمهم الله جميعاً ، فألفيتها كثيرة الفائدة قد اجاد فيها وأفاد ونقل اكثرها من قُرة العيون للشيخ عبد الرحمن المذكور ، غير اني وجدت فيها اخطاء قليلة فرأيت التنبيه عليها في مواضعها بنجوم تمييزاً لها عن الحواشي الاصلية ، واسأل الله ان ينفع بها كل من اطلع عليها ، وان يضاعف الاجر للجميع انه جواد كريم ، وهذا بيان تلك التنبيهات . والله ولي التوفيق .

عبد العزيز بن باز
رئيس الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبةُ للمتقين ، ولا عُدْوان إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلــه الأولين والآخرين ، وقيُّوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه أجمعين . اللهم صل على محمد وعلى آل محمــد وأصحابه ومَنْ تبعهم بإحسان الى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فان كتابَ التوحيد الذي ألّفه الامام شيخُ الاسلام (محمد بن عبد الوهاب) [1] أجزلَ الله له الأجر والثوابَ ، وغفر له ولمن أجابَ دعوته الى يوم يقوم الحساب — قد جاء بديعاً في معناه : من بيان التوحيد ببراهينه ، وجمع جُملا من أدلته لإيضاحه وتبيينه . فصار علماً للموحدين ، وحُجَّة على الملحدين . فانتفع به الخلق الكثير ، والجمُّ الغفير . فان هذا الامام رحمه الله في مبدأ مَنْشئه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذي بعث الله بــه المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين ، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين ، فأعلى الله همته ، وقوّى عزيمته ، وتصدّى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد ، الذي هو أساس الاسلام والإيمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، والطواغيت والأوثان ، وعن الإيمان بالسّحرة والمنجّمين والكُهّان . فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو اليها كل شيطان ، وأقام الله به عَلَم الجهاد ، وأدْحضَ به شُبهَ المعارضين من أهل الشرك والعناد ، ودانَ بالاسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد . وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق ، حتى أقرّ له بالفضل من كان من

---

(١) ولد في العيينة سنة ١١١٥ وتوفي بالدرعية سنة ١٢٠٦ رحمه الله

أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان . وكرّه إليه الايمان ، فاصر على العناد والطغيان . وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة « إن المسلمين لما قالوا (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس وجنوده . فأبى الله إلا أن يُمْضيَها ويظهرها ، ويُفْلِجها وينصرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج ، ومن قاتل بها نُصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل ، ويسيرٍ من الدهر ، في فِئامٍ من الناس ، لا يعرفونها ولا يُقِرُّون بها » .

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرّوا واستبشروا بطلعته ، وأثنوا عليه نثراً ونظماً .

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء : محمد بن اسماعيل الأمير [1] في هذا الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد جاءتِ الأخبــارُ عنه بــأنه	يعد لنا الشرعَ الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طَوَى كل جاهل	ومُبتدع منه ، فوافقَ ما عندي
ويَعمُر أركانَ الشريعة هادمــاً	مشاهدَ ضلَّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثلــه	يغوث ووَدٌّ ، بئس ذلك من وَد
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يَهتفُ المضطر بالصمدِ الفرد
وكم عَقَروا في سوحها من عَقيرة	أُهلّت لغير الله جَهراً على عمــد
وكم طائفٍ حولَ القبور مُقبّل	ومُسْتَلم الأركان منهنّ بالأيدي

وقال شيخنا عالم الاحساء أبو بكر حسين بن غَنّام رحمه الله تعالى فيه [2] :

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٥٩ وتوفي في شعبان سنة ١١٨٢ وكان اماماً جليلا ، له المؤلفات الكثيرة النافعة ، منها سبل السلام شرح بلوغ المرام ، ومنحة الغفار على ضوء النهار ، والعدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وشرح التنقيح في علوم الحديث

(٢) قالها في رثاء الشيخ رحمه الله ، وهي تسعة وثلاثون بيتاً مذكورة بتمامها في كتاب

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدَى ... بوقتٍ به يعلَى الضلالُ ويُرفع
سقاه نمير الفهم مولاه ، فارتوَى ... وعـام بتيّار المعارف يقطـع
فأحيا به التوحيد بعـد اندراسه ... وأوهَى به من مطلع الشرك مهيع[1]
سَما ذِرْوة المجد التي ما ارتقى لها ... سواه، ولا حاذَي فناها سَمَيْذَع[2]
وشمّر في منهاج سُنة أحمـد ... يشيد ويحيي مـا تعفّى ، ويرفع
يناظر بالآيـات والسنة التي ... أمرنا إليها في التنازع نرجـع
فاضحت به السمحاء يبسمُ ثغرها ... وأمسى محيـاها يُضيء ويلمع
وعاد به نهج الغـواية طامساً ... وقد كان مسلوكاً به الناس ترتع
وجرّت به نجد ذيولَ افتخارها ... وحُقّ لهـا بالألمعي ترفع
فآثاره فيهـا سَوامٍ سوافِرٌ ... وأنواره فيهـا تضيء وتلمع

وأما كتابه المذكور فموضوعه في بيان ما بعث به الله رسله : من توحيد العبادة ، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة ، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب ، من الشرك الأصغر ونحوه ، وما يقرُب من ذلك أو يوصل اليه .

وقد تصدّى لشرحه حفيد المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى[3] فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان مـا

= «عنوان المجد في تاريخ «نجد» في حوادث سنة ١٢٠٦(ج١ ص ٩٥) توفي ابن غنام سنة ١٢٢٥ وله ترجمة في عنوان المجد (ج ١ ص ١٤٩) .

(١) في عنوان المجد «وأقوى به من مظلم الشرك» والمهيع : الطريق الواسع .

(٢) في عنوان المجد «ولا حاذاه فيها» والسيذع : الشجاع القوي .

(٣) كان عالماً فاضلا بارعاً في الحديث والتفسير والفقه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، صادق الاتصال بالله ، قتل رحمه الله في آخر سنة ١٢٣٣ وشى به بعض المنافقين الى ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا ، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها ، فأحضره ابراهيم ؛ وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر اغاظة للشيخ ، ثم أخرجه الى المقبرة وأمر العساكر أن يرموه بالرصاص جميعاً فمزقوا جسمه رحمه الله ورضي عنه . اهـ (عنوان المجد ج١ ص ٢١٠) .

يجب أن يطلب منه ويراد ، وسماه (تيسير العزيز الحميد ، في شرح كتاب التوحيد) .

وحيث أطلق «شيخ الاسلام» فالمراد به أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية ، و «الحافظ» فالمراد به أحمد بن حجر العسقلاني .

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنبَ في مواضع ، وفي بعضها تكرار يستغني بالبعض منه عن الكل ، ولم يكمله . فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتكميله ، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميماً للفائدة وسميته (فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد) .

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وموصلاً مَنْ سَعى فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز وعملا بحديث «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطَعُ» أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن صلاح : والحديث حسن . ولأبي داود وابن ماجه «كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع» ولأحمد «كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُفتتح بذكر الله فهو أبْتَرُ أو أقطع» وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً «كلّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع» .

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبي ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته ، كما في كتابه لهِرَقْلَ عظيم الروم [1] . ووقع لي نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها

(١) رواه البخاري في حديث أبي سفيان الطويل الذي رواه عن ابن عباس في كتاب بدء الوحي .

بالبسملة ، وثنّى بالحمد والصلاة على النبي ﷺ وآله . وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقي ، وبالحمدلة نسبيٌّ إضافي ، أي بالنسبة الى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به .

والباء في « بسم الله » متعلقة بمحذوف ، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلا خاصاً متأخرا .

أما كونه فعلا ، فلأن الأصل في العمل للأفعال .

وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدىء بالبسملة في أمر يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مبدأ له .

وأما كونه متأخراً ، فلدلالته على الاختصاص ، وأدخل في التعظيم ، وأوفق للوجود ، ولأن أهمَّ ما يُبدأ به ذكرُ الله تعالى .

وذكر العلامة ابن القيّم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد ، منها : أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة في كل عمل وقول وحركة . فكان الحذفُ أعمَّ . انتهى ملخصاً .

وباء « بسم الله » للمصاحبة . وقيل : للاستعانة . فيكون التقدير : بسم الله أؤلف حالَ كوني مستعيناً بذكره ، متبركاً به . وأما ظهوره في (اقْرأ باسْمِ ربِّك) وفي (بِسْمِ اللهِ مَجْراها) فلأن المقامَ يقتضي ذلك كما لا يخفى .

والاسم مشتق من السُّموّ وهو العلو . وقيل : من الوَسْم وهو العلامة ، لأن كل ما سُمّي فقد نُوّه باسمه ووُسِمَ .

قوله (الله) قال الكِسائي والفَرّاء : أصله الإله ، حذفوا الهمزة ، وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لاماً واحدة مشددة مُفخّمة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله : الصحيح : أنه مشتق ، وأن أصله الإله ، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذَّ . وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العُلى . والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى . وهي

الإلهية . كسائر أسمائه الحسنى ؛ كالعليم والقدير ، والسميع ، والبصير ؛ ونحو ذلك . فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهي قديمة ؛ ونحن لا نعني بالاشتقاق، إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى . لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله . وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه : أصلا وفرعا . ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر . وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

قال أبو جعفر ابن جرير « الله» أصله « الإله » أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى ؛ فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة . وأما تأويل « الله » فانه على معنى ما روي لنا عن عبدالله بن عباس قال « هو الذي يأله كل شيء ويعبده كل خلق » وساق بسنده عن الضحاك عن عبدالله بن عباس قال : «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين » فان قال لنا قائل : وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود ؛ وأن له أصلا في فَعِل ويَفْعَل ؛ وذكر بيت رؤبة بن العجاج [1] .

لله دَرُّ الغانيات المُدَّهِ   سبَّحن واسترجعن من تألُّهي[2]

يعني من تَعَبُّدي وطَلَبي اللهَ بعملي . ولا شك أن التألُّه التفعل ، من أله يأله ، وأن معنى « أله » إذا نطق به : عبدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعَل بغير زيادة . وذلك ما حدثنا به سفيان بن

---

(١) كذا في الأصل . والعبارة ناقصة . ونصها : فان قال لنا قائل فهل لذلك في فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الاسم ؟ قيل : اما سماعاً من العرب فلا . ولكن استدلالا . فان قال : وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلا في فعل يفعل ؟ قيل : لا تمانع العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلا بعبادة الله ويطلب ما عند الله « تأله فلان » بالصحة ولا خلاف . ومن ذلك قول رؤبة . الخ .

(٢) قال في اللسان : مدهه يمدهه مدها ، مثل مدحه ، والجمع : المده ، أي المستحقات المدح لحسنهن وجمالهن . والتأله : التنسك والتعبد . واسترجعن : قلن انا لله وانا اليه راجعون .

وكيع — وساق السند إلى ابن عباس « أنه قرأ (ويَذَرَكَ وإلاهتَكَ) [1] قال : عبادتك . ويقول : إنه كان يُعبد ولا يَعبُد » وساق بسند آخر عن ابن عباس « ويذرك وإلاهتك. قال : إنما كان فرعون يُعبد ولا يعبد » وذكر مثله عن مجاهد ، ثم قال : فقد بيّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا : أن « أله » (عبد) وأن الإلاهة مصدره وساق حديثاً عن أبي سعيد مرفوعاً « أن عيسى أسلمته أمه الى الكتاب ليعلمه . فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدري ما الله ؟ الله إله الآلهة » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية؛ وساقها . ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق ﷺ « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وكيف نحصي خصائص إسم لمسماه كل كمال على الاطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال . وكل عز وكل جمال ، وكل خير وإحسان ؛ وجود وفضل وبر فله ومنه ؟ فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثّره ، ولا عند خوف إلا أزاله ولا عند كرب إلا كشفه ، ولا عند همّ وغمّ إلا فرّجه ؛ ولا عند ضيق إلا وسّعه ؛ ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أناله العزّ ؛ ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آنسه ، ولا مغلوب إلا أيّده ونصره ، ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذي تكشف به الكربات ؛ وتستنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ، وتستجلب به الحسنات . وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماوات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع . وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة الى السعداء والأشقياء ، وبه حقّت الحاقة . ووقعت الواقعة.

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك) .

وبه وضعت الموازين القسط ونصب الصراط ؛ وقام سوق الجنة والنار . وبه عبد رب العالمين وحمد . وبحقه بعثت الرسل ؛ وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور . وبه الخصام واليه المحاكمة ؛ وفيه الموالاة والمعاداة . وبه سعد من عرفه وقام بحقه ؛ وبه شقي من جهله وترك حقه ؛ فهو سر الخلق والأمر . وبه قاما وثبتا ؛ واليه انتهيا ؛ فالخلق به واليه ولأجله . فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه ومنتهياً اليه . وذلك موجبه ومقتضاه (٣ : ١٩١ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً ، سُبْحانَكَ فَقِنا عذابَ النارِ) إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

قوله (الرحمن الرحيم) قال ابن جرير : حدثني السَّرِيُّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر سمعت العَزْرَمِيَّ يقول : « الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين» . وساق بسنده عن أبي سعيد – يعني الخُدرِيَّ – قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى بن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا . والرحيم : رحيم الآخرة » .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى [١] : فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً . يألهه الخلائق : محبة وتعظيما وخضوعا ، ومفزعا اليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته ؛ المتضمنين لكمال الملك والحمد ؛ وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه : مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ؛ ولا سميع ؛ ولا بصير ؛ ولا قادر ؛ ولا متكلم ؛ ولا فعال لما يريد ؛ ولا حكيم في أقواله وأفعاله . فصفات الجلال والجمال أخص باسم « الله » . وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع (العطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم الرب) ؛ وصفات الاحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم « الرحمن » .

---

(١) في مدارج السالكين (ج ١ ص ١٨) .

وقال رحمه الله أيضاً : «الرحمن» دال على الصفة القائمة به سبحانه «والرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم . واذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رَحيما) (٩ : ١١٧ إنّه بهم رَؤوفٌ رَحيمٌ) ولم يجيء قطُّ رحمانٌ بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت . فانها دالة على صفات كماله . فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية . فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم . كقوله تعالى (الرّحمنُ على العَرْشِ اسْتَوَى) . انتهى ملخصاً .

الحمدُ للهِ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسلم[1]

قوله (الحمد لله) معناه الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم . فمورده : اللسان والقلب . والشكر يكون باللسان والجنان والأركان. فهوأعمُّ من الحمد مُتَعَلّقاً ، وأخص منه سبباً ، لأنه يكون في مقابلة النعمة ، والحمد أعم سبباً وأخص مُتعلقاً ؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهي ؛ يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة .

قوله (وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم) أصح ما قيل في معنى صلاة الله على عبده : ما ذكره البخاري رحمه الله تعالى عن أبي العالية قال : « صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة » وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره في كتابيه (جلاء الأفهام) و (بدائع الفوائد) .

قلت : وقد يراد بها الدعاء . كما في المسند عن علي مرفوعاً « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم اغفر له اللهم ارحمه » .

---

(١) هذه الجملة في بعض النسخ دون بعض .

قوله (وعلى آله) أي أتباعه على دينه ؛ نص عليه الامام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين [1] .

كتاب التوحيد

كتاب : مصدر كتب يكتب كتابا وكتابة وكتباً ؛ ومدار المادة على الجمع. ومنه : تكتّب بنو فلان . اذا اجتمعوا . والكتيبة لجماعة الخيل ؛ والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف . وسمي الكتاب كتاباً : لجمعه ما وُضع لـــه .

والتوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والاثبات . وهو توحيد الربوبيـــة والأسماء والصفات . وتوحيد في الطلب والقصد . وهو توحيد الإلهيـــة والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وأما التوحيد الذي دعت اليـــه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد في المعرفة والاثبات ؛ وتوحيد في الطلب والقصد . فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ؛ وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ؛ وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الافصاح ؛ كما في أول سورة الحديد ؛ وسورة طه ؛ وآخر الحشر ؛ وأول تنزيل السجدة ؛وأول آل عمران ؛ وسورة الاخلاص بكمالها ؛ وغير ذلك .

النوع الثاني : ما تضمنته سورة (قُلْ يا أيُّها الكافِرون) وقوله تعالى (٣ : ٦٤ قُلْ يا أهلَ الكتابِ تَعالوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيْننا وبَيْنكُم أنْ لا نَعْبدَ إلا اللهَ ولا نُشرِكَ بهِ شيئاً ولا يتخذَ بعْضُنا بعْضاً أرباباً منْ دُونِ

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «جلاء الافهام في الصلاة على خير الأنام» للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله ، فإنه استوفى المذاهب في ذلك ، وبين الحق فيها ، وأن المراد من الآل أتباعه الذين آمنوا به .

الله . فإنْ تَوَلّوْا فقولوا اشْهدُوا بأنّا مُسْلمُون) وأول سورة تنزيل الكتاب ، وآخرها . وأول سورة المؤمن : ووسطها ، وآخرها ، وأول سورة الأعراف ، وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد ، شاهدة به داعية اليه .

فإن القرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمي الخبري وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخَلْعُ ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادي الطلبي . وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم في العُقْبَى من العذاب . فهو جزاء منْ خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد ، وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى .

قال شيخ الاسلام : التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ، ولا يعادي إلا فيه ، ولا يعمل إلا لأجله . وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات . قال تعالى (٢ : ١٦٣ وَإلهكُمْ إلهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هو الرّحمنُ الرحيم) وقال تعالى (١٦ : ٥١) وقالَ اللهُ لا تتّخذوا إلهين إنما هو إلهٌ واحدٌ فإيّايَ فارْهبُون)وقال تعالى(٢٣ ١١٧ : ومنْ يدعُ معَ الله إلهاً آخر لا برهانَ له بهفإنما حسابُه عند ربّه إنه لا يُفلِحُ الكافرون) وقال تعالى (٤٣ : ٤٥) واسْألْ منْ أرْسلنا مِنْ قبْلكَ مِنْ رُسُلنا : أجَعلْنا منْ دُونِ الرّحمن آلهةً يُعْبدُون ؟) وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس الى عبادة الله وحده لا شريك له . وقال (٦٠ : ٤ قدْ كانتْ لكم أسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذين معهُ ، إذْ قالوا لقوْمهم إنّا برآءُ منكم ومما تعبدُونَ مِنْ دُون اللهِ . كفرْنا بكم وبدا

بيننا وبينكم العَداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمِنوا بالله وحده) وقال عن المشركين (٣٧ : ٣٥)إنهم كانوا إذا قيلَ لهم لا إله إلا الله يستكبِرُون(٣٦) ويقولون أئنّا لتاركُوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون) وهذا في القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد : مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظن هؤلاء أنهم اذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم اذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد فان الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما يُنزّه عنه . وأقرّ بأنه وحده خالق كل شيء . لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله الا الله وحده . فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة . ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . و « الإله » هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة . وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع . فاذا فسّر المفسر « الإله » بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله . وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد — كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ . فان مشركي العرب كانوا مقرّين بأن الله وحده خالقُ كل شيء . وكانوا مع هذا مشركين قال تعالى : (١٢ : ١٠٦)ومَا يُؤْمِنُ أكثَرُهُمْ بالله إلا وهُمْ مُشركون) قالت طائفة من السلف « تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله وهم مع هذا يعبدون غيره »[1] قال تعالى (٢٣ : ٨٤) قُلْ لمن الأرضُ ومنْ فيها إن كنتم تعلمون ؟(٨٥)سيقولون لله . قلْ أفلا تذكرُون(٨٦) قلْ منْ ربُّ السموات السبع وربُّ العرشِ العظيم ؟(٨٧)سيقولون الله . قلْ أفلا تتقُون ؟(٨٨)قلْ منْ بيده ملكوت كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه ان كنتم تعلمون ؟(٨٩) سيقولون لله . قلْ فأنّى تُسْحَرُون ؟) فليس كل من أقرّ

---

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقول الله تعالى :(٥١ : ٥٦ وَما خلقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدُونِ)

بأن الله تعالى ربُّ كل شيء وخالقه يكون عابداً له . دون ما سواه . داعياً له دون ما سواه . راجياً له خائفاً منه دون ما سواه . يُوالي فيه ويعادي فيه . ويطيع رسله ويأمر بما أمر به . وينهى عما نهى عنه . وعامّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء . وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به . وجعلوا لـــه أنداداً . قال تعالى (٣٩ : ٤٣ أم اتخذُوا من دون الله شُفعاء ؟ قل : أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يَعْقلون ٤٤ قل لله الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السّموات والأرض) وقال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله مالا يَضرُّهم ولا ينفعهم . ويقولون هؤلاء شُفعاؤنا عند الله . قل أتُنبّئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٦ : ٩٤ ولقَدْ جِئتُمُونا فُرَادَى كما خلقناكم أوّلَ مرّةٍ وتركْتُمْ ما خوّلناكم وراء ظُهوركم وما نَرى معكُم شفعاءكم الذين زَعَمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون) وقال تعالى (٢ : ١٦٥ وَمنَ النّاسِ مَنْ يتخذُ من دون الله أنداداً يُحبُّونهم كحبِّ الله) . ولهذا كان أتباع هؤلاء [١] من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها . ويصوم وينسك لها ويتقرأ اليها [٢] . . ثم يقول : ان هذا ليس بشرك . انما الشرك اذا اعتقدت أنها المدبرة لي . فاذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام أن هذا شرك . انتهى كلامه .

قوله (وقول الله تعالى ٥١ : ٥٦ وما خلقتُ الجنّ والإنس الا ليعبدون) بالجر عطف على التوحيد ويجوز الرفع على الابتداء .

قال شيخ الاسلام : العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل .

(١) أي من يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى . ككثير من ينتسبون الى الاسلام، ويشتغل بالسحر الذي هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع العزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر وغير ذلك مما سيأتي تفصيله

(٢) أي يذبح لها الذبائح . ويصنع الأطعمه . كما يعمل الحاج لبيت الله من المناسك

وقال أيضاً : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية .

وبيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبي : أصل العبادة التذلل والخضوع . وسُمّيت وظائف الشرع على المكلفين عبادات . لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والانس إلا لعبادته . فهذا هو الحكمة في خلقهم .

قلت : وهي الحكمة الشرعية الدينية .

قال العماد ابن كثير : وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وذلك هو حقيقة دين الاسلام . لأن معنى الاسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى .

وقال أيضاً في تفسير هذه الآية : ومعنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج اليهم . بل هم الفقراء في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الآية (إلا لآمُرَهم أن يعبدوني وأدعوَهم الى عبادتي » وقال مجاهد « الا لآمرهم وأنهاهم » اختاره الزجاج وشيخ الاسلام . قال : ويدل على هذا قوله (٧٥ : ٣٦ أيَحسبُ الانسانُ أن يُترَكَ سُدًى) قال الشافعي «لا يؤمر ولا ينهى » وقال في القرآن في غير موضع (اعبدوا ربَّكم) (اتقوا ربَّكم) فقد أمرهم بما خلقوا له . وأرسل الرسل بذلك . وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعاً ، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه .

وقوله (١٦ : ٣٦ ولقَدْ بَعَثْنا في كلّ أمّةٍ رَسُولاً أنِ اعْبُدُوا الله واجْتنِبُوا الطّاغُوتَ)

قال وهذه الآية تشبه قوله تعالى (٤ : ٦٤ وما أرْسلنا من رسولٍ إلا لِيُطاعَ باذْنِ الله) ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته . ثم قد يَعبدون وقد لا يعبدون . وهو سبحانه لم يقل : انه فعلَ الأول . وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم . الثاني : وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني . فيكونوا هم الفاعلين له . فيحصل لهم بفعله سعادتهم ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم . انتهى .

ويشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث .

فمنها : ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يقول الله تعالى لأهون اهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردتُ منك أهونُ من هذا وانت في صلب آدم . أن لا تشرك — أحسبه قال : ولا ادخلك النار — فأبيت إلا الشرك [١] » فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه : من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً . فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره . وهذه هي الارادة الشرعية الدينية كما تقدم .

فبين الارادة الشرعية الدينية والارادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق . يجتمعان في حق المخلص المطيع . وتنفرد الارادة الكونية القدرية في حق العاصي . فافهم ذلك تنج من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم .

قال (وقوله ١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) الطاغوت : مشتق من الطغيان . . وهو مجاوزة الحدّ . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الطاغوت الشيطان » [٢] . وقال جابر رضي الله

---

(١) رواه الامام احمد والبخاري .

(٢) ذكره ابن كثير عن حسان بن فائد العبسي عن عمر قال : « ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وان الشجاعة والجبن تكون غرائز في الرجال ألخ » ثم قال الحافظ ومعنى قوله في =

عنه « الطاغوت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » رواهما ابن أبي حاتم .
وقال مالك « الطاغوت كل ما عُبد من دون الله » .

قلت : وذلك المذكور بعضُ أفراده ، وقد حدّه العلامة ابن القيم حداً جامعاً فقال الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله. أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله او يطيعونه فيما لا يعلمون انه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم . اذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها . رأيت اكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى الى عبادة الطاغوت وعن طاعة رسول الله ﷺ الى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمة (أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أي اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦ فمنْ يكفرْ بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسكَ بالعرْوة الوُثقى لا انفصام لها) وهذا معنى « لا إله إلا الله » فانها هي العروة الوثقى .

قال العماد ابن كثير في هذه الآية : كلهم – أي الرسل – يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل سبحانه يرسل الى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل اليهم . وكان أول رسول بعثه الله تعالى الى أهل الأرض الى أن ختمهم بمحمد ﷺ . الذي طبقت دعوته الانس والجن في المشارق والمغارب . وكلهم كما قال الله تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرْسلنا من قبلكَ من رسولٍ إلا نوحي إليهأنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (ولَقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ؟) فمشيئة الله

= الطاغوت « انه الشيطان » قوي جداً ، فانه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية . من عبادة الأوثان ، والتحاكم اليها ، والاستنصار بها . وكذلك رواه ابن جرير

تعالى الشرعية عنهم منفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية — وهي تمكينهم من ذلك قدراً — فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعبادة الكفر ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال (١٦ : ٣٦ فمنهم منْ هدَى اللهُ ومنهم من حقتْ عليه الضلالة) انتهى .

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التي قبلها . وذلك قوله (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) فتدبر .

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل ، دعوتهم أممهم الى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم . كما قال تعالى (٥ : ٥١ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً) وأنه لا بد في الايمان من عمل القلب والجوارح .

قال (قوله تعالى ١٧ : ٢٣ وقضَى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) قال مجاهد « قضى » يعني وصى . وكذا قرأ أُبيُّ بن كعبٍ وابنُ مسعود وغيرهم . ولابن جرير عن ابن عباس « وقضى ربك ، يعني أمر » .

وقوله تعالى (ألا تعبدوا إلا إياه) المعنى ، أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى « لا إله إلا الله » .

قال ابن القيمْ رحمه الله تعالى ، والنفي المحض ليس توحيداً . وكــذلك الاثبات بدون النفي . فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والاثبات . وهذا هو حقيقة التوحيد .

وقوله (وبالوالدين إحساناً) أي وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى في الآية الأخرى (٣١ : ١٤ أن اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير) .

إمّا يبلُغنّ عندك الكبرَ أحدهما أو كِلاهُما فلا تَقُلْ لَهُما أفٍ ولا تَنهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كريما ٢٤ وَاخْفِضْ لَهُمَا جناح الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَمَا رَبَّيَاني صَغيراً).

وقوله (إما يبلغن عندك الكبر . أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لها أفٍّ ولا تنهرهما) أي لا تسمعهما قولاً سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء (ولا تنهرهما) أي لا يصدر منك اليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبي رباح «لا تنفض يديك عليهما» .

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن فقال (وقلْ لهما قولا كريما) اي ليناً طيباً بأدبٍ وتوقير . وقوله (واخفض لهما جناح الذُّل من الرّحمة) أي تواضع لهما (وقلْ ربِّ ارحمهما) أي في كبرهما وعند وفاتهما (كما ربياني صغيراً) .وقد ورد في برّ الوالدين أحاديث كثيرة . منها : الحديث المروى من طُرقٍ عن أنس وغيره «أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال : آمين ، آمين ، آمين . فقالوا يا رسول الله ، على ما أمّنت ؟ قال : أتاني جبريل فقال يا محمد ، رَغِمَ أنفُ امرىء ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك قل : آمين ، فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنفُ امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يُغفر له ، قل : آمين ، فقلت آمين . ثم قال رغم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين ، فقلت آمين [1] » وروى الامام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

---

(١) أخرجه عن أنس : ابن أبي شيبة والبزار في مسنديهما من طريق سلمة بن وردان عنه ، وسلمة ضعيف . ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الاسناد . وابن حبان في ثقاته وصححه ، والطبراني في الكبير ، والبخاري في بر الوالدين ، والبيهقي في شعب الايمان ، والضياء المقدسي في المختارة ، كلهم عن كعب بن عجرة ، ورجاله ثقات . وأخرجه ابن حبان في الصحيح والثقات والطبراني ورجاله ثقات عن مالك بن الحويرث ، ورواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في تهذيبه والدارقطني في الافراد . وأشار اليه الترمذي وأخرجه النسائي وابن السني في اليوم والليلة والضياء المقدسي في المختارة ، كلهم عن جابر بن عبدالله . وأخرجه البزار ـ

ﷺ « رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما ، لم يدخل الجنة » قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين . وكان متكئاً فجلس ، فقال ألا وقولُ الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليتهُ سكتَ » رواه البخاري ومسلم . وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « رضى الرب في رضى الوالدين . وسخطه في سخط الوالدين عن أسيد الساعدي رضي الله عنه قال « بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل من بني سَلِمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من برّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما . وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » رواه أبو داود وابن ماجة . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً .

وقوله (٤ : ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) [١] قال العماد ابن

= والطبراني عن عمار بن ياسر . وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبراني عن ابن عباس وأبي ذر . وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة وهو عند البيهقي في الدعوات مختصراً . وعند الترمذي وأحمد وقال الترمذي : حسن غريب . وأخرجه الدارقطني في الأفراد والبزار في مسنده والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة ، وأخرجه البزار والطبراني وابن أبي عاصم عن عبدالله بن الحرث ابن جزء الزبيدي

(١) قال في قرة العيون : وهذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها أيضاً فانه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة فلا تصح بدونه أصلا كما قال تعالى (٦ : ٨٨ ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال تعالى (٣٩ : ٦٥ ، ٦٦ ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ه بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) فتقديم المعمول يفيد الحصر أي بل الله فاعبده وحده لا غيره كما في فاتحة الكتاب (اياك نعبد واياك نستعين) وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله (٣٩ : ١١ قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى .

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة فلا تغفل عما تقدم .

وقوله (٦ : ١٥١ قُلْ تَعالَوْا أتلُ ما حرّمَ رَبّكمعليكم أن لا تُشرِكُوا بهِ شَيئاً وبالوالِدَيْنِ إحساناً

كثير رحمه الله في هذه الآية : يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فانه الخالق الرازق المتفضل على خلقه في جميع الحالات ، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . انتهى .

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة ، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام ، ليكون ذكره بعدها أنسب .

وقوله تعالى (٦ : ١٥١ — ١٥٣ قل تعالَوا أتلُ ما حرّم ربّكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) الآيات [١] .

---

(١) في قرة العيون : وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو اعظم المحرمات ؛ كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن ، كما عبد اولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك ديناً ؛ ونفروا اذا دعوا الى التوحيد أشد نفرة ؛ واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥ واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) وقال تعالى (١٧ : ٤٦ واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) وقال (٣٧ : ٣٥ انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ٣٦ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) علموا أن لا اله الا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه ، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه. فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة « لا اله الا الله » من أكثر متأخري هذه الأمة لا سيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام ؛ فجهلوا توحيد العبادة فوقعوا في الشرك المنافي لــه وزينوه ، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ؛ فوقعوا في نفيه أيضاً . وصنفوا فيه الكتب ، لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل ، وقد اشتدت غربة الاسلام حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فنشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وقد قال صلى الله عليه وسلم « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة . قالوا ؛ ومن هي يا رسول الله ؟ قال ؛ من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي » وهذا الحديث قد صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من=

قال العماد ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غيرالله ، وحرموا ما رزقهم الله (تعالوا) أي هلموا وأقبلوا (أتل) أقص عليكم (ما حرم ربكم عليكم) حقاً ، لا تخرّصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده (ألا تشركوا به شيئاً) وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق تقديره : وصاكم ألا تشركوا به شيئاً ، ولهذا قال في آخر الآية (ذلكم وصاكم به) اهـ .

قلت : فيكون المعنى : حرّم عليكم ما وصاكم بتركه من الاشراك به ، وفي المغني لابن هشام في قوله تعالى (ألا تشركوا به شيئاً) سبعة أقوال ، أحسنها : هذا الذي ذكره ابن كثير ، ويليه : بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا ، فحذفت الجملة من احدهما ، وهي (وصاكم) وحرف الجر وما قبله من الأخرى . ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا : يقول « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . واتركوا ما يقول آباؤكم »كما قال ابو سفيان لهرقل[1] وهذا هو الذي فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله ﷺ لهم! «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

وقوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) قال القرطبي : الاحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة عليهما و (إحساناً) نصب على المصدرية ، وناصبه فعل من لفظه تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً .

ـــالحفاظ وهو في السنن وغيرها . ورواه محمد بن نصر في كتاب الاعتصام ، وقد وقع ما أخبر به النبي (ص) بعد القرون الثلاثة .

فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذي هو أصل دين الإسلام ؛ فان أصله أن لا يعبد الا الله وأن لا يعبد الا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع ، ولكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع اليه على بصيرة ، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التي أنزلها على أنبيائه ورسله ؛ فله الحمد والشكر على ذلك .

(١) رواه البخاري في بدء الوحي ، في حديث أبي سفيان الطويل .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١

وقوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) الاملاق : الفقر ، أي لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر ، فاني أرازقكم وإياهم ، وكـان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر ، ذكره القرطبي . وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه (قلت : يا رسول الله ، أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك . ثم تلا رسول الله ﷺ (٢٥ : ٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقوله (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال ابن عطية : نهيٌ عام عن جميع أنواع الفواحش ، وهي المعاصي . و(ظهر) و (بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء . انتهى

وقوله (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) في الصحيحين : عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً « لا يحلُّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيِّبُ الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) قال ابن عطية : (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات والوصية الأمر المؤكد المقرر . وقوله (لعلكم تعقلون) (لعل) للتعليل أي إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها ، وفي تفسير الطبري الحنفي : ذكر أولا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا فخافوا واتقوا .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

وقوله (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) قال ابن عطية: هذا نهي عام عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو السعي في نمائه، قال مجاهد: التي هي أحسن، التجارة فيه، وقوله (حتى يبلغ أشده) قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ. روي نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم.

وقوله (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) قال ابن كثير: يأمر تعالى باقامة العدل في الأخذ والاعطاء (لا نكلف نفساً إلا وسعها) أي من اجتهاد بأداء الحق وأخذه، فان أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد. قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى والغضب بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل الى الحبيب والقريب (٥ : ٨ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

وقوله (وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك بأن يطيعوه بما أمرهم به ونهاهم عنه. وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله. وكذا قال غيره، وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

وقوله (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم. فانه نهى وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف. و (أن)

تَذَكَّرون ١٥٢ وأَنَّ هذا صِراطِي مُستقيماً فاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سَبيله ذَلِكُم وَصّاكُم بهِ لعلكم تتقون .

في موضع نصب . أي أتلو أنّ هذا صراطي ، عن الفراء والكسائي . ويجوز أن يكون خفضاً . أي وصاكم به وبأن هذا صراطي . قال : والصراط الطريق الذي هو دين الاسلام . (مستقيماً) نصب على الحال ومعناه مستوياً قَيِّماً لا اعوجاج فيه . فامر باتباع طريقه الذي طرّقه على لسان محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة وتشعبت منه طرق . فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به الى النار . قال الله تعالى (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أي تميل . انتهى .

وروى الامام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم — وصححه — عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل — الآية) » وعن مجاهد : ولا تتبعوا السبل ، قال : البدع والشهوات .

قال ابن القيم رحمه الله : ولنذكر في الصراط المستقيم قولا وجيزا ، فان الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شيء واحد ، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلا لهم اليه ؛ ولا طريق اليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسُن رسله ، وجعله موصلا لعبادة الله ، وهو إفراده بالعبادة ،وإفراد رسله بالطاعة ؛ فلا يشرك به أحداً في عبادته ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً في طاعته . فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول (ص)، وهذا كله مضمون « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » فأي شيء فسّر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين . ونكتة ذلك ، أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله،

قال ابن مسعود «من أراد أن ينظُرَ إلى وَصيّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمهُ فليقرأ قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرمَ ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) إلى قوله (وأن هذا صراطي مستقيماً) الآية» .

فلا يكون في قلبك موضع إلا معموراً بحبه ، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ؛ وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به . وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيّتها [1] وقطب رحاها . قال : وقال سهل بن عبدالله : عليكم بالأثر والسنة ، فاني أخاف ؛ إنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذموه ونفّروا عنه وتبرأوا منه وأذلوه وأهانوه . اه .

قوله (قال ابن مسعود : من أراد أن ينظر الى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ (قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم — إلى قوله — وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . الآية) .

قوله «ابن مسعود» هو عبدالله بن مسعود بن غافل — بمعجمة وفاء — ابن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن . صحابي جليل من السابقين الأولين ؛ وأهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان ومن كبار علماء الصحابة . أمّره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه .

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه . وقال بعضهم : معناه من أراد أن ينظر الى الوصية التي كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغَيَّر ولم تبدّل فليقرأ (قل تعالوا — الى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص . فان النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب

---

(1) الآخية — بالمد والتشديد — حبيل ، أو عويد يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير طرفه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمعها : الأواخي

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال « كنتُ رَديفَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم على حمارٍ فقال لي : يا معاذُ أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ ، وما حقُّ العبادِ على اللهِ ؟

الله . كما قال فيما رواه مسلم « وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وقد روى عُبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله (قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الثلاث الآيات . ثم قال : من وفّى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه)رواه ابن ابي حاتم والحاكم وصححه ومحمد بن نصر في الاعتصام .

قلت : ولأن النبي ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه. وفي كتابه الذي أنزله (١٦ : ٨٩ تبياناً لكلِّ شيء وهُدًى ورحمةً وبُشرَى للمسلمين) وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ .

قوله (وعن معاذ بن جبل قال « كنتُ رَديفَ النبي ﷺ على حمار ؛ فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً — قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشِّر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا » أخرجاه في الصحيحين) .

هذا الحديث في الصحيحين من طرق . وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف .

و« معاذ بن جبل » رضي الله عنه هو ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن ؛ صحابي مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدراً وما بعدها. وكان اليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضي الله عنه . وقال النبي ﷺ

« معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة »[1] أي بخطوة . قال في القاموس والرَّتْوَة الخطوة وشرفٌ من الأرض ، وسُوَيعة من الزمان ، والدعوة . والفطرة ، ورمية بسهم أو نحو ميل أو مَدَى البصر والراتي العالم الرباني انتهى .

وقال في النهاية انه يتقدم العلماء برتوة أي برمية سهم . وقيل . بميل وقيل ، مَدّ البصر . وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث . مات معاذ سنة ثماني عشرة بالشام في طاعون عمْواس وقد استخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم .

قوله (كنت رديف النبي ﷺ) فيه جواز الارداف على الدابة . وفضيلة معاذ رضي الله عنه .

قوله (على حمار) في رواية اسمه عُفير . قلت : أهداه اليه المقوقس صاحب مصر .

وفيه : تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه . خلافاً لما عليه أهل الكبر .

قوله (أتدري ما حق الله على العباد) أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم . و « حق الله على العباد » هو ما يستحقه عليهم و « حق العباد على الله » معناه أنه متحقق لا محالة . لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده (٣٠ : ٦ وَعْدَ الله لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ) .

قال شيخ الاسلام : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل . ليس هو استحقاق مقابلة . كما يستحق المخلوق على المخلوق . فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق . إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق . ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا . كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى (٣٠ : ٤٧ وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين) لكن أهل السنة يقولون :

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الاصابة : أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من مرسل أبي عون الثقفي ، وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب .

هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق . لم يوجبه عليه مخلوق . والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن أن يكون هو الموجب ، وغلطوا في ذلك ؛ وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرية أتباع جهم ، والقدرية النافية

قوله (قلت الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب من المتعلم ، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك ، بخلاف اكثر المتكلفين .

قوله (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) أي يوحدوه بالعبادة . ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرّف العبادة بتعريف جامع فقال :

وعبـــادة الرحمن : غاية حبه　　مع ذل عابده ، هما قطبان

ومداره بالأمر — أمر رسوله — لا بالهوى والنفس والشيطان[1]

قوله (ولا يشركوا به شيئاً) أي يوحدوه بالعبادة ، فلا بد من التجرد من الشرك في العبادة ، من لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد جعل لله نداً . وهذا معنى قول المصنف رحمه الله :

(وفيه أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه ، وفي بعض الآثار الإلهية

---

(١) في قرة العيون :

حق الاله عبـادة بـالأمـر لا　　بهوى النفوس فذاك للشيطان

من غير إشراك به شيئا همـا　　سبب النجاة فحبذا السببان

لم ينج مـن غضب الله ونـاره　　الا الذي قامت به الاصلان

والنـاس بعـد فمشرك بإلهه　　أو ذو ابتداع أو له الوصفان

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة . لكن هو سبحانه جعل ذلك على نفسه تفضلا واحسانا على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا في ارادتهم . ومعاملتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه ، ولم يتقربوا بما يقولونه ويسلونه من الطاعات الا اليه وحده والله أعلم

به شيئا وحقُّ العبادِ على الله أن لا يُعذّب مَنْ لا يُشرك به شيئا ، قلتُ يا رسول الله أفلا أبشّر الناس؟ قال: لا تبشّرهم فيتّكلوا. أخرجاه في الصحيحين

فيه مسائلُ . الأولى : الحِكمةُ في خلق الجنّ والانس .

الثانية : أن العبادة هي التوحيدُ لأن الخصومة [1] فيه .

الثالثة : أن مَنْ لم يأتِ به لم يعبُدِ الله . ففيه معنى قوله (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

« إني والجن والانس في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر سواي ، خيري الى العباد نازل ؛ وشرهم إليّ صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إليّ بالمعاصي ») .

قوله (وحق العباد على الله ألا يعذّب من لا يشرك به شيئاً) قال الحافظ : اقتصر على نفي الاشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم . إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك وهو مثل قول القائل : ومن توضأ صحت صلاته ، أي مع سائر الشروط . اهـ .

قوله (أفلا أبشر الناس) فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره ، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قاله المصنف رحمه الله .

قوله (لا تبشرهم فيتكلوا) أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال . وفي رواية «فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً » أي تحرُّجاً من الإثم . قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة ، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

---

(١) يعني ان الخصومة انما وقعت بين النبي (ص) وبين المشركين في تحقيق « لا اله الا الله » المكونة من جملتين احداهما نفي والثانية اثبات . فالأولى تنفي كل الآلهة التي يدعيها الناس والثانية تثبت الالهية لله وحده . يعني ينبغي أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله .

الرابعة : الحكمةُ في إرسال الرُّسل .

الخامسة : أن الرسالة عمّت كل أمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

السابعة : المسئلةُ الكبيرةُ أن عبادة الله لا تحصلُ إلا بالكفر بالطاغوتِ ، ففيه معنى قوله (فَمَنْ يكْفُر بالطاغوتِ ويؤْمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروةِ الوثْقى) .

الثامنة : أن الطاغوت عامٌ في كل ما عُبِدَ من دون الله .

التاسعة : عِظمُ شأنِ ثلاثِ الآياتِ المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل[1] . أولها : النهيُ عن الشرك .

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم ، الحث على إخلاص العبادة لله وأنها لا تنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة . والتنبيه على عظمة حق الوالدين .وتحريم عقوقهما . والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام . وجواز كتمان العلم للمصلحة .

قوله (أخرجاه) أي البخاري ومسلم . و « البخاري » رحمه الله هو الامام محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بن بَرِدِزْبه الجعفيَ مولاهم ، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن الامام أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي والفِرَبري راوي الصحيح . ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ومات سنة ست وخمسين ومائتين .

و« مسلم » رحمه الله هو ابن حجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري صاحب الصحيح والعلل والوجدان وغير ذلك . روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم . وروى عن البخاري . وروى عنه الترمذي وابرهيم بن محمد بن سفيان راوي الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين . ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله .

---

(١) التي هي الوصايا العشر . وأولها وأهمها (أن لا تشركوا بالله شيئاً) .

العاشرة . الآياتُ المحكماتُ في سورة الاسراء وفيها ثمانية عشر مسئلــة بدأها الله بقوله (ولا تجعَلْ مع الله إلهاً آخرَ فتقعدَ مذْموماً مخذولاً) وختمها بقوله (ولا تجعَل مع الله إلهاً آخرَ فتُلْقى في جَهنّم ملوماً مدْحوراً) ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله (ذَلك مما أوْحى إليك ربُّك من الحكمة) .

الحادية عشرة : آية سورة النساء الّتي تسمّى آية الحقوق العشرة . بدأها الله تعالى بقوله (واعبدُوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً) .

الثانية عشرة : التنبيه على وَصيّة رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حقّ العباد عليه إذا أدّوْا حقّه .

الخامسة عشرة : أنّ هذه المسألة لا يعرفُها (١) أكثرُ الصحابة .

السادسة عشرة : جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحبابُ بشارةِ المسلم بما يَسره .

الثامنة عشرة : الخوفُ من الاتّكالِ على سعةِ رحمة الله .

التاسعة عشرة : قولُ المسؤولِ عما لا يعلم « الله ورسوله أعلم » .

العشرون : جوازُ تخصيص بعض الناسِ بالعلم (٢) دون بعضٍ .

الحادية والعشرون : تواضُعه ﷺ لركوبِ الحمار ، مع الارداف عليه .

الثانية والعشرون : جوازُ الإرداف على الدّابة .

الثالثة والعشرون : فضيلةُ مُعاذِ بن جبلٍ .

---

(١) لا يعرفها أكثر الصحابة لأن النبي أمر معاذا أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلوا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل فلم يخبر بها الا عند موته تأثماً . فلذلك لم يعرفها أكثر الصحابة في حياة معاذ .

(٢) يعني العلم الزائد على القدر المحتاج اليه في اقامة الدين ، والا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم في قوله (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) وقوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

الرابعة والعشرون : عِظَمُ شأن هذه المسألة .

باب

وقول الله تعالى (٦ : ٨٢ الذين آمنوا ولم يَلبِسوا إيمانَهم بظُلم أولئك لهم الأمن وَهُم مُهتدون) .

(فضل التوحيد [١] وما يُكفر من الذنوب)

قوله (باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) « باب » خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا (قلت) ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره هذا. و« ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أي وبيان الذي يكفره من الذنوب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي وتكفيره الذنوب ، وهذا الثاني أظهر .

قوله (وقول الله تعالى « ٦ : ٣٢ الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بِظُلم أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون » قال ابن جرير : حدثني المثنى — وساق بسنده — عن الربيع بن أنس قال : « الايمان الاخلاص لله وحده »)

وقال ابن كثير في الآية : أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ، ولم يُشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة . وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ ليس بذلكم ، ألم تسمعوا إلى قول لقمان (إن الشرك لظلم

---

(١) في قرة العيون : والمراد بالتوحيد توحيد العبادة وهو افراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر ونحوه كما قال تعالى (٤٠ : ١٤ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وقال تعالى (٤٠ : ٦٥ فادعوه مخلصين له الدين) .

عظيم) » وساقه البخاري بسنده [1] فقال حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثني إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه قال « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قلنا : يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، بشرك . أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه (يا بُنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

ولأحمد بنحوه عن عبدالله قال « لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك » . وعن عمر أنه فسره بالذنب . فيكون المعنى : الأمن من كل عذاب . وقال الحسن والكلبي « أولئك لهم الأمن . في الآخرة ، وهم مهتدون في الدنيا » .

قال شيخ الاسلام : والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه . فبيّن لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله . فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم . فان من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله : (٣٥ : ٣٢ ثم أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفَيْنا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مُقْتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى (٩٩ : ٠ فمن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَه ، ٧ ومن يعملْ مثقالَ ذرّة شراً يَرَه) وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال « يا رسول الله . أيُّنا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : يا أبا بكر ألست تنصَب ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبيّن أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة قد

(١) في قصة ابراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء .

يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب. فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك . كان له الأمن التام والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق . بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى : وقد هداه الله الى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه الى الجنة . ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه ؛ وليس مراد النبي ﷺ بقوله « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام . فان احاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعَرَّضون للخوف ؛ لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام اللذين يكونون بهما مهتدين الى الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعم الله عليهم ؛ من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ؛ ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله « إنما هو الشرك » إن أراد الأكبر . فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . وإن كان مراده جنس الشرك . يقال ظلم العبد نفسه ؛ كبخله لحب المال ببعض الواجب— هو شرك أصغر . وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله الشرك أصغر ونحو ذلك . نهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ في هذا الشرك بهذا الاعتبار انتهى ملخصاً (١) .

وقال ابن القيم رحمه الله : قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال الصحابة « وأيُّنا يا رسول الله لم يَلْبِس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك . ألم تسمعوا قول العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) » لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا ان ظلم النفس داخل فيه. وأن من ظلم نفسه أيّ ظلم كان لم يكن آمناً ولا مهتدياً . أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الاطلاق هو الشرك .وهذا

(١) من كتاب الايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه .

عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « مَنْ شَهِدَ أن لا إله إلا الله . وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ » .

والله هو الجواب الذي يشفي العليل ويروي الغليل . فان الظلم المطلق التام هو الشرك . الذي هو وضع العبادة في غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هذا الأمن في الدنيا والآخرة . والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام . ولا يمنع أن يكون الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة . اهـ ملخصاً [1] .

قوله (عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم ورُوحٌ منه . والجنةَ حقٌ والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل . أخرجاه) .

عبادة بن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي ، أبو الوليد ، أحد النقباء بَدْري مشهور مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين ، وله اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : عاش الى خلافة معاوية رضي الله عنه .

---

(١) قال في قرة العيون : قال تعالى (٣٥ : ٣٢ ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه هو الذي خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، فهو تحت مشيئة الله : إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنبه ، ونجاه بتوحيده من الخلود في النار . وأما المقتصد فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه وترك ما حرم عليه فقط ، وهذه حال الأبرار . وأما السابق فهو الذي حصل له كمال الايمان باستفراغه وسعه في طاعة الله علماً وعملا . فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة فالكمال للكل ، والحصة للحصة ، لأن كمال الايمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها ، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به كما قال تعالى (٤ : ١٤٧ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله في معناها ، وهو الذي دل عليه القرآن ، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم .

قوله (من شهد أن لا إله إلا الله) اي من تكلم بها عارفاً لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، باطناً وظاهراً ، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى (٤٧ : ١٩ فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقوله (٤٣ : ٨٦ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح – فغير نافع بالاجماع [1] .

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم : بابٌ لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين ؛ بل لا بد من استيقان القلب – هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرجئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الايمان . وأحاديث

---

(١) قال في قرة العيون : وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً ، فنفت الالهية عن كل ما سوى الله بقولك « لا إله » وأثبتت الالهية لله بقولك « الا الله » قال تعالى (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقلبوا حقيقة المعنى فأثبتوا الالهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك ، واتخذوا ذلك ديناً وشبهوا وزخرفوا ، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم اليه ؛ فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم (ح) فانهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلت عليه من الاخلاص كما قال تعالى (٣٧ : ٣٥ إنهم كانوا اذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ٣٦ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها . فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه ؛ وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه ؛ فلهذا تجده يقول : لا إله الا الله ، وهو يدعو مع الله غيره .

ح سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئاً من معنى التوحيد الذي قرره . وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة وانما يدينون بالاصطلاحات التي تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية . واذا كان مثل الفخر الرازي من أكبر أئمة متكلميهم وأصولييهم أخطأ في فهم معنى الاله في تفسير قوله تعالى : (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فما الظن بمن دونه من علمائهم . دع عامتهم ودهماءهم ؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتاً أو صالحاً حياً فيما لا يدعى فيه إلا الله ، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابداً له ومتخذاً له إلهاً ؟ !!

هذا الباب تدل على فساده . بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها . ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالايمان الصحيح . وهو باطل قطعاً اهـ .

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا . وهو قوله « من شهد » فان الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق .

قال النووي : هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع – أو من أجمع – الأحاديث المشتملة على العقائد . فانه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها . فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم اهـ .

ومعنى « لا إله إلا الله » لا معبود بحق إلا الله . وهو في غير موضع من القرآن ، ويأتيك في قول البقاعي صريحاً قوله (وحده) تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي . قاله الحافظ . كما قال تعالى (٢ : ١٦٣ وإلهكم إلهٌ واحد لا إله إلا هو الرحمنُ الرحيمُ) وقال (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (٧ : ٦٥ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه) فأجابوه رداً عليه بقولهم (أجئتنا لنعبُدَ اللهَ ونَذَرَ ما كان يعبدُ آباؤنا ؟) وقال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق وانّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير) .

فتضمن ذلك نفي الإلهية عما سوى الله ، وهي العبادة . وإثباتها لله وحده لا شريك له ، والقرآن من أوله الى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد اليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألّه القلب بالحب والخضوع والتذلل رَغَباً ورَهباً ، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله . فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداً ؛ فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .

(ذكر كلام العلماء ، في معنى « لا إله إلا الله »)

قد تقدم كلام ابن عباس، وقال الوزير أبو المظفر في الافصاح : قوله : « شهادة أن لا إله إلا الله » يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) قال : واسم (الله) بعد (إلا) من حيث أنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملة الفائدة في ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والايمان بالله ؛ فانك لما نفيت الإلهية وأثبت الايجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله .

وقال ابن القيم في البدائع [1] رداً لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، فلا يكون داخلا في المستثنى ؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الاسلام بقوله « لا إله إلا الله » لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى . وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص . فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا : (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبدالله القرطبي في تفسيره (لا إله إلا الله) أي لا معبود إلا هو .

وقال الزمخشري : الإله من أسماء الأجناس . كالرجل والفرس ؛ يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق .

وقال شيخ الاسلام : الإله هو المعبود المطاع ، فان الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ، قال : فان الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها ،

---

(١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم «ج ٣ ص ٥٦ » وهو بحث قيم جدا في الاستثناء والمستثنى .

وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه . وتنيب اليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ اليه وتطمئن بذكره ، وتسكن الى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها أهلَ الله وحزبَه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته ، فاذا صحت صح بها كل مسألة وحالٍ وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله .

وقال ابن القيم : (الإله) هو الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا .

وقال ابن رجب : (الإله) هو الذي يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالا ، ومحبة وخوفا ورجاء ، وتوكلا عليه ، وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح هذا كله إلا الله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعي : لا إله إلا الله ، أي انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم ، فان هذا العِلْم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً اذا كان نافعاً ، وانما يكون نافعاً اذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صِرْف .

وقال الطيبي : (الإله) فِعَال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من أَلِه إلهةً أي عُبِد عبادة . قال الشارح : وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم .

فدلت (لا إله إلا الله) على نفي الالهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً ما كان ، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه ، وهذا هو التوحيد الذي دعت اليه الرسل ودلَّ عليه القرآن من أوله الى آخره ، كما قال تعالى عن الجن (٧٢ : ١ قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنه استمع نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً ، يَهْدِي الى الرُّشْدِ فآمنّا به ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحدا) فلا إله إلا الله

لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً ، واعتقد ذلك وقبله وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف ، فهي حجة عليه بلا ريب .

فقوله في الحديث « وحده لا شريك له » تأكيد وبيان لمضمون معناها . وقد أوضح الله ذلك وبيّنه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين . فما أجهل عُبّاد القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الاخلاص لا إله إلا الله ! فان مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظاً ومعنى . وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظا وجحدوها معنى . فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم . والخوف والرجاء . والتوكل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة . بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب ، فان أحدهم اذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى،ويعتقدون أنه أسرع فرَجاً لهم من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ؛ فانهم كانوا يشركون في الرخاء ، وأما في الشدائد فانما يخلصون لله وحده ؛ كما قال تعالى (٢٩ : ٦٥ فاذا ركبوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّين فلما نجّاهم الى البرِّ اذا هم يشركون) الآية . فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم [1] .

---

(١) في قرة العيون « قلت » وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الاله وقلبوا حقيقة المعنى الى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته (لا إله الا الله) من الشرك وأنكروا ما أثبتته من اخلاص العبادة لله جهلا منهم ؛ وقد قال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين) قال محيي الدين النووي : اعلم ان باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع من ازمان متطاولة ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم ، به قوام الأمر وملاكه ، واذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح .

وقوله في هذه الأزمان يعني القرن الخامس والسادس ، واذا كانَ كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربة . ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يسبق الى مثله فليراجع لمسيس الحاجة إليه .

وأنَّ محمداً عبدُه ورسُولُه .

وقوله (وأن محمداً عبده ورسوله) أي وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله على نيّة تكرار العامل . ومعنى « العبد » هنا المملوك العابد ، أي أنه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه ، كما قال تعالى (٣٩ : ٢٦ أليس الله بكافٍ عبدَه ؟) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة ؛ فالنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين . وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى ، لا يَشْرَكُه في شيء منهما مَلَكٌ مُقرّب ولا نبيٌّ مرسل . وقوله « عبده ورسوله » أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للافراط والتفريط ، فان كثيراً ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلا ، وفرط بترك متابعته ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه ، بصرفها عن مدلولها والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها فان شهادة أن محمداً رسول الله تقتضي الايمان به وتصديقه فيما أخبر ؛ وطاعته فيما أمر ؛ والانتهاء عما عنه نهى وزجر ؛ وأن يعظّم أمره ونهيه ، ولا يقدَّم عليه قول أحد كائناً من كان [١] . والواقع اليوم وقبله — ممن ينتسب الى العلم من القضاة والمفتين — خلاف ذلك ، والله المستعان . وروى الدارمي في مسنده عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يقول « إنا لنجد صفةَ رسول الله ﷺ : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحِرزاً للأميّين . أنت عبدي ورسولي ، سميته المتوكل ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخّاب بالأسواق ، ولا يَجْزي بالسيئة مثلها . ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن أقبضه حتى يُقيم الملّة المتعوجة

(١) في قرة العيون : وأن لا تعارض بقول أحد لأن غيره (ص) يجوز عليه الخطأ والنبي (ص) قد عصمه الله تعالى ، وأمرنا بطاعته والتأسي به وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى (٣٣ : ٣٦ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الآية . وقال (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) قال الامام أحمد رحمه الله تعالى « أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ؛ لعله اذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك » . وقد وقع التفريط في المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله (ص) لا سيما من العلماء كما لا يخفى .

وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه .

بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، يفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلْفاً »
قال عطاء بن يسار : وأخبرني أبو واقد الليثي أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال
ابن سلام [1] .

قوله (وأن عيسى عبد الله ورسوله) أي خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله
أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً (٢٣ : ٩١ ما
اتَّخَذَ اللهُ من ولَدٍ وما كان معه مِنْ إلهٍ) فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد
الله ورسوله (٢ على علم ويقين بأنه مملوك لله ؛ خلَقه من أنثى بلا ذكر ، كما
قال تعالى (٣ : ٥٩ إنَّ مثَلَ عيسى عند الله كمَثَلِ آدمَ خلقه من تراب ثم
قال له كُنْ فيكون) فليس رباً ولا إلهاً . سبحان الله عما يشركون . قال
تعالى (١٩ : ٢٩ ــ ٣٦ فأشارتْ اليهِ . قالوا كيف نُكلِّم من كان في المهْدِ
صبياً ، قال إني عبدُ الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أين ما
كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمتُ حياً، وبَراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ؛
والسلامُ عليَّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حياً ؛ ذلك عيسى بنُ مريمَ
قول الحقِّ الذي فيه يمترون ؛ ما كانَ لله أن يتخِذَ من ولدٍ سبحانه ؛ إذا
قضى أمراً فانما يقول له كُنْ فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط

---

(١) آخر رواية الدارمي « ج ١ ص ٥ » وفي الرواية عن كعب « نجده مكتوبا في التوراة »

(٢) في قرة العيون ، فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده كما في الآيات المحكمات وما فيها من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف : طائفة قالوا ان عيسى هو الله ؛ وطائفة قالوا ابن الله ؛ وطائفة قالوا ثالث ثلاثة . يعنون عيسى وأمه . فبين الله تعالى في كتابه الحق وأبطل الباطل فقال (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، انما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) والآيات بعدها . وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) في مواضع من سورة المائدة وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في المهد .

مستقيم) [١] وقال (٤ : ١٧٢ لَنْ يَستَنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ؛ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً) ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : انه ولد بَغيٍّ . لعنهم الله تعالى . فلا يصح اسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام ؛ ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه : أنه عبد الله ورسوله .

قوله (وكلمته) إنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لوجوده بقوله تعالى « كن » كما قاله السلف من المفسرين . قال الامام احمد في الرد على الجهمية[٢] « بالكلمة التي ألقاها الى مريم حين قال له «كن» فكان عيسى بكن وليس عيسى هو « كن » ولكن بكن كان . فكن من الله تعالى قول ، وليس « كن » مخلوقاً ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى » انتهى .

قوله (ألقاها الى مريم) قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل الى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل : فكان عيسى بإذن الله عز وجل ؛ فهو ناشيء عن الكلمة التي قال له « كن فكان » والروح التي أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله (وروح منه [٣] قال أبي بن كعب « عيسى روح من الأرواح

---

(١) في قرة العيون : فبين تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ومن خرج منه هلك وقال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين) فبين تعالى الصراط المستقيم بياناً شافياً ووافياً وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون .

(٢) صفحة ٢٠ طبعة عيسى الحلبي وأولا ده في باب : ثم ان الجهمي ادعى أمراً فقال : انا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق . فقلنا : أي آية ؟ قال قول الله « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم » وعيسى مخلوق .

(٣) الظاهر أن معنى « وروح منه » أنه كغيره من بني آدم الذي يقول الله فيه (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) كما مثل له في الآية الأخرى بأنه مثل آدم . والله أعلم .

التي خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله (٧ : ٢٧١ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى) بعثه الله الى مريم فدخل فيها » رواه عبد بن حميد وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ؛ فالمعنى أنه كائن منه ، كما في قوله تعالى (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الاسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنىً لا يقوم بنفسه ولا

= وقال في قرة العيون : أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم كما قال تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية . وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى . وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال « نفخ جبريل في جيب درع مريم حتى وصلت النفخة الى الرحم فاشتملت عليه » وعن السدي أن النفخة دخلت في صدرها فحملت ، وقال ابن جريج : يقولون انما نفخ في جيب درعها وكمها انتهى مختصراً . فجبريل نفخ والله خلق بقوله « كن » فكان . كما قال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه .

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى (وروح منه) .

فقال في الجواب : هذا ليس خاصاً بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها . كما قال تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) أي خلقاً وايجاداً وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته . وفي هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله فانهم كانوا هم والنصارى على طرفي نقيض فنسبوه الى أنه ولد بغي ، قاتلهم الله . فأكذبهم الله تعالى في كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها

فالنصارى غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال ، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء ، وكلاهما قد ضل ضلالا بعيدا ، نبه الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب (٣٣ : ٧ والشورى ٤٢ : ١٣) وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا فقال (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فهم أفضل الرسل على التحقيق والنبي صلى الله عليه وسلم أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وَالجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ ، أدخله الله الجَنَّةَ عَلى مَا كانَ مِن العمل » أخرجاه

بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ؛ وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب . واذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره .

لكن الأعيان المضافة الى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف اليه لكونه خلقها وأبدعها ؛ فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله . وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله؛ وجميع المال مال الله .

الوجه الثاني : أن يضاف اليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه ؛ كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره . وكما يقال في مال الخُمُس والفيء : هو مال الله ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . اهـ ملخصاً .

قوله (والجنة حق والنار حق) أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق ؛ أي ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة ؛ كما قال تعالى (٥٧ : ٢١ سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنة عرضها كعرضِ السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (٢ : ٢٤ فاتقوا النار التي وقودها الناسُ والحجارة أعدت للكافرين) وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ؛ خلافاً للمبتدعة [١] . وفيهما الايمان بالمعاد .

(١) في قرة العيون : ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل فان الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار المتقين ، وذكر النار وما فيها من العذاب وانه أعدها لمن كفر به وأشرك

ولهما في حديث عِتْبان « فانَّ اللهَ حَرَّم على النار مَنْ قالَ لا إله إلاَّ الله يَبْتغي بذلكَ وجْهَ الله » .

وقوله (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية « أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » . قال الحافظ : معنى قوله « على ما كان من العمل » أي من صلاح أو فساد . لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة . ويحتمل أن يكون معنى قوله « على ما كان من العمل» أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات .

قال القاضي عياض : ما ورد في حديث عبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذي ورد في حديثه ، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة .

(قال : ولهما في حديث عِتْبان « فان الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ») .

قوله (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله . وهذا طرَف من حديث طويل أخرجه الشيخان [1]

---

(١) في قرة العيون : اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله « من قال لا اله الا الله يبتغي بذلك وجه الله » وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الاخلاص ونفي الشرك ، والصدق والاخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر ، فان لم يكن مخلصاً فهو مشرك ومن لم يكن صادقاً فهو منافق ، والمخلص أن يقولها مخلصاً الالهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى ، وهذا التوحيد هو أساس الاسلام الذي قاله الخليل عليه السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقالت بلقيس (رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال الخليل عليه السلام (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) والحنيف هو الذي ترك الشرك رأساً وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) فاسلام الوجه هو اخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها اجماعاً . فهذا هو الذي يعنيه قوله (لا اله الا الله) ولهذا قال تعالى (فقد استمسك

وعتبان بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة . ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري ، من بني سالم بن عوف . صحابي مشهور . مات في خلافة معاوية .

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذٌ رديفه على الرَّحْل قال « يا معاذ . قال : لَبَّيك يا رسول الله وسَعْدَيك . قال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك — ثلاثاً — قال ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار . قال : يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً

=بالعروة الوثقى) وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر ، كما ترى عليه أكثر الخلق ، فهؤلاء وان قالوها فقد تلبسوا بما يناقضها ؛ فلا تنفع قائلها الا بالعلم بمدلولها نفياً واثباتاً . والجاهل بمعناها وان قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك ، وكذلك اذا عرف معناها بغير تيقن له ، فاذا انتفى اليقين وقع الشك .

ومما قيدت به في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم « غير شاك » فلا تنفع الا من قالها بعلم ويقين لقوله « صدقاً من قلبه ، خالصاً من قلبه » وكذلك من قالها غير صادق في قوله . فانها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للاخلاص ، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة فانها دلت على نفي الشرك والبراءة منه والاخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة . ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله « لا إله الا الله » كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون « لا اله الا الله » وينكرون ما دلت عليه من الاخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله وقال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه (٤٣ : ٢٦ انني براء مما تعبدون ٢٧ الا الذي فطرني فانه سيهدين ٢٨ وجعلها كلمة باقية في عقبه) وهي « لا اله الا الله » وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه ، وهو البراءة من الشرك واخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الاخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ونفى ما أثبتته من الأخلاص .

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة ، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى فيصدفه عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم

يتكلوا ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً » . وساق بسند آخر : حدثنا معتمر قال سمعت أبي ، قال سمعت أنساً قال : ذُكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل « مَنْ لقيَ الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إني أخاف أن يتكلوا » .

قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين واخلاص .

قال شيخ الاسلام وغيره : في هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها ، كما جاءت مقيدة بقوله « خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين » فان حقيقة التوحيد انجذاب الروح الله إلى تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة ، لأن الاخلاص هو انجذاب القلب الى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً . فاذا مات على تلك الحال نال ذلك فانه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خردلة ، وما يزن ذرة » وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله الا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم ، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله ، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الاخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تخالط حلاوة الايمان بشاشة قلبه . وغالب من يُفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء ، كما في الحديث « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » [1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم ؛ وهم من أقرب الناس من قوله تعالى (٤٣ : ٢٣ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) .

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فانه اذا قالها باخلاص ويقين تام لم يكن

(١) في حديث البراء بن عازب الذي رواه أصحاب السنن وغيرهم في سؤال القبر .

في هذه الحال مصراً على ذنب أصلا ، فان كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب اليه من كل شيء ، فاذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذي يحرمْ على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فان هذا الايمان وهذا الاخلاص ، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا مُحيَ عنه كما يمحو الليل النهار ، فاذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مُصِرّ على ذنب أصلا ، فيغفر له ويحرم على النار . وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما في حديث البطاقة [1] فيحرم على النار . ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه . وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصِراً على ذلك ، فانه يستوجب النار . وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ولكنه لم يمت على ذلك ؛ بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده ، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والاخلاص فأضعفته . وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ؛ بخلاف المخلص المستيقن . فان حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مصراً على سيئات ، فان مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها باخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر . فان سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر ؛ فيضيف الى ذلك سيئات تنضم الى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فان السيئات تضعف الايمان واليقين ، فيضعف قول لا إله إلا الله ، فيمتنع الاخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم ، أو من يحسّن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون

(١) سيأتي في صفحة ٥٠ .

بعدها بسيئات تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيون على ذلك.
ويموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة . فاذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ؛ وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن الى الباطل ، واستحلى الرّفث ، ومخالطة أهل الغفلة ؛ وكره مخالطة أهل الحق ؛ فمثل هذا اذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه ، وبفيه ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن : « ليس الايمان بالتّحلّي ولا بالتمني ، ولكن ما وَقَر في القلوب وصدقته الأعمال . فمن قال خيراً وعمل خيراً قُبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه » .

وقال بكر بن عبدالله المزني : « ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وَقَر في قلبه » .

فمن قال : لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً، وكان صادقاً في قولها موقناً بها ، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه ، وانضاف الى ذلك الشرك الاصغر العملي ، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ، فانه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلا ، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجّح حسناته . والذين يدخلون النار ممن يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم . ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام ، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصاً .

وقد ذكر هذا كثير من العلماء ، كابن القيم وابن رجب وغيرهم .

قلت : وبما قرره شيخ الاسلام تجتمع الأحاديث .

قال : وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الايمان النطق من غير اعتقاد

وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى : يا رَب علّمني شيئاً اذكُركَ وأدعوك به » .

وبالعكس ، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله ﷺ .

(تنبيه) قال القرطبي في تذكرته : قوله في الحديث « من إيمان » أي من أعمال الايمان التي هي من أعمال الجوارح . فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الايمان ، والدليل على أنه أراد بالايمان ما قلناه ، ولم يرد مجرد الايمان الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والاخلاص بقول لا إله إلا الله ما في الحديث نفسه من قوله « أخرجوا — ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط » يريد بذلك التوحيد المجرد من الأعمال . اهـ ملخصاً من شرح سنن ابن ماجه .

قال المصنف رحمه الله (وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « قال موسى عليه السلام : يا رب ، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري ، والأرضين السبع في كفة ، ولا إله الا الله في كفة ، مالت بهن لا إله الا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه) .

أبو سعيد : اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل وأبوه كذلك . استصغر أبو سعيد بأُحد ، وشهد ما بعدها . مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين . وقيل سنة أربع وسبعين .

قوله (أذكرك) أي أثني عليك به (وأدعوك) أي أسألك به .

قوله (قل يا موسى لا إله إلا الله)[1] فيه أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا

---

(١) قال في قرة العيون : فلا نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى وخبرها محذوف تقديره لا إله إلا الله قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو —

قال : قلْ يا موسى لا إله إلا الله . قال : يا ربِّ كلُّ عبادِك يقولون هذا . قال يا موسى لو أنَّ السّمواتِ السّبعَ وعامِرَهنَّ غيري والأرضين السّبعَ في كِفة

يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على « هو » كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فان ذلك بدعة وضلال .

قوله (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذي في الأصول « يقول » بالإفراد مراعاة للفظة « كل » وهو في المسند من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى « كل » ومعنى قوله « كل عبادك يقولون هذا » أي إنما أريد شيئاً تخصني به من بين عموم عبادك ؛ وفي رواية — بعد قوله « كل عبادك يقولون هذا — قل لا إله الا الله، قال لا إله الا أنت يا رب ، إنما أريد شيئاً تخصني به » .

ولما كان بالناس — بل بالعالم كله — من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له ، كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولا . وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة .

قوله (وعامرهن غيري)[1] هو بالنصب عطف على السموات . أي لو

= العلي الكبير) فإلهيته تعالى هي الحق وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة كما في هذه الآية ونظائرها. فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الاخلاص ، وهي التي قامت بها السموات والأرض ، وشرعت لتكميلها السنة والفرض ، ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد . فمن قالها وعمل بها صدقاً وإخلاصاً وقبولا ، ومحبة وانقياداً أدخله الله الجنة على ما كان من العمل .

(١) قال في قرة العيون : أي كل من في السموات والارض وقوله « غيري » استثنى من في السموات نفسه لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى (٢ : ٢٥٥ وهو العلي العظيم) علو القهر وعلو القدر وعلو الذات . فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) (٢٥ : ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن) الآية . في سبعة مواضع من كتابه (٧ : ٥٣ و ١٠ : ٣ و ١٣ : ٢ و ٣٢ : ٤ و ٥٧ : ٤) كما قال تعالى (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من=

أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن . وضعوا في كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

حفوقهم) وقال تعالى (٧٠ : ٤ تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٣ : ٥٥ إني متوفيك ورافعك إلي) وأمثال هذه الآيات .

فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد في اسمائه وصفاته

ومعنى هذه الكلمة : نفي الالهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى .

لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة ، و قد ذكر الله سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيراً من يقولها ولم ينفعهم قولها . كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود .

(فمنهم) من يقولها جاهلا بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والاخلاص وغيرها . كعدم القبول ممن دعي اليها علماً وعملا ، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديما وحديثا ، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر .

(ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الاسباب وهي كثيرة منها قوله تعالى (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره . والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

وأما أهل الايمان الخالص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة واجتمعت لهم قيودها التي قيدت بها علماً ويقيناً وصدقاً واخلاصاً ومحبة وقبولا وانقياداً وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه . وقد ذكرهم الله تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم أعد لهم جنته وأنجاهم من النار ، كما قال تعالى (٩ : ١٠٠ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) فهؤلاء ومن اتبعهم هم أهل « لا إله إلا الله»،وغير هذه من الايات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة .

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملا . وترك ما يكرهه خشية ورجاء ، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وما هم فيه من التفاوت البعيد ؛ تبين له خطأ المغرورين . كما في الحديث الصحيح عن النبي (ص) أنه قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » .

ولا إله إلا الله في كِفة لمالت بهن لا إله إلا الله » .

وروى الامام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ « أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله ، فان السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفة ، ولا إله إلا الله في كفة رَجحتْ بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهمة لقَصمتْهن لا إله إلا الله » .

قوله (في كِفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أي كفة الميزان .

قوله (مالت بهن) أي رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك ، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فمن قالها باخلاص ويقين ، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها ، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء ، كما قال الله تعالى (٤٦ : ١٣ إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ودل الحديث على أن « لا إله إلا الله » أفضل الذكر . كحديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » رواه أحمد والترمذي ، وعنه أيضاً مرفوعاً « يُصاحُ برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مدّ البصر ثم يقال : أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب . فيقال : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول لا ، فيقال : بلى إن لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذي وحسنه . والنسائي وابن حبان والحاكم . وقال صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبي في تلخيصه : صحيح .

رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

وللترمذي ـ وحسنه ـ عن أنس : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى

قال ابن القيم رحمه الله : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والارض . قال : وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مدى البصر ؛ فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

قوله (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان اسمه محمد بن حبان ـ بكسر المهملة وتشديد الموحدة ـ ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمي البُستي الحافظ صاحب التصانيف : كالصحيح ، والتاريخ ، والضعفاء ، والثقات وغير ذلك . قال الحاكم : كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلثمائة بمدينة بُسْت ـ بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبدالله بن محمد النيسابوري أبو عبدالله الحافظ ويعرف بابن البيِّع ولد سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، وصنف التصانيف ، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما ، ومات سنة خمس وأربعمائة .

قال المصنف رحمه الله (وللترمذي ؛ وحسنه ، عن أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ؛ إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة »)[1]

---

(١) في قرة العيون : في هذا الحديث ما يبين معنى « لا إله إلا الله » التي رجحت بجميع المخلوقات : وجميع السيئات ؛ وان ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره ، وذلك يقتضي كمال التوحيد فلا يسلم من الشرك الا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الاخلاص من العلم واليقين والصدق والاخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم) .

يا ابنَ آدَم لو أتيتَني بِقُراب الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بِقُرابها مغفرة » .

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال : عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم ؛ إنك ما دعوتني ورَجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ؛ يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم . إنك لو أتيتني — الحديث » .

الترمذي : اسمه محمد بن عيسى بن سَوْرة — بفتح المهملة — ابن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى ؛ صاحب الجامع وأحد الحفاظ ؛ كان ضرير البصر ؛ روى عن قتيبة وهنّاد والبخاري وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

وأنس : هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي ؛ خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين ، وقال له « اللهم أكثر ماله وولده ؛ وأدخله الجنة » مات سنة اثنتين وقيل : ثلاث ؛ وتسعين ، وقد جاوز المائة .

والحديث قد رواه الامام أحمد من حديث أبي ذرّ بمعناه ، وهذا لفظه « ومن عملَ قُراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي جعلت له مثلها مغفرة » ورواه مسلم ، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ .

قوله (لو أتيتني بقراب الأرض) بضم القاف : وقيل بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملئها .

قوله (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً) شرطٌ ثقيل في الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك : كثيره وقليله ، صغيره وكبيره . ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى (٢٦ : ٨٩ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .

فيه مسائل الأولى سَعة فضل الله .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الرابعة : تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة .

السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين [1]

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة — إلى أن قال — فان كمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ؛ وقام بشروطه بقلبه ولسانه وبجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية . فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله : محبة وتعظيماً ، وإجلالا ومهابة وخشية وتوكلا ؛ وحينئذ تُحرّق ذنوبه وخطاياه كلها ، وإن كانت مثل زبد البحر . اه ملخصاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الحديث : ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك . فلو لقى

(١) كثير من الناس يخطئون في فهم احاديث « من قال لا اله الا الله دخل الجنة » فيظنون بأن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك فان من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم « لا اله الا الله » لأنه لم يتدبرها . اذ أن حقيقة معناها : البراءة من كل معبود والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده والقيام بها على الوجه الذي يحبه ويرضاه . فمن لم يقم بحقها من العبادة ؛ أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاة الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فانه يكون هادماً لها . فلا تنفعه دعواه ولا تغني عنه شيئا ولو كان مجرد قولها كافياً لم يقع من المشركين ما وقع من محاربة الرسول (ص) ومعاداته قال الله تعالى « فاعلم أنه لا اله الا الله — وقال — الا من شهد بالحق وهم يعلمون » فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لا ينفعه التلفظ وكل مَن جعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهو اما جاهل بمعناها أو كاذب في ادعائه الايمان وأولئك هم المغرورون « الأخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »

الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبته ربّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ؛ ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده . فان التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه ، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي . اهـ .

وفي هذا الحديث : كثرة ثواب التوحيد ، وسعة كرم الله وجوده ورحمته والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب . وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين . وهي الفسوق . ويقولون ليس بمؤمن ولا كافر ،ويخلد في النار . والصواب قول أهل السنة : أنه لا يُسلب عنه اسم الايمان ، ولا يُعطاه على الاطلاق ، بل يقال : هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بايمانه ، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة . وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال « لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتُهيَ به إلى سدرة المنتهى ؛ فأُعطيَ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس . وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً : المقحمات» رواه مسلم .

قال ابن كثير في تفسيره : وأخرج الامام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي عن أنس ابن مالك قال « قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (٧٤ : ٥٦ هو أهلُ التقوى وأهل المغفرة) وقال : قال ربكم : أنا أهلٌ أن أُتقى فلا يُجعل معي إله ؛ فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلا أن أغفر له » .

قال المصنف رحمه الله (تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة فانك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله « لا إله الا الله » وتبين لك خطأ المغرورين .

وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل « لا إله الا الله» والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . وفيه إثبات الصفات خلافا للمعطلة . وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله في حديث عتبان « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط) .

السابعة : التنبيه للشرط في حديث عتبان [1]

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه .

العاشرة : النص على أن الأرضين سبع كالسموات .

الحادية ة : أن لهن عُماراً .

الثانية عشرة : إثبات الصفات خلافاً للأشعرية .

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت ان قوله في حديث عتبان « فان الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » انه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان .

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه .

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله .

السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .

السابعة عشرة : معرفة فضل الايمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة : معرفة قوله « على ما كان من العمل » .

التاسعة عشرة : معرفة ان الميزان له كفتان .

العشرون : معرفة ذكر الوجه .

---

(١) هو قوله « يبتغي بها وجه الله » ومن قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل ويخلص عمله لله .

باب

(مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)

قوله (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أي ولا عذاب .

(قلت) تحقيقه تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي [1] .

قال الله تعالى (١٦ : ١٢٠ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً حنيفاً ولم يك من المشركين) وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد .

الأولى : أنه كان أمة ، أي قدوةً وإماماً معلماً للخير . وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الامامة في الدين .

الثانية : قوله « قانتاً » قال شيخ الاسلام : القنوت دوام الطاعة . والمصلي

---

(١) في قرة العيون : وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد في أهل الايمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام (١٢ : ٢٤ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام ، وفي قراءة (المخلصين) بكسرها ، وهم في صدر هذه الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء ؛ وقد قلوا . وهم الأعظمون قدراً عند الله . وقال تعالى عن خليله عليه السلام (٦ : ٧٨ قال يا قوم اني بريء مما تشركون ٧٩ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السموات والأرض أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفا) أي في حال كوني حنيفاً أي مائلا عن الشرك الى التوحيد . ولهذا قال (وما أنا من المشركين) ونظائر هذه الآية في القرآن كثير . كقوله (ومن أحسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا) وقال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في الآية : يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه ، ولهذا قال (وهو محسن) أي في عمله واتباع ما أمر به وترك ما عنه زجر . فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الاخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله كما تقدم في الباب قبل هذا .

وقول الله تعالى (١٦ : ١٢٠ إنّ إبراهيمَ كان أُمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ، وقال (٢٣ : ٥٩ والذين هم بربِّهم لا يُشركون) .

إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت . قال تعالى (٣٩ : ٩ أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه) اهـ ملخصاً .

الثالثة : أنه كان حنيفاً (قلت) قال العلامة ابن القيم « الحنيف » المقبل على الله ، المعرِض عن كل ما سواه . اهـ .

الرابعة : أنه ما كان من المشركين ، أي لصحة إخلاصه وكمال صدقه ، وبُعده عن الشرك[1] .

---

(١) قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – في مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل العلم : إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله (إن ابراهيم كان أمة – الآية) فهذه أربعة أنواع من الثناء ؛ افتتحها بأنه « أمة » وهو القدوة الذي يؤتم به . قال ابن مسعود : « الأمة : المعلم للخير » وهي فعلة – بضم الفاء – من الائتمام كالقدوة ، وهو الذي يقتدى به . والفرق بين « الأمة » و « الامام » من وجهين .

أحدهما : أن الامام كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمي الطريق إماماً . كقوله تعالى (وان كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وانهما لبإمام مبين) أي بطريق واضح لا يخفى على السالك . ولا يسمى الطريق أمة .

الثاني : أي « الأمة » فيه زيادة معنى . وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل ، وهو الذي بقي فيها فرداً وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه ؛ وتفرقها أو عدمها في غيره . ولفظ « الأمة » يشعر بهذا المعنى ، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله . فان الضمة من الواو ، ومخرجها فيضم عند النطق بها . وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة . ومنه الحديث : « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة . ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم ، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد .

الثاني : قوله « قانتا » « قال ابن مسعود : « القانت » : المطيع . والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع الى دوام الطاعة .

الثالث : قوله « حنيفاً » والحنيف : المقبل على الله . ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف ؛ لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله « شاكراً لأنعمه » والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان : الاقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ؛ وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يحب . فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الثلاثة .

والمقصود : أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ؛ فعاد الكمال كله الى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق اليه . اهـ . –

قلت : يوضح هذا قوله تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه) أي على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى (إذ قالوا لقومهم إنّا بُرآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء) وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزرَ (١٩ : ٤٨ و ٤٩ وأعتزلُكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ، عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وَهبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ وكلاً جعلنا نبياً) فهذا هو تحقيق التوحيد . وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالُهم ؛ والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية : (إن ابراهيم كان أمـة) لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين (قانتاً لله) لا للملوك ولا للتجـار

= وقال في قرة العيون : قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله ابراهيم امام الحنفاء : بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية . و« الأمة » هو الامام الذي يقتدى به . و « القانت » هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك الى التوحيد ، ولهذا قال (ولم يك من المشركين) وقال مجاهد : كان ابراهيم أمه أي مؤمناً وحده ، والناس كلهم اذ ذاك كفار .

قلت : وكلا القولين حق . فقد كان الخليل عليه السلام كذلك . وقول مجاهد – والله أعلم – لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام ، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين ؛ كما قال تعالى (١٩ : ٤١ واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا ٤٢ اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) الآيات (٤٣ – ٥٠) وقوله (٣٧ : ٨٣ وان من شيعته لابراهيم ٨٤ اذ جاء ربه بقلب سليم – الآيات ٨٥ – ١١٣) فهذا والله أعلم كان في ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ولم يكن اذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره . وبذلك جاء الحديث .

وقوله (ولم يك من المشركين) فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر مـا كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه في ذات الله . وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه . كما قال تعالى (٢ : ١٣١ اذ قال له ربه : أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين) وأنت تجد أكثر من يقول « لا إله الا الله » ويدعي الاسلام يفعل الشرك بالله في عبادته . بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم ؛ ويحبهم ويواليهم ، ويخافهم ويرجوهم ، وينكر على من دعا الى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة ، ويعادي من عمل به وأحبه وانكر الشرك وأبغضه ، وبعضهم لا يعد التوحيد علماً ولا يلتفت اليه لجهله به وعدم محبته فالله المستعان

المشركين (حنيفا) لا يميل يميناً ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين (ولم يك من المشركين) خلافاً لمن كثّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين اهـ

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن ابراهيم كان أمة) على الاسلام ولم يك في زمانه أحد على الاسلام غيره

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير .

قال (وقوله تعالى ٢٣ : ٥٧ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ٥٨ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ٥٩ والذين هم بربهم لا يشركون) [١] .

وصف المؤمنين السابقين الى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها : أنهم بربهم لا يشركون . ولما كان المرء قد يعرض له ما يقدح في إسلامه : من شرك جليّ أو خفي ، نفى ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذي حسُنت بهم أعمالهم وكملت ونفعتهم .

قلت : قوله « حسنت وكملت » هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ؛ وأما الشرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت لكان أقوم .

قال ابن كثير : (والذين هم بربهم لا يشركون) أي لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له [٢] .

---

(١) في قرة العيون قال العماد ابن كثير ؛ أي مع احسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله وخائفون وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصري « المؤمن من جمع احسانا وشفقا ، والمنافق من جمع اساءة وأمنا » (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم (٦٦ : ١٢ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) أي أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله ان كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه ، وان كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه ، وان كان خبراً فهو حق .

(٢) في قرة العيون فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبته وقبوله والدعوة اليه ، كما قال تعالى (قل اني أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه أدعو واليه مآب) وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق

عن حُصَين بن عبد الرحمن قال « كنتُ عند سَعيد بن جُبير فقال : أيُّكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحةَ ؟ فقلتُ : أنا ، ثم قلت : أمَا إني لم أكن

قال المصنف : (عن حُصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سَعيد بن جُبير ، فقال « أيُّكم رأى الكوكب الذي انْقضَّ البارحة ؟ فقلت : أنا . ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لُدِغتُ . قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيتُ . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشّعبي قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بُريدة بن الحُصَيْب أنه قال « لا رُقْية إلا من عينٍ أو حُمَة » قال قد أحسن من انتهى ان ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عُرِضَت عليّ الأمم ، فرأيت النبيّ ومعه الرّهْطُ ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . إذ رُفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه . فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نَهضَ فدخل منزله ؛ فخاض الناسُ في أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ؛ وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ؛ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه ؛ فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوون ولا يَتطيّرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكّاشة بن محصَن فقال : يا رسول الله ، ادْعُ الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ؛ ثم قام رجل آخر فقال : ادْعُ الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عُكّاشة ») .

هكذا أورده المصنف غير مَعزُوّ ، وقد رواه البخاري مختصراً ومطولا . ومسلم ، واللفظ له ، والترمذي والنسائي .

قوله (عن حصين بن عبد الرحمن) هو السلمي [1] ، أبو الهذيل الكوفي . ثقة ، مات سنة ست وثلاثين ومائة ، وله ثلاث وتسعون سنة .

وسعيد بن جبير : هو الامام الفقيه من جلّة أصحاب ابن عباس ، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة . وهو كوفي مولىً لبني أسَد ، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين .

---

(١) في قرة العيون الحارثي ، من تابعي التابعين . عن الشعبي .

في صلاة ، ولكني لُدِغْتُ ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت ، قال : فما حملك على ذلك . قلت : حديث حدثناه الشعبي . قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بُرَيْدَةَ بنُ الحُصَيب أنه قال « لا رُقْيَةَ إلا مِن عَين

قوله (انقض) هو بالقاف والضاد المعجمة أي سقط . « والبارحة » هي أقرب ليلة مضت . قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال : رأيت الليلة . وبعد الزوال : رأيت البارحة ، وكذا قال غيره ، وهي مشتقة من برح إذا زال .

قوله (أما إني لم أكن في صلاة) قال في مغني اللبيب « أما » بالفتح والتخفيف على وجهين : أحدهما أن تكون حرف استفتاح بمنزلة « ألا » فاذا وقعت « أنّ » بعدها كسرت . الثاني أن تكون بمعنى حقاً ، أو أحق . وقال آخرون : هي كلمتان الهمزة للاستفهام و « ما » اسم بمعنى شيء ، أي أذلك الشيء حق ، فالمعنى أحق هذا ؟ وهو الصواب . و « ما » نصب على الظرفية ، وهذه تفتح « انّ » بعدها . انتهى .

والأنسب هنا هو الوجه الأول ، والقائل هو حصين ، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلي . فنفى عن نفسه إيهام العبادة . وهذا يدل على فضل السلف وحرصهم على الاخلاص وبعدهم عن الرياء والتزين بما ليس فيهم .

قوله (ولكني لدغت) بضم أوله وكسر ثانيه . قال أهل اللغة : يقال لدغته العقرب وذوات السموم ، إذا أصابته بسمها ، وذلك بأن تأبره بشوكتها .

قوله (قلت ارتقيت) لفظ مسلم « استرقيت » أي طلبت من يرقيني .

قوله (فما حملك على ذلك) فيه طلب الحجة على صحة المذهب .

قوله (حديث حدثناه الشعبي) اسمه : عامر بن شراحيل الهمداني ولد في خلافة عمر . وهو من ثقات التابعين وفقهائهم [1] مات سنة ثلاث ومائة

قوله (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة بن الحصيب

---

(1) روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم ، وعن أبي هريرة وعائشة وجماعة وابن عباس وخلق . قال الشعبي : ما كتبت سوداء في بيضاء ، يعني أنه كان متثبتاً بالحفظ .

أو حُمَة » . قال: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس

بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين — ابن الحارث الأسلمي ، صحابي شهير . مات سنة ثلاث وستين . قاله ابن سعد .

قوله (لا رقية إلا من عين أو حمة) وقد رواه أحمد وابن ماجة عنه مرفوعاً . ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعا قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات .

والعين هي إصابة العائن غيره بعينه . والحمة — بضم المهملة وتخفيف الميم— سم العقرب وشبهها . قال الخطابي : ومعنى الحديث : لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة . وقد رقى النبي ﷺ ورُقِي .

قوله (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أي من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل ، أو لا يعمل بما يعلم فانه مسيء آثم . وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم [1] .

قوله (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبي ﷺ . دعا له فقال « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل [2] » فكان كذلك . مات بالطائف سنة ثمان وستين .

قال المصنف رحمه الله (وفيه عمق علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن كذا وكذا . فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني) .

قوله (عُرضت عليّ الأمم) وفي الترمذي والنسائي من رواية عبثر بن القاسم عن حصين بن عبد الرحمن « أن ذلك كان ليلة الاسراء » قال الحافظ : فان كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الاسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً (قلت) وفي هذا نظر [3] .

---

(١) في قرة العيون : فيه حسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتديا أم لا ؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله ، ولهذا ذكر ابن عبد البر الاجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم . فتفطن لهذا .

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه .

(٣) في قرة العيون : فالله أعلم متى عرضت ، وعرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها اذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم . فمن نجا بالايمان بالله وما بعث به انبياءه ورسله من دينه الذي شرعه

عن النبي ﷺ أنه قال «عُرضت عليّ الأمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد .
إذ رفع لي سوادٌ عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ،

قوله (فرأيت النبي ومعه الرهط) والذي في صحيح مسلم « الرهيط » بالتصغير لا غير ؛ وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووي .

قوله (والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد) فيه الرد على من احتج بالكثرة [1] .

قوله (إذ رفع لي سواد عظيم) المراد هنا الشخص الذي يُرى من بعيد .

قوله (فظننت أنهم أمتي) لأن الأشخاص التي ترى في الأفق لا يدرك منها إلا الصورة وفي صحيح مسلم « ولكن انظر إلى الأفق » ولم يذكره المصنف؛ فلعله سقط في الأصل الذي نقل الحديث منه . والله أعلم .

قوله (فقيل له : هذا موسى وقومه) أي موسى بن عمران كليم الرحمن، وقومه : اتباعه على دينه من بني اسرائيل [2] .

=لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه كما قال تعالى عن قوم نوح (٧١ : ٢ قال يا قوم اني لكم نذير مبين ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، وطاعة رسوله . هذا هو الدين ، أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد الله الا بما شرع ؛ فعلا وتركاً ، وأن يقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه .

(١) في قرة العيون : أي يبعث في قومه فلا يتبعه منهم أحد كما قال تعالى (١٥ : ١٠ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ١١ وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون) وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل والأكثرون غلبت عليهم الطبائع البشرية فعصوا الرسل فهلكوا؛ كما قال تعالى (٦ : ١١٦ وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال (٧ : ١٠١ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) وقال (٣٠ : ٤٢ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير ، والناجون – وان كانوا أقل القليل – فهم السواد الأعظم ، فانهم الاعظمون قدراً عند الله . وان قلوا . فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة وقد اغتر بهم كثيرون حتى بعض من يدعي العلم . اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهال الضلال ولم يلتفتوا الى ما قاله الله ورسوله .

(٢) في قرة العيون : فيه فضيلة اتباع موسى من بني اسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التي أنزلها الله : التوراة ، والانجيل والزبور والفرقان وغيرها . وكانت بنو اسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء ، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود ، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جداً ، وقد قال تعالى (٤٥ : ١٦ وفضلناهم على العالمين) أي في زمانهم . وذلك أن في زمانهم وقبله من كفر بالله خلق لا يحصون ، كحزب جالوت وبختنصر وأمثالهم . ففضل الله بني اسرائيل بالايمان فصاروا أفضل أهل زمانهم . وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم ، وقد ذكره الله تعالى محتجاً به على اليهود الذين كفروا بمحمد (ص) . فتدبر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف .

فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب .

ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا في الاسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه ، فقال هم الذين لا يَسْتَرْقُون :

قوله (فنظرت فاذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) أي لتحقيقهم التوحيد، وفي رواية ابن فضيل «ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً» وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين «أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر» وروى الامام أحمد والبيهقي في حديث أبي هريرة «فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً» قال الحافظ : وسنده جيد[1] .

قوله (ثم نهض) أي قام . قوله (فخاض الناس في أولئك) خاض بالخاء والضاد المعجمتين . وفي هذا إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق ، وفيه عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . وفيه حرصهم على الخير . ذكره المصنف[2] .

قوله (فقال هم الذين لا يسترْقون) هكذا ثبت في الصحيحين وهو كذلك في حديث ابن مسعود في مسند أحمد . وفي رواية لمسلم «ولا

---

(١) في قرة العيون : فيه فضيلة هذه الأمة وانهم أكثر الأمم تابعاً لنبيهم (ص) وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، فملأوا القرى والأمصار والقفار ، وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة ، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة ؛ وقد قلوا في آخر الزمان .

قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله : وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، فالكمية الكثرة والعدد ، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم .

(٢) في قرة العيون : وفيه ايضاً فضل الصحابة رضي الله عنهم في مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم (ص) حرصاً على العمل به ، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل ، لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ، ولم ينكر (ص) ذلك عليهم ، لكن المجتهد اذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقول لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث

يرقون » قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هذه الزياده وهم من الراوي ، لم يقل النبي ﷺ « ولا يرقون » وقد قال النبي ﷺ وقد سئل عن الرُّقى « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » [١] : وقال « لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركاً » [٢] قال : وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ ورقى النبي ﷺ أصحابه [٣] قال والفرق بين الراقي والمسترقي : أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن . قال : وانما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم . وكذا قال ابن القيم [٤] .

قوله (ولا يكتوون) أي لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم ، استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء .

قلت : والظاهر أن قوله « لا يكتوون » أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم . أما الكي في نفسه فجائز ، كما في الصحيح عن جابر بن عبدالله « أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه » .

وفي صحيح البخاري عن أنس « أنه كوى من ذات الجنب [٥] والنبي ﷺ حي » وروى الترمذي وغيره عن أنس « أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة » [٦] .

---

(١) رواه مسلم والامام احمد وابن ماجة عن جابر رضي الله عنه

(٢) رواه مسلم وأبو داودعن عوف بن مالك .

(٣) رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من السحر ، كما في البخاري من حديث عائشة وقد ثبت في البخاري وغيره رقى كثيرة من قول النبي صلى الله عليه وسلم عن عائشة وأنس و بن مسعود وغيرهم

(٤) في قرة العيون فتركوا الشرك رأساً ، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها ، وتركوا الكي وان كان يراد للشفاء ، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله ، وتفويضهم أمورهم اليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه. فلا يرغبون إلا الى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا اليه وحده في كشف ضرهم قال تعالى عن يعقوب عليه السلام (١٢ ٨٦ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)

(٥) قال في النهاية ذات الجنب الدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وينفجر الى داخل ، وقلما يسلم صاحبها اه ولعلها السل والله أعلم

(٦) قال في النهايه ، الشوكة حمرة تعلو الوجه والجسد

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعا «الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم وكية نار ، وأنا أنهى أمتي عن الكي» وفي لفظ «وما أحب أن أكتوي» .

قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع (أحدها) فعله (والثاني) عدم محبته (والثالث) الثناء على من تركه (والرابع) النهي عنه . ولا تعارض بينها بحمد الله ، فان فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة .

قوله (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها .

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء اليه ، والاعتماد بالقلب عليه ؛ الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا ؛ فان مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري ، لا انفكاك لأحد عنه ؛ بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه . وانما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم اليها ؛ توكلا على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء ، فتركهم له لكونه سبباً مكروهاً ، لا سيما والمريض يتشبث — فيما يظنه سبباً لشفائه — بخيط العنكبوت .

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه ؛ فغير قادح في التوكل ؛ فلا يكون تركه مشروعا ، لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعا «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله» وعن أسامة بن شريك قال «كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ؛ فقالوا يا رسول الله أنتداوى ؟ قال : نعم . يا عباد الله تداووا ؛ فان الله عز وجل لم

يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد. قالوا . وما هو ؟ قال : الهرم » رواه أحمد .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد : بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة . ويضعفه من حيث يظن معطلها ان تركها أقوى في التوكل ، فان تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الإعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا .

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟

فالمشهور عن أحمد : الأول لهذا الحديث وما في معناه ، والمشهور عند الشافعية الثاني ، حتى ذكر النووي في شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر قال : ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب . قال : ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه فانه قال : لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه .

وقال شيخ الاسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد .

فقوله (فقام عكاشة بن محصن) هو بضم العين وتشديد الكاف . ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ، ابن حُرثان — بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة — الأسدي : من بني أسد بن خزيمة . كان من السابقين إلى الاسلام ومن أجمل الرجال . هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها . واستشهد في قتال الردّة مع خالد بن الوليد بيد طُليحة الأسدي سنة اثنتي

ثم قام رجل آخر فقال . أدعُ الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عُكَّاشة

فيه مسائل :

الأولى : معرفة مراتب الناس في التوحيد

الثانية : ما معنى تحقيقه

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك

الخامسة : كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

السابعة : عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل

عشيرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة .

قوله (فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ؟ فقال أنت منهم) وللبخاري في رواية : « فقال اللهم اجعله منهم » وفيه : طلب الدعاء من الفاضل[1] .

قوله (ثم قام رجل آخر) ذكره مبهماً ولا حاجة بنا الى البحث عن اسمه[2]

قوله (فقال سبقك بها عكاشة) قال القرطبي : لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر ، فسد الباب بقوله ذلك . اهـ

---

(١) في قرة العيون : فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه ، وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة ، فمن سأل ميتاً أو غائباً فقد سأله مالا يقدر عليه إلا الله ، وكل من سأل أحداً مالا يقدر عليه إلا الله فقد جعله نداً لله كما كان المشركون كذلك وقال تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله انداداً وأنتم تعلمون) انه ربكم وخالقكم ومن قبلكم ، وأسبغ عليكم نعمه الظاهرة والباطنة فلا ترغبوا عنه إلى غيره ، بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير

وقوله : أنت منهم » لما كان يعلمه (ص) من إيمانه وفضله وجهاده كما في الحديث « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

(٢) في قرة العيون : والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سد الذريعة لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلاً له . وذلك منه (ص) تعريض كما لا يخفى

الثامنة : حرصهم على الخير
التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمّية والكيفية
العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .
الحادية عشرة : عرضُ الأمم عليه السلام .
الثانية عشرة : أن كل أمة تُحشر وحدها مع نبيها
الثالثة عشرة : قلّة من استجابَ للانبياء .
الرابعة عشرة : أنّ من لم يجبْه أحدٌ يأتي وحده
الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدمُ الاغترار بالكثرة ، وعدم الزُّهد في القلّة .
السادسة عشرة : الرخصة في الرُّقْيةِ من العين والحُمَة
السابعة عشرة : عمقُ علم السلف لقوله « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن كذا وكذا » . فعلم أن الحديث الأول لا يخالفُ الثاني .
الثامنة عشرة : بُعد السلفِ عن مَدْح الانسان بما ليس فيه .
التاسعة عشرة : « قوله أنتَ منهم » علَمٌ من أعلام النبوة .
العشرون : فضيلة عكاشة .
الحادية والعشرون : استعمال المعاريض .
الثانية والعشرون : حسن خلُقه ﷺ .

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل (٤ : ٤٨ و ١١٦ إنّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ بـه ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء) .

قال المصنف رحمة الله تعالى . وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ .

قوله : باب [الخوف من الشرك]

وقول الله تعالى (٤ : ٤٨ و ١١٦ إنّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ بـه ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء)

قال ابن كثير : اخبر تعالى أنه (لا يغفر أن يشرك به) أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أي من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب . لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه ، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله ، لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقّص لرب العالمين ؛ وصرف خالص حقه لغيره ؛ وعدلْ غيره به ، كما قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر منافٍ له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ؛ والذل له ،والانقياد لأوامره الذي لاصلاح للعالم إلا بذلك ،فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال ﷺ « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى ومشاركة في خصائص الالهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده ، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبّهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، شبيهاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ؛ واليه يرجع الأمر كله ، وبيده الخير كله ؛ فأزمّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها اليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ،الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ،وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات : بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإنابة ؛ والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلا وشرعاً وفطرةً أن يكون لله وحده ؛ ويمتنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله .

وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب . وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ؛ وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى (٣٩ ٥٣ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فهنا عمم وأطلق ، لأن المراد به التائب ، وهناك خص وعلّق . لأن المراد به من لم يتب . هذا ملخص قول شيخ الاسلام [1]

قوله (وقال الخليل عليه السلام) ١٤ . ٣٥ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام) الصنم ما كان منحوتاً على صورة . والوثن ما كان موضوعاً على غير ذلك ذكره الطبري عن مجاهد

قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل [2] عليه السلام (٢٩ ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا — الآية) ويقال . إن الوثن أعم . وهو قوي ، فالأصنام أوثان ، كما أن القبور أوثان .

قوله (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) أي اجعلني وبنيّ في جانب عن عبادة الأصنام ، وباعد بيننا وبينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء ، وجنّبهم عبادة الأصنام . وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) فانه هو الواقع في كل زمان . فإذا عرف الانسان أن كثيرا وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام :

---

(١) في قرة العيون قال النووي رحمه الله تعالى أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصراً عليها ومات على ذلك ، فهو تحت المشيئة فان عفي عنه دخل الجنة أولا والا عذب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة اه

قلت : هذا قول أهل السنة والجماعة ؛ لا اختلاف بينهم في ذلك وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك ، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيده ، ثم قال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فخصص وقيده فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمل أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة ، إن لم يتب منه قبل الوفاة

(٢) الخلة أخص من المحبة . ولذلك اختص الله بها الخليلين إبراهيم ومحمداً عليهما من الله أفضل الصلاة والسلام ويقول النبي (ص) «لو كنت متخذاً أحداً خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن الله اتخذني خليلا» رواه البخاري

وفي الحديث «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ ، فسُئل عنه فقال : الرياء» .

أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله

قال ابراهيم التيمي : من يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه : من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده ، والنهي عن الشرك به[1] .

قال المصنف (وفي الحديث «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ،

---

(١) في قرة العيون : فاذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة واحدة ، وابتلاه بكلمات فأتمهن ، وقال (وإبراهيم الذي وفى) وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه ، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك ، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام ، لعلمه أنه لا يصرفه عنه الله إلا بهدايته وتوفيقه ، لا بحوله هو وقوته .

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه ؛ وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت ، فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة ، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور ؛ وصرفت لها العبادات بأنواعها ، واتخذ ذلك ديناً ، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم.

فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم ، بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عده ح فذكر عليه السلام السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده . فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه والوعيد على فعله ، والثواب على تركه . وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن ، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه . نسأل الله الثبات على الاسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد انه ولي ذلك والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ؛ وقال تعالى من عيسى (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) رد أمرهم الى الله كما رده محمد عليه السلام ، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد (ص) حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة ؛ وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز الذي (٤١ : ٤٢ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

ح فان أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون في الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع : وان مجلس أوليائهم تعرض عليه شئون العالم . اقرأ كتاب الشعراني ، و «الابريز» لدباغ ، وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين ؛ تجد الشرك الذي ما كان يخطر على بال أبي جهل واخوانه ، لانهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم .

فسئل عنه فقال : الرياء ») أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزو . وقد رواه الامام أحمد والطبراني والبيهقي . وهذا لفظ أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد – يعني ابن الهاد – عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة ، إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءوا في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ »

قال المنذري : ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال : له صحبة ؛ ورجحه ابن عبد عبد البر والحافظ . وقد رواه الطبراني بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين . وقيل سنة سبع وتسعين وله تسع وتسعون سنة .

قوله (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به ؛ ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه ؛ كما قال ﷺ فيما صح عنه « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم – الحديث » فاذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم ، فكيف لايخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والايمان بمراتب؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون ، وما عرفوا معنى الالهية التي نفتها كلمة الاخلاص عن كل ما سوى الله [1] .

---

(١) في قرة العيون : فاذا كان يخافه « ص » على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورغبوا اليه والى ما امرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به ؛ وعرفوا ما دعاهم اليه نبيهم ، وما أنزله الله في كتابه من الاخلاص والبراءة من الشرك ؛ فكيف لا يخاف من لا نسبة له اليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك ؟ وقد أخبر « ص » عن أمته بوقوع الشرك الاكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان » وقد جرى ما أخبر به « ص » وعمت به البلوى في أكثر الاقطار حتى اتخذوه ديناً مع ظهور الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه كما قال تعالى (٥ : ٧٢ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)وقال(٢٢ : ٣٠ فاجتنبوا

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « مَن مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار » رواه البخاري .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال « الشرك أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دعي مع الله ؟ قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » الحديث . وفيه « أن تقول أعطاني الله وفلان ، والند أن يقول الانسان : لولا فلان قتلني فلان » اه من الدر .

قال المصنف (وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « من مات وهو يدعوا لله نداً دخل النار » رواه البخاري) [1] .

قال ابن القيم رحمه الله : الند الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، ونديده ، أي مثله وشبيهه اه قال تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

قوله (من مات وهو يدعو لله نداً) أي يجعل لله نداً في العبادة ، يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره ، فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً كان ، من حجر ومن إنسان
يدعوه ، أو يرجوه، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر .

= الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ٣١ حنفاء لله غير مشركين به) وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم في الباب قبله . ثم قال تعالى محذراً عباده من الشرك (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة اذا تدبرها فلا حيلة فيه .

(١) في قرة العيون : وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً والتخويف منه — والند :— المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة اليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الانكار لكونه ينافي الاخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه للشفيع في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به . ومن المعلوم أنه اذا التفت الشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى وذلك ينافي الاخلاص . ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة ان شاء الله تعالى .

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « من لقيَ الله لا يشركُ به شيئاً دخل الجنة ، ومَنْ لقيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار » .

والثاني : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت . وكيسير الرياء ، فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل «ما شاء الله وشئت » قال : أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجه . وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد .

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي . كطلب الشفاعة من الأموات ، فانها ملك لله تعالى وبيده ، ليس بيد غيره منها شيء ، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالاخلاص والتوحيد من أهل الكبائر ، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

قال المصنف رحمه الله تعالى (ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ») .

جابر : هو ابن عبدالله بن عمرو بن حَرام – بمهملتين – الأنصاري ثم السلمي – بفتحتين – صحابي جليل هو وأبوه ، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما [1] مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره ، وله أربع وتسعون سنة .

قوله (من لقي الله لا يشرك به شيئاً) قال القرطبي : أي لم يتخذ معه شريكا في الإلهية ، ولا في الخلق ، ولا في العبادة ، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة . وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة . وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد في النار أبد الآباد ؛ من غير انقطاع عذاب ولا تصرُّم آماد .

---

(١) كان عبدالله ولد جابر من الذين بايعوا رسول الله « ص » بيعة العقبة وجعله النبي « ص » نقيب بني سلمة . ثم حضر بدرا ، وقتل يوم أحد ، فأخذ يبكي عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبكيه أو لا تبكيه ، لا زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه »

فيه مسائل :

الأولى : الخوفُ من الشرك .

الثانية : أن الرياء من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوفُ ما يُخاف منه على الصالحين .

الخامسة : قُرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد .

السابعة : أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لَقِيَه يُشرِك به شيئاً دخل النار ، ولو كان من أعبدِ الناسِ .

الثامنة : المسألة العظيمة سؤالُ الخليل له ولبنيه وقايةَ عبادةِ الأصنام .

وقال النووي : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره . ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك [1] . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن لئن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولا . وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة . فان عفا الله عنه دخل الجنة أولا ، وإلا عُذّب في النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء ؛ واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم . إذ من كذّب رسل الله فقد كذّب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، وهو كقولك : من توضأ صحت صلاته . أي مع سائر الشروط ؛ فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الايمان به إجمالا في الاجمالي وتفصيلا في التفصيلي [2] . انتهى .

---

(١) يعني أنهم مستوون في الخلود في النار ، ولكنهم متفاوتون في دركاتها . ولا يظلم ربك أحداً مثقال ذرة .

(٢) يعني خالطت حلاوة هذا الايمان بشاشة قلبه فأثمرت الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة . وإلا فكم من مدع لهذا الايمان الاجمالي والتفصيلي وهو عري عنه إجمالا وتفصيلا .

التاسعة اعتباره بحال الأكثر لقوله (رَبِّ إنهن أضْلَلْنَ كثيراً من الناس)

العاشرة فيه تفسير «لا إله إلا الله» . كما ذكره البخاري .

الحادية عشرة . فضيلة من سلم من الشرك .

باب

« الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله »

قوله : (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله ؛ وما يوجب الخوف من ضده . نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة . كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى (٤١ : ٣٣ ومَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) فقال « هذا حبيب الله ، هذا وليّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض الى الله ، أجاب الله في دعوته . ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته : إنني من المسلمين . هذا خليفة الله[1] » .

قال رحمه الله (وقوله ١٢ : ١٠٨ هل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

قال أبو جعفر ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد (هذه) الدعوة التي أدعو اليها ؛ والطريقة التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله . وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان . والانتهاء الى طاعته

---

(١) ذكره العماد ابن كثير في تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري رحمه الله . ويعني الحسن بذلك : أن الصدق في حب الله وعبادته وطاعته يستلزم ولا بد الدعوة الى ذلك والجهاد فيه . لأن من أحب كل ما أحبه الله وكل من أحب الله وكره كل ما كره ومن كره . وأحب أن يكون الناس كلهم معه في حب الله .

وقول الله تعالى (١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله . وما أنا من المشركين) .

وترك معصيته (سبيلي) طريقتي ، ودعوتي (أدعو إلى الله) تعالى وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ويقين علم مني به (أنا) ويدعو اليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وآمن بي (وسبحان الله) يقول له تعالى ذكره : وقل . تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول : وأنا بريء من أهل الشرك به . لست منهم ولا هم مني . انتهى .

قال في شرح المنازل : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر ، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ؛ وهي أعلى درجات العلماء . قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أي أنا وأتباعي على بصيرة . وقيل (من اتبعني) عطف على المرفوع في (أدعو) أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة ؛ ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى .

قال المصنف رحمه الله (فيه مسائل : منها التنبيه على الاخلاص . لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه . ومنها : أن البصيرة من الفرائض . ومنها : أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة . ومنها : أن من قبح الشرك كونه مسبة لله تعالى . ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك) اه .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى (١٦ : ١٢٥ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة — الآية) ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو ، فانه إما أن يكون طالباً للحق محباً له . مؤثراً له على غيره إذا عرفه. فهذا يُدعى بالحكمة. ولا يحتاج إلى موعظة و جدال . وإما أن يكون مشتغلا بضد الحق . لكن لو عرفه آثره واتبعه . فهذ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله.

يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب وإما أن يكون معانداً معارضاً ، فهذا يُجادَل بالتي هي أحسن فان رجع وإلا انتُقل معه الى الجلاد إن أمكن انتهى .

قال (وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ لما بعثَ معاذاً الى اليمن قال : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله — وفي رواية : إلى أن يوحِّدوا الله — فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة . فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم وتُرد على فقرائهم . فان هم أطاعوك لذلك فايّاك وكرائم أموالهم . واتّق دعوة المظلوم . فانه ليس بينها وبين الله حجاب » أخرجاه) .

قال الحافظ : كان بعثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر . قبل حج النبي ﷺ كما ذكره المصنف — يعني البخاريّ في أواخر المغازي — وقيل : كان ذلك في آخر سنة تسع عند منصرَفه ﷺ من تَبوك . رواه الواقدي باسناده الى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن الى أن قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثم توجه الى الشام فمات بها .

قال شيخ الاسلام : ومن فضائل معاذ رضي الله عنه أنه ﷺ بعثه الى اليمن مُبلِّغاً عنه . ومُفقِّهاً ومعلماً وحاكماً .

قوله (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب) قال القرطبي . يعني به اليهودَ والنصارى ، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب . وانما نبهه على ذلك ليتهيأ لمناظرتهم .

وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية لجمع همته عليها .

قوله (فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله) [1] « شهادة »

---

(١) في قرة العيون : وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من اخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه ، فكان قولهم « لا اله الا الله » لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة ، فانهم كانوا يقولونها مع ماكانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد ، فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم ، وينفون ما أثبتته من الاخلاص كذلك . وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به —

فع على أنه اسم « يكن » مؤخر . و « أول » خبرها مقدم . ويجوز العكس .

قوله (وفي رواية إلى أن يوحدوا الله) هذه الرواية ثابتة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » فان معناها توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه. وفي رواية « فليكن أول ما تدعوهم اليه عبادة الله » وذلك هو الكفر بالطاغوت والايمان بالله ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعُروة الوثقى لا انفصام لها) والعروة الوثقى هي (لا إله إلا الله) وفي رواية للبخاري فقال « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » .

قلت : لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ؛ أحدها : العلم المنافي للجهل . الثاني : اليقين المنافي للشك . الثالث : القبول المنافي للرد . الرابع : الانقياد المنافي للترك . الخامس: الاخلاص المنافي للشرك . السادس : الصدق المنافي للكذب . السابع : المحبة المنافية لضدها .

ـالمشركون ؛ فلم يدخلهم في الاسلام كما قال تعالى (٢٣ : ٨٤ – ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ – الى قوله – فأنى تسحرون) وقوله (١٠ : ٣١ قل من يرزقكم من السماء والارض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟ ومن يدبر الأمر ؟ فيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم ؛ وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد (ص) فلم يدخلهم في الاسلام ، لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الالهية ، وهو اخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه ، كما قال تعالى (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فهذا التوحيد هو أصل الاسلام . وقال تعالى (١٢ : ٤٠ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال (٣٠ : ٤٣ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) وقال تعالى (٤٠ : ١٢ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) وقال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين ٣ ألا لله الدين الخالص) وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت اليه الرسل ونزلت به الكتب في القرآن كثير وسنذكر بعض ذلك ان شاء الله في هذا التعليق

وفيه دليل على أن التوحيد - الذي هو اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب . ولهذا كان أول ما دعت اليه الرسل عليهم السلام (أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وقال نوح (أن لا تعبدوا إلا الله) وفيه معنى (لا اله الا الله) مطابقة [1] .

قال شيخ الاسلام : وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الاسلام وأول ما يؤمر به الخلق : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله : معصوم الدم والمال . ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الايمان وان قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الاسلام دون باطن الايمان . قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء اه .

---

(١) في قرة العيون : وأما قول المتكلمين ومن تبعهم : إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده ، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم الى توحيد العبادة (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أي لا تعبدوا الا الله . قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلكم من رسول الا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (١٤ : ١٠ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض ؟) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : هذا يحتمل شيئين « أحدهما »أفي وجوده شك؟فان الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به ، فان الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة .

« والمعنى الثاني » أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة الا هو وحده لا شريك له . فان غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تقربهم من الله زلفى اه .

قلت وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول .

روى أبو جعفر ابن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا ايمانهم . وعن عكرمة أيضاً تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون الله فذلك ايمانهم وهم يعبدون غيره .

وتقدم أن « لا اله الا الله » قد قيدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال . منها : العلم واليقين والاخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد ، والكفر بما يعبد من دون الله . فاذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ، وان لم تجتمع هذه لم تنفعه ؛ والناس متفاوتون في العلم بها والعمل ، فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى .

فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلِمْهم أن الله افترض عليهم خمس صَلَواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ ، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صَدَقةً تُؤْخذُ منَ أغنيائهم فتردُ على فقرائهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى (وفيه أن الانسان قد يكون عالماً [1] وهو لا يعرف معنى « لا اله الا الله » أو يعرفه ولا يعمل به) .

قلت : فما أكثر هؤلاء ــ لا كثّرهم الله تعالى .

قوله (فان هم أطاعوك لذلك) أي شهدوا وانقادوا لذلك (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات) فيه : أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين. قال النووي ما معناه : انه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون الا بعد الاسلام . ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ؛ ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة . والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه . وهذا قول الأكثرين . اه .

قوله (فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) [2] .

فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء ، وانما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية .

---

(١) يعني عالماً بعلوم الدنيا ، أو عالماً حافظاً لعلوم الدين ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته لأنه تعلمها للدنيا وليقال عالم . فهو محترف العلم ؛ وقد يكون بارعاً حاذقاً في هذه الحرفة ولكنه لا ينتفع في نفسه بعلمه ، لأن علمه في ناحية وعقيدته ودينه مع تقليد العوام والجمهور في ناحية أخرى وهذا حال أكثر العلماء الرسميين اليوم أصلحهم الله .

(٢) في قرة العيون : فيه أن الزكاة لا تنفع الا من وحد الله وصلى الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها . والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى ؛ ويدل على هذه الجملة قوله تعالى (٩٨ : ٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الاركان لقوة الداعي الى ذلك ، لأن ذلك يقتضي الاتيان بها لزوماً . قال تعالى (٩ : ٥ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال أنس في الآية « توبتهم : خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وايتاء الزكاة » وعن ابن مسعود مرفوعاً « أمرت باقام الصلاة وايتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له » .

فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائمَ أموالهم ، واتّقِ دعوةَ المظلوم . فإنه ليس بينَها وبين اللهِ حِجاب » أخرجاه

وفيه : أن الامام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع عن أدائها اليه اخذت منه قهراً .

وفي الحديث دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد ، كما هو مذهب مالك وأحمد .

وفيه : أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا إلى كافر غير المؤلف ، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون ، كما هو قول الجمهور ، لعموم الحديث .

قلت : والفقير إذا أفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس ، كنظائره . كما قرره شيخ الاسلام .

قوله (واياك وكرائم أموالهم) بنصب « كرائم » على التحذير ، وجمع كريمة . قال صاحب المطالع : هي الجامعة للكمال الممكن في حقها : من غزارة لبن ، وجمال صورة ، وكثرة لحم وصوف . ذكره النووي (قلت) وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً .

وفيه : أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال . بل يخرج الوسط ، فان طابت نفسه بالكريمة جاز [1]

قوله (واتق دعوة المظلوم) [2] أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ، وهذان الأمران يقيان من رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى .

وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم .

قوله (فانه) أي الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن ، أي فانها لا تحجب عن الله فيقبلها .

---

(١) في قرة العيون : تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة ، وهو أخذها من أوساط المال ، لأن ذلك سبب لاخراجها بطيب نفس ونية صحيحة.وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه . وهذا أصل ينبغي التفطن له .

(٢) في قرة العيون : يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه ؛ ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها .

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه ؛ فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ؛ ولا يحابي بترك شيء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين ، والله أعلم

وفي الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به وبعث الامام العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته ويأمرهم بتقوى الله تعالى ؛ ويعلمهم ، وينهاهم عن الظلم ويعرفهم سوء عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج . قاله المصنف .

قلت : ويبدأ بالأهم فالأهم .

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء .

قال شيخ الاسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواة اختصر الحديث وليس كذلك . فان هذا طعن في الرواة . لأن ذلك إنما يقع في الحديث الواحد، مثل حديث وفد عبد القيس[1] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيها كذلك ، ولكن عن هذا جوابان

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة . فانه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج ، كعامة الأحاديث ، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثاني : أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه . فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها : كالصلاة والزكاة . ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم . فإما أن يكون قبل فرض الحج ، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه ، وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما ،

---

(١) روى البخاري ومسلم عن ابن عباس « أن عبد القيس وفدوا على النبي (ص) فقال من القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . قال : مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى . فقالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ؛ وإنا لا نصل اليك الا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة . فقال : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع آمركم بالايمان بالله وحده . أتدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم — الحديث » وكان وفد عبد القيس في سنة تسع .(٠) .

---

(٠) (وكان وفد عبد القيس في سنة تسع) في هذا نظر والاظهر انهم وفدوا قبل فتح مكة لقولهم. (ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر) ومعلوم ان اهل مكة هم رؤوس كفار مضر وقادتها وقد اسلموا عام الفتح وذلك سنة ثمان ، وقد استنبط الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه البداية، هذا المعنى من هذا السياق والله اعلم

لأنهما عبادتان ظاهرتان . بخلاف الصوم فانه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة . ونحو ذلك مما يؤتمن علي العبد ؛ فان الانسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته ، وهو يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما في آيتي براءة [1] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذاً الى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم ، لأنه تبعٌ وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب في العمر إلا مرة . انتهى بمعناه [2] .

قوله (أخرجاه) أي البخاري ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

قال (ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خَيْبَر : « لأُعطينّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يَفتحُ الله على يديه . فباتَ الناس يَدُوكون ليلتهم ، أيُّهم يُعطاها . فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ ؛ كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه . قال فأرسلوا اليه ، فأُتيَ به ، فبصق في عينيه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، قال : انْفُذْ على رِسلك حتى تنزلَ بساحتهم ؛ ثم ادعُهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَم ») .

« يَدُوكون » أي يخوضون .

---

(١) هما قوله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) الآية الخامسة . ومثلها الآية الحادية عشرة ؛ وخاتمتها (فاخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) .

(٢) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العلماء من اختصار الراوي الحديث . وليس في ذلك طعن في الرواة ، لأنهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والمناسبات . فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض . وذلك كثير جداً ؛ كما تراه في البخاري وغيره . والله أعلم

قوله (عن سعد بن سهل) أي ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي ، أبي العباس صحابي شهير . وأبوه صحابي أيضاً . مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله (قال يوم خيبر) وفي الصحيحين عن سَلَمة بن الأكوع قال « كان علي رضي الله عنه قد تخلّف عن النبي ﷺ في خيبر . وكان أرمد ، فقال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال ﷺ : لأعطين الراية — أو ليأخذن الراية — غداً رجل يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله ؛ يفتح الله على يديه . فاذا نحن بعليّ وما نرجوه ؛ فقالوا : هذا علي ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه » .

قوله (لأعطين الراية) قال الحافظ : في رواية بُريدة « إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفها ،ولكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ، ولواؤه أبيض » ومثله عند الطبراني عن بريدة . وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد « مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

قوله (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه .

قال شيخ الاسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة ، فان الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي ، يحب الله ورسوله ؛ لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتجُ به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يكفّرونه أو يفسقونه ، كالخوارج . لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فان الخوارج تقول في علي مثل ذلك ، ولكن هذا باطل ، فان الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً .

يفتحُ الله على يديه . فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلتهم : أيُّهُمْ يُعطاها . فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها . فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه .

وفيه إثبات صفة المحبة خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم [1] .

قوله (يفتح الله على يديه) صريح في البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .

قوله (فبات الناس يدوكون ليلتهم) بنصب (ليلتهم) و « يدوكون » قال المصنف : يخوضون . أي فيمن يدفعها اليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مرتبتهم في العلم والايمان .

قوله (أيهم) هو برفع « أي » على البناء لاضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله (فلما أصبحوا غَــدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها) وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال « ما أحببت الإمارة إلا يومئذ » .

قال شيخ الاسلام : إن في ذلك شهادة النبي ﷺ لعلي بايمانه باطناً وظاهراً وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له ، وإذا شهد النبي ﷺ لمعيّن بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء . وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو لخلق كثير ، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس [2] وعبدالله بن سلام [3]

---

(١) في قرة العيون : وفيه فضيلة لعلي رضي الله عنه بما خصه من اعطاء الراية ، ودعوته أهل خيبر الى الاسلام ، وقتالهم اذا لم يقبلوا . وفيه مشروعية الدعوة الى الاسلام .

(٢) قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هو من أهل الجنة » في حديث طويل حين جلس في بيته حزيناً عند نزول (لا ترفعوا صوتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وكان ثابت رفيع الصوت ، فقال أنا الذي كنت أرفع صوتي — الحديث رواه الامام أحمد.(ج ٣ ص ١٣٧) ورواه مسلم في كتاب الايمان حديث ١٨٧ .

(٣) عن سعد بن أبي وقاص قال « ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة الا لعبدالله بن سلام » رواه البخاري في مناقب الأنصار ورواه مسلم والترمذي وابن ماجه

فأرسلوا إليه ، فأُتِيَ به : فبَصق في عينيه ، ودعا له . فبرأ كأن لم يكن به وَجَع فأعطاه الراية فقال : انفُذْ علَى رِسْلِكَ حتى تَنْزِلَ بساحتهم .

وإن كان شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضُرب في الخمر [1] .

قوله (فقال أين علي بن أبي طالب) فيه سؤال الامام عن رعيته ، وتفقد أحوالهم .

قوله (فقيل هو يشتكي عينيه) أي من الرمد ، كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال « ادعوا لي علياً فأُتي به أرمد » الحديث ، وفي نسخة صحيحة بخط المصنف « فقيل هو يشتكي عينيه ، فأرسل اليه » مبنى للفاعل ، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع الى النبي ﷺ ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال « فأرسلني إلى عليّ فجئت به أقوده أرمد » .

قوله (فبصق) بفتح الصاد ، أي تفل .

قوله (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة ، أي عوفي في الحال ، عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر [2] .

وعند الطبراني من حديث علي « فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إليّ الراية » وفيه دليل على الشهادتين .

قوله (فأعطاه الراية) قال المصنف : فيه الايمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها عمن سعى .

وفيه : أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل .

قوله (وقال انفذ على رسلك) بضم الفاء . أي امض ؛ و « رسلك » بكسر

---

(۱) روى البخاري عن عمر قال « كان رجل يسمى عبدالله ويلقب حمَارا ؛ وكان يضحك رسول الله وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد ؛ فلعنه بعض الصحابة ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » الحديث .

(۲) في قرة العيون : وذلك بدعوة النبي « ص » كما في الحديث فدعا فاستجيب له عليه السلام وفيه علم من أعلام النبوة أيضاً ، وذلك كله بالله ومن الله وحده وهو الذي يملك الضر والنفع ؛ والعطاء والمنع ، لا إله غيره ولا رب سواه .

الراء وسكون السين ، أي على رفقك من غير عجلة . و « ساحتهم » فِناء أرضهم وهو ما حولها .

وفيه : الأدب عند القتال وترك العجلة والطيش ، والأصوات التي لا حاجة اليها .

وفيه : أمر الامام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة ، كما يشير اليه قوله « ثم ادعهم الى الاسلام » (١) أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وان شئت قلت الاسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، واخلاص الطاعة لرسوله ﷺ . ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : والاسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له والعبودية له . كذا قال أهل اللغة .

وقال رحمه الله تعالى : ودين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله : هو الاستسلام له وحده ، فأصله في القلب . والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ؛ وفي الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح . وأما الايمان فأصله تصديق القلب وإقراره ومعرفته ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى .

فتبين أن أصل الاسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة وهو دعوة جميع المرسلين ، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم

---

(١) في قرة العيون : هذا هو شاهد الترجمة ، وهكذا ينبغي لأهل الاسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق الى الاسلام والدخول فيه ، وينبغي لولاة الامر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم .

به على ألسن رسله ، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله (٧١ : ٣ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) .

وفيه : مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء لأن النبي ﷺ أغار على بني المصْطَلِق وهم غارُّون[1] وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم .

قوله « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه »[2] أي في الاسلام

(١) الغار : الغافل . وقال البخاري : غزوة بني المصطلق من خزاعة . وهي المريسيع . قال ابن اسحاق : وذلك سنة ست . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وقال النعمان بن راشد عن الزهري « أن النبي (ص) أغار على بني المصطلق وهم غارون ، وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم . وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث » وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة . وسبب غزوهم : أن النبي « ص » بلغه أن الحارث بن ضرار سيدهم أبا جويرية يجمع الناس ويستعد لقتاله . ففاجأهم رسول الله وهم غافلون ، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار .

(٢) في قرة العيون : فيه مما أمر به وشرعه من حقوق « لا اله الا الله » وهذا يدل على أن الأعمال من الايمان خلافاً للأشاعرة والمرجئة في قولهم : انه القول . وزعموا أن الايمان هو مجرد التصديق ، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة . لأن الدين ما أمر الله به فعلا وما نهى عنه تركا .

وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم . وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره.وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم فصار من أشد الصحابة رضي الله عنه بعداً عن الشرك ، وشدة على من اشرك حتى أحرقهم بالنار مثل عبد الله بن سبأ اليهودي وشيعته والقصة في البخاري .

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ما اعطي من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك ووسائله . وهؤلاء أفضل أهل الكرامات فما زادهم ذلك الا قوة في التوحيد ؛ وشدة على أهل الشرك والتنديد ، كما جرى لعمر رضي الله عنه في الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة في بيت مال الهرمزان ، كما أن المعجزات انما زادت الرسل قوة في الدعوة الى التوحيد وشدة على أهل الشرك والانكار عليهم وجهادهم ، ولكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ؛ ويظنون أن ذلك كرامات ، وهي من مكر الشيطان ؛ واغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد (ص) (٤٣ : ٤٢ فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم)فكذلك=

رجلاً واحداً خيرلك من حُمْر النَّعَم » « يَدُوكون » أي يخوضون .

اذا أجابوك اليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها : كالصلاة والزكاة ، كما في حديث أبي هريرة « فاذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها [1] » ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله ما نعي الزكاة : «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها . قال أبو بكر : فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها [2] » .

وفيه : بعثُ الامام الدعاةَ الى الله تعالى ، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون ، كما في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته « ألا إني والله ما أرسل عُمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم . ولكن أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسننكم » .

قوله « فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » «أن» مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم . وأنْ والفعل بعدها في تأويل مصدر ، رفع على الابتداء والخبر « خير » و «حمر » بضم المهملة وسكون الميم ، جمع أحمر . و « النعم » بفتح النون والعين المهملة ، أي خير لك من الإبل الحمر . وهي أنفَسُ أموال العرب .

قال النووي : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب الى الأفهام؛ وإلا فذرّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها .

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يُستحلف .

=يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره فانه الصراط المستقيم ولا يلتفت الى ما زخرفته الشياطين كما اغتر به من اغتر في هذه الأمة من قبلهم .

وفيه : من أداء الفرائض على الوجه الشرعي والنهي عن تعدي الحدود التي حدها الله بين الحلال والحرام ؛ وذلك من الايمان . فالحلال ما احله الله ، والحرام ما حرمه الله ؛ والدين ما شرعه الله، فاذا أخذ بالاسلام الذي هو التوحيد والاخلاص،وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ما حرم الله تعالى وأمر بذلك وجاهد عليه ، فقد قام بما وجب . وبالله التوفيق .

(*) هو عبدالله بن سبأ اليهودي وشيعته . والقصة في البخاري .

(١و٢) رواهما البخاري ومسلم وغيرهما .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله ﷺ .

الثانية : التنبيه على الاخلاص ، لأن كثيراً لو دعا الى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الثالثة : أن البصيرةَ من الفرائض .

الرابعة : من دلائل حُسْن التوحيد : أنه تنزيه الله تعالى عن المسبّة .

الخامسة : أنَّ مِن قُبح الشرك كونَه مَسبّة لله .

السادسة : — وهي أهمها — إبعادُ المسلم عن المشركين لا يصير منهم ، ولو لم يشرك .

السابعة : كون التوحيد أول واجب .

الثامنة : أن يُبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة .

التاسعة : أن معنى « أن يُوحِّدوا الله » معنى : شهادة أن لا إله إلا الله .

العاشرة : أن الانسانَ قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ، أويعرفها ولا يعمل بها .

الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدريج .

الثانية عشرة : البُداءة بالأهم فالأهم .

الثالثة عشرة : مصرِف الزكاة .

الرابعة عشرة : كشفُ العالِم الشبهةَ عن المتعلم .

الخامسة عشرة : النّهي عن كرائم الأموال .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تُحجَب .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

التاسعة عشرة : قوله « لأعطين الراية ألخ » علَم من أعلام النبوة .

العشرون : تفلُه في عينَيه علَم من أعلامها أيضاً .

الحادية والعشرون : فضيلة عليّ رضي الله عنه .

الثانية والعشرون : فضل الصحابة في دَوْكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتح .

الثالثة والعشرون : الإيمانُ بالقَدَر لحصولها لمن لم يَسْعَ لها ومَنْعِها عمن سعى.

الرابعة والعشرون : الأدب في قوله « على رِسْلك ».

الخامسة والعشرون : الدعوة الى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله « اخبرهم بما يجب ».

الثامنة والعشرون : المعرفة بحق الله في الاسلام.

التاسعة والعشرون : ثوابُ من اهتدى على يديه رجلٌ واحد.

الثلاثون : الحلف على الفتيا.

باب

(تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

قوله : (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

قلت : هذا من عطف الدال على المدلول[1].

فان قيل : قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى (لا إله إلا الله) وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى (١٧ : ٢٣ « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ») وسابقها ولاحقها ، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها . فما فائدة هذه الترجمة ؟

قيل : هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الاخلاص وما دلت عليه من توحيد العبادة . وفيها الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم . لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كالآية الأولى : (١٧ : ٥٦ « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ») أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه والعزير والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي ، كما في هذه الآية من التهديد

---

(١) في قرة العيون : لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة ، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث ، لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك ، وإقامة الحجة على من غلط في معنى « لا إله إلا الله » من أهل الجهل والإلحاد .

وقول الله تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يَبْتغونَ إلى رَبِّهم الوسيلة أيُّهم أقربُ ويرْجون رحمتهُ ويخافون عذابه . إنّ عذابَ ربك كان محذوراً)

والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ، ينافي التوحيد ، وينافي شهادة أن لا إله إلا الله ، فان التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الاخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و « الدعاء مخ العبادة » (٥) .

وفي هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان ، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعو نبياً أو ملكا . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ، لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان اليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره . وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى لا إله إلا الله .

وقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) [١] يبين أن

---

(٥) رواه الترمذي عن انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) في قرة العيون : أي أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزيز . فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله (يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) فيطلبون القرب من الله بالاخلاص له وطاعته فيما أمر ، وترك ما نهاهم عنه . وأعظم القرب التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة اليه ؛ وهذا الذي يقربهم الى الله أي الى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فلا يرجون أحداً سواه ولا يخافون غيره ، وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك ، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعي لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر ، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله . ففيه معنى قوله (٣٥ : ١٤ ويوم القيامة يكفرون بشرككم) وقوله (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

وفيه : الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم ، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، وان ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الاخلاص .

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد ، وما ينافيه من الشرك والتنديد ؛ فانها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا

هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . قال قتادة « تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه » وقرأ ابن زيد (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب [1] قال العماد ابن كثير : وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين . وذكره عن عدة من أئمة التفسير .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث:

=يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا) ثم بين تعالى ان هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه فقال (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر ، يعني يبتغون الى ربهم الوسيلة لا الى غيره . وأعظم الوسائل الى الله تعالى التوحيد الذي بعث به الله انبياءه ورسله ، وخلق الخلق لأجله. ومن التوسل اليه : التوسل بأسمائه وصفاته ، كما قال تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله (ص) « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام » وقوله « اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا اله الا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك . فالتوسل الى الله هو بما يحبه ويرضاه ، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله (سبحان الله عما يشركون) وقوله (سبحان الله وما أنا من المشركين) وقوله في الانكار على من اتخذ الشفعاء (١٠ : ١٨ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير يأمر عباده باخلاص العبادة له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاؤهم به من التوحيد والنهي عن الشرك . فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم ، فانهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح (١١ : ٢٧ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وقالوا لهود (١١ : ٥٣ ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) الآيات . وقالوا لصالح (١١ : ٦٢ « قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) وقالوا لشعيب « ١١ : ٨٧ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » .

فتدبر ما قص الله تعالى في كتابه مما دعت اليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم . فان الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك الى يوم القيامة . وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال«كان ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

فانه لا يخالف ما تقدم لان هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الاولين والآخرين ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه الآية : وهذه الاقوال كلها حق فان الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة والجن او من البشر .

(١) يعني أن جميع الصالحين الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلا الى الله لتقضي حوائجهم ، واما استقلالا بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين بأن الله وهبهم التكوين والتصرف أولئك الصالحون مشتغلون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون اليه بعبادته مخلصين له الدين خائفين عذابه راجين رحمته ، واذا لم يملكوا لانفسهم نفعاً ولا دفع ضر ، فكيف يملكون لغيرهم ضراً أو نفعاً ؟

الحب ، وهو ابتغاء التقرب اليه . والتوسل اليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف . وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الاسلام كما في المسند عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ « والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه : أن لا آتيك . فبالذي بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال : وما الاسلام ؟ قال : أن تُسلم قلبك وأن تُوجّه وجهك إلى الله ، وأن تصلي الصلوات المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة » وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن مَعدان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن للاسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق [1] . من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهذا معنى قوله تعالى (٣١ : ٢٢ ومن يُسْلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) .

وقوله تعالى (٤٣ : ٢٦ — ٢٨ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه) أي « لا إله إلا الله » .

فتدّبر كيف عبّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه ووُضعت له [2] من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج : كالكواكب والهياكل والأصنام التي صوّرها قوم نوح على صور الصالحين : ودّ وسُوَاع ويَغُوثَ ويَعُوق ونَسْر ،

---

(١) الصوى الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطريق ، واحدتها صوة — كقوة — أراد ان للاسلام طرائق وأعلاما يهتدى بها .

(٢) في قرة العيون : فعبر عن المنفي بها قوله (انني براء مما تعبدون) وعبر عما أثبتته بقوله (إلا الذي فطرني) فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك . فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه .

قال العماد ابن كثير في قوله تعالى (وجعلها كلمة باقية في عقبه) أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله الا الله ، جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية ابراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أي اليها . قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله (وجعلها كلمة باقية في عقبه) يعني « لا إله الا الله » لا يزال في ذريته من يقولها .

وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها . ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره ، وهو الله وحده لا شريك له ؛ فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الاخلاص مطابقة . كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعونه من دونه هو الباطل) فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهي باطلة ، وهي الشرك الذي لا يغفره الله ، قال تعالى (٤٠ : ٧٣ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ٧٤ من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن من قبلُ شيئاً . كذلك يُضِلُّ الله الكافرين) .

وقوله تعالى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم [1] ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) [2] .

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عَدِيِّ بن حاتم الطائي فقال : « يا رسول الله ، لسنا نعبدهم . قال : أليس يُحِلُّون لكم ما

---

(١) الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد . قال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى في الآية (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون) فصار ذلك عبادة لهم . وجعلوا أحبارهم ورهبانهم مشرعين في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ؛ فاتخذوهم بذلك أرباباً . لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية. وقال تعالى(٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) .

(٢) في قرة العيون : أي اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله وقال تعالى (٥ : ١١٦ اذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ١١٧ ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى « لا إله إلا الله » وتبين له التوحيد الذي جحده أكثر من يدعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة ، وقد عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لهم المشاهد ؛ فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة . فبهذه الامور التي وقع فيها الأكثر ، وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة . نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير ؛ وقد قال « ص » بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس » وفي رواية « يصلحون ما أفسد الناس » .

حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى . قال النبي ﷺ : فتلك عبادتهم »[1] .

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أرباباً . كما هو الواقع في هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله .

فتبين بهذه الآية أن كلمة الاخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة . فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد .

وقوله تعالى (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب اليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته — كحال عبّاد القبور والطواغيت والأصنام — فلا بد أن يعظّموهم ويحبوهم لذلك ؛ فانهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى[2] . ويقولون « لا إله إلا الله » ويصلون

---

(١) رواه الامام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير مطولا .

(٢) هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة . لأن حب الله لا يكون الا عن معرفة بالله ؛ بأسمائه وصفاته . ومن أحب الله على الحقيقةلايمكنأن يتخذ من دونه نداً.وليسمعنى(كحبالله)أي كحبهم لله . ولكن معناها والله أعلم : يحبونهم حباً من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله . وهو حب العبادة : غاية الحب في غاية الذل والتعظيم . فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء والملجأ والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها . مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حباً لله . والمشركون يجردونه لأوليائهم أو يشركونهم مع الله ؛ ولا يرجون لله وقاراً .

وقال في قرة العيون : الأنداد ؛ الأمثال والنظراء، كما قال العماد بن كثير وغيره من المفسرين فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة اليه أو رهبة منه ، فقد اتخذه نداً لله . لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أي مع الله بعبادته له ، وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب وان سمي عشقا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ؛ وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن لا تكون محبته لغير الله ، فلا يحب الا الله ؛ كما في الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يلقى في النار » ومحبة رسوله هي من محبته . ومحبة المرء ان كانت لله فهي من محبته ، وان كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها . ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء الى محبوبه؛— وهو الكفر — بمنزلة كراهته لالقائه في النار أو أشد . ولا ريب أنهذا من أعظمالمحبة . فان الانسان

ويصومون ، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره . فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه . لأن المشرك لا يقبل منه عمل ، ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا « لا إله إلا الله » فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بمدلولها . لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل الله شريكا في المحبة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الاخلاص : ولم يكن صادقا في قولها . لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص ، وترك اليقين أيضاً . لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شكَّ فيه ، ولم يقبله وهو الحق . ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما في الحديث . بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندَّ ومحبته له وعبادته إياه من دون الله ، كما قـــال تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويكفرون بما عبد من دون الله . فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله . وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا اليه جميع المرسلين . فتدبر .

قال (وقوله تعالى « ١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب — الآية) يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها ، وهو قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى (قل) يا محمد (١) للمشركين

—لا يقدم على محبة نفسه شيئاً ، فاذا قدم محبة الايمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر ، كان أحب اليه من نفسه . وهذه المحبة هي فوق مـــا يجده العشاق من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة ؛ كما لا مثيل لمن تعلقت ، به وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والاجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان ، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركاً لا يغفره الله كما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) والصحيح أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم؛ كـــا تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصـــلا ، كما لا يماثل محبوبهم غـــيره . وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته .

(١) يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيراً ؛ تفسيراً لخطاب الله . ولكن يلاحظ أن الله لم

الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد، وارغبوا اليهم، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم، أي بالكلية (ولا تحويلا) أي ولا أن يحولوه الى غيركم

والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس في الآية: «كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً».

وروى البخاري في الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا» وفي رواية: «كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم».

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هي الاسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال: «عيسى وأمه وعزير» وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية «هم عيسى وعزير والشمس والقمر» وقال مجاهد «عيسى وعزير والملائكة».

وقوله (يرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك: فاما أن يكون خائفاً وإما أن يكون راجياً، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى، في هذه الآية، لما ذكر أقوال المفسرين: وهذه الأقوال كلها حق، فان الآية تعم من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفاً. فيقول: هذا. فالاشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع من شمول الآية. فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله

يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب «يا محمد» بل كل خطابه له «يا أيها النبي» «يا أيها الرسول»، فينبغي أن يكون ذلك كذلك، والله أعلم.

وقوله (٤٣ : ٢٦ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه إنني بَراءٌ مما تعبدون ٢٧ الا الذي فَطَرني فإنه سيهدين ٢٨ وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِبِه لعلهم يرجعون) .

مدعواً ، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل عن دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية ، كما تتناول من دعا الملائكة والجن ، فقد نهى الله تعالى من دعائهم ، وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، ولا يرفعونه بالكلية ولا يُحولونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال (ولا تحويلا) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل . فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله اهـ .

وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحاً ويقول : أنا لا أشرك بالله شيئاً، الشرك عبادة الأصنام .

قال (وقوله « واذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بَراء مما تعبدون.إلا الذي فطرني — الآية) قال ابن اكثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب اليه قريش في نسبها ومذهبها : انه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال (إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك لـــه ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي « لا إله إلا الله » [1] جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام (لعلهم يرجعون) أي اليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله (وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) يعني « لا إله الا الله » لا يزال في ذريته من يقولها .

---

(١) فان « لا إله إلا الله » مطابقة لقوله (انني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني) لان كلتاهما مركبة من جملتين : نفي ؛ وهي « لا إله » و « انني براء مما تعبدون » واثبات : وهي « إلا الله » و « الذي فطرني » فينبغي ان يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك ويحققه علماً وعملا .

وروى ابن جرير عن قتادة (إنني براء مما تعبدون الا الذي فطرني) قال : كانوا يقولون : الله ربنا (٥٣ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد . وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة (وجعلها كلمة باقية في عقبه) قال « الاخلاص والتوحيد لا يزال في ذريتهمن يعبد الله ويوحده » .

قلت : فتبين أن معنى « لا إله إلا الله » توحيد الله باخلاص العبادة لـــه والبراءة من كل ما سواه .

قال المصنف رحمه الله (وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة ، هي شهادة أن لا إله إلا الله) .

وفي هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية :

واذا تولاه امرؤ دون الـــورى   طُرًّا تـــولاه العظيم الشـــان

قال (وقوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ــالآية) الأحبار : هم العلماء والرهبان هم العباد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعَدِيّ بن حاتم ، وذلك « أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم . فقال : بلى : انهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهـــم ، فذلك عبادتهم اياهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق .

قال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون فان الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحله الله ، وأطاعه في معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً ، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمـــة الاخلاص (لا إله إلا الله) فان الاله هو المعبود ، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم ، وسماهم أرباباً ، كما قال تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا

الملائكة والنبيين أرباباً) أي شركاء لله تعالى في العبادة (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وهذا هو الشرك . فكل معبود رب ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً، كما قال تعالى في آية الأنعام (٦ : ١٢١ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة . ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) والله أعلم .

قال شيخ الاسلام في معنى قوله (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين (أحدهما) أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ، اتباعاً لرؤسائهم ؛ مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل . فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وان لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم . فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ، مشركاً مثل هؤلاء .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وايمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله ؛ كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « انما الطاعة في المعروف» .

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسل لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه . ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول . فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسول . فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه اذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال . وإن كان عاجز عن إظهار الحق الذي يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الاسلام حق وهو بين النصارى ، فاذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ،

وقوله (٢ : ١٦٦ ومن الناس من يتخذُ من دون الله أنداداً يُحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدُّ حباً لله)

وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى (٣ : ١٩٩ وإن من أهل الكتاب لمَنْ يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) وقوله (٥ : ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . الآية) وقوله (٧ : ١٥٩ ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق وبه يعدلون) . وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثلُه : من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة . وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ؛ فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً . كمن قال في القرآن برأيه ، فان أصاب فقد أخطأ ؛ وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس ما نع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فان ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفي الحديث « إن يسير الرياء شرك » وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب . انتهى .

وقال أبو جعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى (وتجعلون له أنداداً) أي وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله . انتهى .

قلت : كما هو الواقع من كثير من عُبّاد القبور .

قال (وقوله « ٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله — الآية) .

قال العماد بن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا لله أنداداً ؛ أي أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ولا ند له ؛ ولا شريك

معه . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت « يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِداً وهو خلَقَكَ » .

وقوله (والذين آمنوا أشد حباً لله) ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم اليه . ثم توعّد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك . فقال تعالى (ولو يرى الذين ظلموا إذ يَروْن العذاب أن القُوّة لله جميعاً) قال بعضهم : تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوّة لله جميعاً ، أي ان الحكم له وحده لا شريك له ، فان جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وإن الله شديد العذاب) كما قال تعالى (٨٩ : ٢٥ و ٢٦ فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد ، ولا يوثِقَ وثَاقه أحد) يقول : لو علموا ما يعانون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرّؤ المتبوعين من التابعين . فقال تعالى (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتّبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة [1] (٢٨ : ٦٣ تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (٣٤ : ٤١ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضاً يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ،

---

(١) قال العماد بن كثير في تفسير سورة القصص : وقوله تعالى (وقال الذين حق عليهم القول) يعني الشياطين والمردة والدعاة الى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ؛ ثم تبرأوا من عبادتهم اه . والدعاة إلى الكفر : هم من بني آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخاً لأولئك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية . فانهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيهم الشرك والكفر بالله ورسوله . فان أساس طرقهم الشيطانية : أن يعبد المريد شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمريد لا يشعر . وأنه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ في قلبه . ويعظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتاً – كما هو مدون في كتبهم – من شروط المريد وما يسمونه العهد الوثيق . وتجد أكثر هذا الكفر والضلال في كتب الشعراني . وأما آيات سورة الأحقاف فانها صريحة في أن الذين يكفرون بشرك المشركين : هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم ، واتخذوا قبورهم أوثاناً ؛ وما كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به ؛ من أمثال الحسين واخوته وأبيه وأبنائهم والامام الشافعي في مصر وأبي حنيفة وعبد القادر في بغداد ونحوهم ، فانهم يتبرأون يوم القيامة من أولئك المشركين .

كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . انتهى كلامه .

روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد (والذين آمنوا أشد حباً لله) من الكفار لأوثانهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم (وما هم بخارجين من النار) ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله . فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ، فلم يدخلوا في الاسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ؟) اهـ .

ففي الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكاً لله في العبادة واتخذه نداً من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله ، كما قال تعالى في أولئك (وما هم بخارجين من النار) وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) المراد بالظلم هنا الشرك . كقوله (٧ : ٨٢ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) كما تقدم . فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١ يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ٢٢ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه : فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة ، لزم أن يكون محباً له ، ومحبته هي الأصل في ذلك . انتهى .

فكلمة الاخلاص « لا إله إلا الله » تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى . وقد تقدم بيان أن « الإله هو المألوه الذي تأله القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة » فلا إله إلا الله، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده . فهذا هو ما دلت عليه كلمة

الاخلاص مطابقة ، فلا بد من معرفة معناها واعتقاده ، وقبوله ، والعمل به باطناً وظاهراً والله أعلم .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ، أي مع الله تعالى بعبادته له ، وتوحيد الحب : أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب — وإن سمي عشقاً — فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بان يكون الله ورسوله أحب اليه من كل ما سواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى ، فلا يحب إلا الله ، ولا يحب إلا لله ، كما في الحديث الصحيح « ثلاث من كن فيه » الحديث [1] ومحبة رسول الله ﷺ هي من محبة الله ؛ ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته ، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها ؛ ويُصَدِّق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر — بمنزلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فان الانسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فاذا قدم محبة الايمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يُلقى في النار ولا يكفر ، كان أحب اليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة . كما لا مثل لمن تعلقت به ، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد . وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والاجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً . وهذا لا نظير له في محبة المخلوق ، ولو كان المخلوق من كان . ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركا شركاً لا يغفره الله . كما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) والصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً من الله أهل الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته . وكل مكروه في محبة غيره فهو

---

[1] (١) رواه البخاري عن أنس بلفظ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه الا لله . وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « مَن قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبَدُ من دون الله ، حَرُم ماله ودمُه ، وحسابه على الله عز وجل » .

قرة عين في محبته . ومن ضرب لمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق: كالوصل ، والهجر والتجني بلا سبب من المحب ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ، فهو مخطىء أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . انتهى .

(وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله ») قوله في الصحيح : أي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ فذكره .

وأبو مالك اسمه سعد بن طارق ؛ كوفي ثقة مات في حدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشْيَم — بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر — ابن مسعود الأشجعي ، صحابي له أحاديث . قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفي مسند الامام أحمد عن أبي مالك قال : وسمعته يقول للقوم « من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » ورواه الامام أحمد من طريق يزيد بن هارون قال أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن أبيه . ورواه أحمد عن عبدالله بن ادريس قال : سمعت أبا مالك قال : قلت لأبي — الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر « لا إله إلا الله » .

قوله (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين . الأول : قول « لا إله إلا الله » عن علم ويقين ، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث كما تقدم . والثاني : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها [1] .

قلت : وفيه معنى (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

---

(١) في قرة العيون : فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه الا اذا قال لا إله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، فان قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به ، ولم ينفه كما نفته لا اله الا الله . فتأمل هذا الموضوع فانه عظيم النفع .

قال المصنف رحمه الله تعالى (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فانه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فان شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيا لها من مسألة ما أجلّها ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمُنازع) انتهى .

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله « لا إله إلا الله » فلا يصح قولها بدون هذا الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلا . قال تعالى (٨ :٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقال (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ؛ ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . فان أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً « أمرت أن أقاتل النـــاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم عـــلى الله » وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال « لا إله إلا الله » ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها . أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات .

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان ، دون أهـــل الكتاب . لأنهم يقولون : « لا إله إلا الله » ، ثم يُقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

وقال القاضي عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال « لا إله إلا الله » تعبير عن الاجابة إلى الايمان . وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل

وشرحُ هذه الترجمةِ : ما بعدها من الأبواب .

فيه أكبر المسائل وأهمها : وهي تفسير الشهادة . وبيّنها بأمورٍ واضحة .

منها : آيةُ الإسراء بيّن فيها الردّ على المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها : بيانُ أنّ هذا هو الشركُ الأكبر .

ومنها آية براءة ، بيّن فيها أنّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دُون الله ، وبيّن أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يَعبدُوا إلهاً واحداً ، مع

الأوثان ، فأما غيرهم ممن يقرُّ بالتوحيد ، فلا يُكتفَى في عصمته بقول « لا إله إلا الله » إذ كان يقولها في كفره . انتهى ملخصاً .

وقال النووي : لا بد مع هذا من الايمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في الرواية « ويؤمنوا بي وبما جئت به » .

وقال شيخ الاسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الاسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فانه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام ، أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال أو الخمر ، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها ، التي يكفر الواحد بجحودها . فان الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الاسلام . انتهى .

قوله (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة . فان كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذّبه العذاب الأليم . وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الاسلام وجب الكفُّ عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الانسان قد يقول « لا إله إلا الله » ولا يكفر بما

أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه : طاعةُ العلماء والعبّاد في المعصيةِ ، لا دُعاؤهم إياهم .

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار (إنني براءٌ مما تعبدون إلا الذي فطرني) فاستثنى من المعبودين ربّهُ ، وذكر سبحانه أنّ هذه البراءة وهذه الموالاة : هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال (وَجَعَلها كلمةً باقيةً في عَقِبهِ لَعلّهم يرجعون) .

ومنها : آية البقرة في الكفار الذين قال فيهم « وَمَا هُمْ بخارجينَ مِنَ النارِ » ذكر أنهم يُحبّون أندادهم كحبِّ الله ،[1] فدلّ على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يُدْخلهم في الإسلام . فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكبر [2] من حُبِّ الله ؟ فكيف بمن لم يُحبَّ إلا النِّدَّ وحده ؟ ولم يُحبَّ الله ؟

يعبدون من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قوله (وشرحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) [3] قلت : وذلك أن

---

(١) الظاهر أن المعنى : أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذي هو حب التعظيم والذل والخضوع . لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع . ولذلك قال « كحب الله » ولم يقل : كحبهم لله . فهم في الوقت الذي يحبونهم أعظم الحب ، يخافونهم أشد الخوف ؛ معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيراً مما ينذرونه لهم ويذبحونه لهم من طيب مالهم ويرجون منهم المساعدة والمعونة على كشف الضر ودفع البأساء ، ويحذرون انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم ، ويروون عن سدنتهم روايات مكذوبة في تأييد دعاويهم تهويلا عليهم وتمكيناً للضلال والشرك من أنفسهم . فهم لا يرجون لله وقاراً كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم . فتجود أنفسهم بسخاء في سبيل التقرب الى أولئك الموتى من أوليائهم بما لا تجود بعشره في سبيل الله ، براً للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعاماً لجار بائس ، أو مسكين من اهل قريته . هذا شأن عباد القبور والموتى اليوم . دقق في أحوالهم وطبقها على آيات المشركين في القرآن تجدهم زادوا على مشركي الجاهلية الأولى . والله المستعان ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

(٢) ان من تحقق محبة مشركي زماننا لآلهتهم التي يسمونها بالأولياء يعلم يقيناً أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدرون أن يتصدقوا بعشره لوجه الله .

(٣) في قرة العيون : فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافيه ، وما يقرب منه ، وما يوصل اليه من الوسائل ، وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك في العبادة

ومنها : قوله ﷺ « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فانه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف الى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله . فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه .

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع .

ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى « لا إله إلا الله » وفيه أيضاً بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل الى ذلك من الغلو والبدع ، مما تركه من مضمون « لا إله إلا الله » فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى « لا إله إلا الله » وما دلت عليه من الاخلاص ونفي الشرك ، وبضدها تتبين الأشياء ، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد ، وأما الأصغر فانما ينافي كماله ، فمن اجتنبه فهو الموحد حقاً ، وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها لتجتنب تعرف الغايات التي نهي عن الوسائل لأجلها ، فان اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والاخلاص بل يقتضيه . وفيه أيضاً من أدلة التوحيد إثبات الصفات وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله ، وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده ، وأن العبادة لا تصلح الا له ، وهذا هو التوحيد ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه)

رفعه : إزالته بعد نزوله . دفعه : منعه قبل نزوله .

= وشدة انكارهم له وجهادهم على ذلك ، وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يقدر أحد عن معرفته وطلبه باقبال وتدبر . وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع ، فتدبره تجد ذلك بيناً . وسيأتي التنبيه على ذلك ان شاء الله تعالى .

باب

(من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه)

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)

قال (وقول الله تعالى ٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) .

قال ابن كثير : أي لا تستطيع شيئاً من الأمر (قل حسبي الله) أي الله كافٍ من توكل عليه (عليه يتوكل المتوكلون) كما قال هود عليه السلام حين قال قومه (١١ : ٥٤ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون ٥٥ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ٥٦ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) قال مقاتل في معنى الآية : فسألهم النبي ﷺ فسكتوا . أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها[1] .

---

(١) في قرة العيون : فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا تقدر على كشف ضر أراده الله بعبده ، أو إمساك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزوماً لا محيد لهم عنه . وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله ابراهيم لمن حاجه في الله فقال : (٢ : ٢٥٨ أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك ، وهذا في القرآن كثير كقوله تعالى (٢٢ : ٧٣ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ؛ ضعف الطالب والمطلوب) وقال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون • إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء • وهو العزيز الحكيم • وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال (والذين يدعون من

عن عمران بن حُصَيْن رضي الله عنه « أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حَلْقة من صُفر ، فقال : ما هذا ؟ قال من الواهنة . فقال انزِعها فانها لا

وانما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لا على أنهم يكشفون الضر ، ويجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده . كما قال تعالى (١٦ : ٥٣ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ٥٤ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) .

قلت : فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر ، وأن ذلك شرك بالله . وفي الآية بيان أن الله تعالى وَسَمَ أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة اليه من دون الله . والتوحيد ضد ذلك . وهو أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا اليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله . كما دل على ذلك الكتاب والسنة واجماع سلف الأمة وأئمتها كما تقدم .

قال (وعن عمران بن حصين « أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلْقة من صفر فقال ما هذه ؟ قال من الواهنة . قال : انزعها فإنها لا تزيدك إلا وَهْناً ، فانك لو مِتّ وهي عليك ما أفلحت أبداً » رواه أحمد بسند لا بأس به) .

قال الامام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن الحسن قال أخبرني عمران بن حصين « أن النبي ﷺ أبصر على عَضُد رجل حلقة — قال أراها من صفر — فقال ويحك ما هذه ؟ قال : من الواهنة . قال : أمّا إنها لا تزيدك إلا وهناً . انبذها عنك فانك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً »

= دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون • أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) .

ذكر العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس مرفوعاً « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، اذا سألت فاسأل الله ؛ واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ؛ ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ؛ واعمل لله بالشكر في اليقين ؛ واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

تَزِيدُكَ إلا وهناً ، فانك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً » رواه أحمد بسند لا بأس به .

رواه ابن حبان في صحيحه فقال «فانك إن مت وُكِلْتَ اليها » والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد . وأقره الذهبي . وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران . وقوله في الاسناد « أخبرني عمران » يدل على ذلك .

قوله (عن عمران بن حصين) أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي ، أبو نجيد — بنون وجيم — مصغر . صحابي ابن صحابي . أسلم عام خيبر . ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

قوله (رأى رجلا) في رواية الحاكم « دخلتُ على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر ، فقال ما هذه ؟ » الحديث . فالمبهم في رواية أحمد هو عمران رواي الحديث .

قوله (ما هذه) يحتمل أن الاستفهام للاستفسار عن سبب لبسها ، ويحتمل أن يكون للإنكار ، وهو أشهر .

قوله (من الواهنة) قال أبو السعادات [1] : الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها ، فيُرقى منها . وقيل هو مرض يأخذ في العضد ، وهي تأخذ الرجال دون النساء [2] وانما نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد [3] .

قوله (انزعها فانها لا تزيدك إلا وهناً)النزع هوالجذب بقوة،أخبر أنها لا

---

(١) هو ابن الأثير ، ولد سنة ٥٤٤ وتوفي سنة ٦٠٦ له عدة تآليف . منها النهاية في غريب الحديث .

(٢) ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره يعتقدون ان ذلك يحفظهم من الموت الذي أخذ إخوتهم الذين ماتوا قبلهم . ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير ، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن ، وغيرها .

(٣) في قرة العيون : وانما نهاه عنها لكونه أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره (ص) بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده إلا وهناً ، فان المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فاذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم ؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

تنفعه بل تضره وتزيده ضعفاً . وكذلك كل أمر نهى عنه فانه لا ينفع غالباً وان نفع بعضه، فضره أكبر من نفعه .

قوله (فانك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً) لأنه شرك . والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف رحمه الله تعالى (فيه شاهد لكلام الصحابة : ان الشرك الأصغر أكبر الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة . وفيه الانكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك) .

قوله (رواه أحمد بسند لا بأس به) هو الامام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ابن ادريس بن عبدالله بن حسان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنْب بن أفصى بن دُعمى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان — الامام العالم أبو عبدالله الذهلي ثم الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعا ومتابعة للسنة ، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته الدنيا فأباها ، والشُّبه نفاها ؛ خُرج به من مرو وهو حمل فولُد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول . وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهي سنة تسع وسبعين فسمع من هشيم وجرير بن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن ادريس الشافعي ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابناه صالح وعبدالله ، والبخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو رزعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبدالله بن أبي الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وأبو القاسم البغوي ، وهو آخر من حدث عنه ؛ وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدي والأسود بن عامر ؛ ومن أقرانه علي بن المديني ويحيى بن معين . قال البخاري : مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه ، وقال حنبل : مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا « مَن تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومَن تعلق وَدعة فلا ودَع الله له » وفي رواية « مَن تعلق تميمة فقد أشرك » .

وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة . وقال ابنه عبدالله والفضل بن زياد : مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى .

قوله (وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وفي رواية « من تعلق تميمة فقد أشرك »)[1] الحديث الأول رواه الامام أحمد كما قال المصنف ، ورواه أيضاً أبو يعلي والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد وأقره الذهبي .

قوله (وفي رواية) أي من حديث آخر رواه أحمد فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري عن عقبة بن عامر الجهني « أن رسول الله ﷺ أقبل اليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا يا رسول الله ، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ فقال : إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك » ورواه الحاكم بنحوه . ورواته ثقات .

قوله (عن عقبة بن عامر) صحابي مشهور فقيه فاضل ، ولي امارة مصر مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريبا من الستين .

قوله (من تعلق تميمة) أي علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر ، قال المنذري : خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

---

(١) في قرة العيون : وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ؛ وهذا أيضاً ينافي كمال الاخلاص الذي هو معنى لا إله إلا الله لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله كما تقدم في قوله (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم ، فاذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبوة فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والايمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك ؟ كما في الأحاديث الصحيحة وتقدمت الاشارة الى ذلك . وهذا مما يبين معنى لا إله إلا الله أيضاً فانها نفت كل الشرك قليله وكثيره كما قال تعالى (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

ولابن أبي حاتم عن حذيفة «أنه رأى رجلا في يده خيط من الحُمّى

وقال أبو السعادات : التمائم جمع تميمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين ، في زعمهم ، فأبطلها الاسلام .

قوله (فلا أتمّ الله له) دعاء عليه .

قولـه (ومن تعلق وَدَعة) بفتح الواو وسكون المهملة . قال في مسند الفردوس : شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين .

قوله (فلا ودع الله له) بتخفيف الدال . أي لا جعله في دعة وسكون . قال أبو السعادات وهذا دعاء عليه .

قوله (وفي رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك) قال أبو السعادات : إنما جعلها شركا لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه .

قال المصنف رحمه الله (ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى ، فقطعه ، وتلا قوله تعالى(١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا هم مشركون) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال « دخل حذيفة على مريض ، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه . ثم قال (ومـا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

وابن أبي حاتم هو الامام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن ادريس الرازي التميمي الحنظلي الحافظ ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

وحذيفة هو ابن اليمان . واسم اليمان : حُسيل بمهملتين مصغراً ، ويقال حِسل – بكسر ثم سكون – العبسي بالموحدة ، حليف الأنصار ، صحابي جليل من السابقين ، ويقال له صاحب السر [1] وأبوه أيضاً صحابي ، مات

(١) لأن النبي « ص » استصحبه في عودته من غزوة تبوك حين أخذ في طريق العقبة التي كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله « ص » ليقع عنها فيموت . فأطلعه الله على ما

فقطعه ، وتلا قوله (١٣ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ في لُبس الحلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

الثانية : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة : إن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

الثالثة : أنه لم يَعذر بالجهالة .

الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة ، بل تضر لقوله « لا تزيدك إلا وهناً » .

حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين .

قوله (رأى رجلا في يده خيط من الحمى) أي عن الحمى . وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى (١) وروى وكيع عن حذيفة « أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده ، فاذا فيه خيط ، فقال ما هذا ؟ قال شيء رُقي لي فيه ، فقطعه وقال : لو مت وهو عليك ما صليت عليك » وفيه انكار مثل هذا ، وان كان يعتقد أنه سبب ، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها . وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب انكاره وازالته بالقول والفعل ، وإن لم يأذن فيه صاحبه .

قوله (وتلا قوله « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ») استدل حذيفة

بيتوا وأعلمه بأسمائهم . فأعلم رسول الله « ص » حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم. ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة . ولم يكن عند حذيفة سر في الدين ، كما يدعي الضالون من الصوفية . لأن الاسلام علانية لا سر فيه ؛ وانما الأسرار في النصرانية وكنائسها وقسسها ورهبانيتها .

(١) ولا يزال هذا معتقداً عند أهل الجاهلية الثانية . يتخذون خيوطاً يعقدونها بأيدي من اسمه محمد ، وبعض ذلك يعملونه يوم الجمعة ، وبعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة من أسماؤهم محمد ، ويقرأون عند كل عقدة قل هو الله أحد . ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم ؛ فلا تلبسه عقيم في زعمهم إلا وتحمل . وهذا من أعظم الانحطاط الى أحط دركات البكم والصمم والعمي ، بل الى البهيمية أن يعتقد في خيوط . ومثله اتخاذ سبع من أنواع الحبوب، تعلق في كيس مع سرة الطفل واشباه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء اسلامية ، وهم من أجهل المشركين الشرك الأكبر . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الخامسة : الانكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

السادسة : التصريح بأن من تعلّق[1] شيئاً وُكِلَ إليه .

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك .

الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك .

التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة .

العاشرة : أن تعليق الودع عن العين من ذلك .

الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يُتِمّ له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع[2] الله له . أي ترك الله له .

رضي الله عنه بالآية على أن هذا شرك[3] . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر ، لشمول الآية له ودخوله في مسمى الشرك ، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره في كلام شيخ الاسلام وغيره . والله أعلم . وفي هذه الآثار عن الصحابة : ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله .

---

(١) إنما وكله الله اليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله وتمسك بالسبب الأضعف على تمسكه بلا قوة ، فوكله الى ما تمسك به فلم ينفعه شيئاً .

(٢) ودع : فسره المصنف بترك أي فلا ترك الله له ما يحب وفسره غيره بأنه دعاء عليه ألا يجعله الله في دعة ولا سكون .

(٣) في قرة العيون : فاذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه ؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية ما قد تقدم التنبيه عليه ، حتى ان كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر فصاروا هم والصحابة رضي الله عنهم على طرفي نقيض ، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك ؛ وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعة وضلالة ؛ وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده ، والنهي عن الشرك به ؛ وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمداً (ص) بذلك كما بعث به من قبله ، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا اليه رسول الله « ص » مشركي العرب وغيرهم ، فنصر هؤلاء مـــا نهى عنه من الشرك غاية النصرة ؛ وأنكروا التوحيد الذي بعث به غـــاية الانكار ، فانه « ص » لما قال لقريش « قولوا لا اله الا الله تفلحوا » عرفوا معناها الذي وضعت له وما أريد منها فقالوا (٣٨ : ٥ و ٦ و ٧ أجعل الآلهة الهاً واحداً ؟ ان هذا لشيء عجاب) الآيات . وقال تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون) وفي صحيح البخـــاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي (ص) قال له « فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة » .

باب

ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولا أن لا يَبقين في رقبة بعير قِلادة من وتَر أو قِلادة إلا قُطِعت » .

قوله (باب ما جاء في الرقى والتمائم) .

أي من النهي وما ورد عن السلف في ذلك .

قوله (في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري « أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولا : أن لا يبقين في رقبة بعيرقلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت ») هذا الحديث في الصحيحين .

قوله (عن أبي بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة . قيل اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد . وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ؛ وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين . ويقال : انه جاوز المائة .

قوله (في بعض أسفاره) قال الحافظ : لم أقف على تعيينه .

قوله (فأرسل رسولا) هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده قاله الحافظ .

قوله (أن لا يبقين) بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين ، و « قلادة » مرفوع على أنه فاعل . و « الوتر » بفتحتين . واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب ، اعتقادا منهم أنه يدفع عن الدابة العين[1] .

---

(١) وأصل معنى القلادة : ما يوضع في العنق من الحلي والزينة للنساء ؛ والحبل يوضع في عنق الدابة لتقاد به . ومثل ذلك ما يعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حذوة حمار أو حصان ، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهي عنه أشد النهي وقد يصل الى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يعتقد فيه أنه هو الذي يدفع حقيقة الضر والسوء .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرُّقى والتمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ » رواه احمد وأبو داود .

قوله (أو قلادة إلا قطعت) معناه : أن الراوي شك هل قال شيخه : قلادة من وتر أو قال : قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ ويؤيد الأول ما روى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ؟ فقال « ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر » ولأبي داود « ولا قلادة » بغير شك .

قال البغوي في شرح السنة : تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين . وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم ويعلقون عليها العوذ ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات . فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الابل الأوتار ؛ لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبي ﷺ بازالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزي وغيره .

قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر ، رفعه « من تعلق تميمة فلا أتم الله له » رواه أبو داود . وهي ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى .

قال المصنف (وعن ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود) .

وفيه قصة ، ولفظ أبي داود : عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت « إن عبد الله رأى في عنقي خيطاً ، فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رقي لي فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ثم قال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك [1] سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » فقلت : لقد كانت

---

(١) من أول الحديث الى هنا ليس في سنن أبي داود في باب تعليق التمائم . وهو عند ابن ماجة بلفظ « كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة ، وكان لنا سرير طويل القوائم وكان عبدالله اذا دخل تنحنح وصوت ، فدخل يوماً ، فلما سمعت صوته احتجبت منه ، فجاء فجلس الى جانبي فمسني فوجد مس خيط ، فقال ما هذا ؟ فقلت رقي لي فيه من الحمى ، فجذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد اصبح آل عبدالله أغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ألخ » .

عيني تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي ، فاذا رقى سكنت . فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فاذا كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول ﷺ يقول «أذهب البأس ، رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء الا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما» ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبي .

قوله (إن الرقى) قال المصنف (هي التي تسمى العزائم . وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركا هي التي يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا بأسماء الله وصفاته وآياته ، والمأثور عن النبي ﷺ ، فهذا حسن جائز أو مستحب .

قوله (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد . وكذا رخص في الرقى من غيرها ؛ كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك «كنا نرقى في الجاهلية ؛ فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا عليّ رقاكم . لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا» وفي الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابي : وكان عليه السلام قد رَقى ورُقي ، وأمر بها وأجازها ؛ فاذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فانه ربما كان كفراً أو قولا يدخله شرك .

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها ؛ وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم . وبنحو هذا ذكر الخطابي .

وقال شيخ الاسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلا عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه : لأنه يكره الدعاء بغير العربية . وانما يرخص لمن لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الاسلام [1] .

---

(١) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية في أورادهم « كركدن كرددن دهده، أصباسوات—

التمائم شيء يُعلق على الأولاد عن العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخّص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه

وقال السيوطي : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله (والتمائم) قال المصنف (شيء يعلق على الأولاد من العين) وقال الخلخالي : التمائم جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين ، وهذا منهي عنه . لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته .

قال المصنف (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف . وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه . منهم ابن مسعود) .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص [1] وهو ظاهر ما روي عن عائشة . وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية . وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك .

وقالت طائفة لا يجوز ذلك . وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها

سأهيا شراهيا جلجلوت » وأمثالها مما يقولون عنه انه ذكر الله ، فهذا كله ليس من دين الاسلام في شيء ، لأن الاسلام عربي متين ، وهذا وغيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية . كادوا بها المسلمين ففرقوهم شيعا وأحزاباً وملأوا قلوبهم من الشرك في الالهية والشرك في الربوبية . فوصلوا من ذلك الى ما يريدون من تقويض الدولة الاسلامية .

(١) الرواية بذلك ضعيفة . ولا تدل على هذا . لأن فيها أن ابن عمرو وكان يحفظه أولاده الكبار . ويكتبه في ألواح ويعلقه في عنق الصغار فالظاهر انه كان يعلقه في اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة والتميمة تكتب في ورقة لا في لوح . وبدليل تحفيظه الكبار . وكيفما كان فهو عمل فردي من عبدالله بن عمرو لا يترك به حديث رسول الله وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبدالله بن عمرو رضي الله عنهم .

و« الرقى » هي التي تسمى معزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة .

المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه [1]

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل : الأول عموم النهي ولا مخصص للعموم ، والثاني سد الذريعة ، فانه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك . الثالث أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك [2] .

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة الاسلام ، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والاقبال اليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق الله تعالى اليها من دونه ، كما قال تعالى (١٠ : ١٠٦ ، ١٠٧ ولا

---

(١) في قرة العيون : والمقصود بيان ان هذه الامور الشركية وان خفيت فقد نهى عنها رسول الله (ص) وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا اله الا الله من نفي الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله في دفع الضر أو جلب نفع ، وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه ، وفيه ما كان عليه رسول الله (ص) من التحذير من الشرك والتغليظ في انكاره وان كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر .

(٢) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به(*) ومحادة لله ولرسوله ، فان الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وشفاء لما في الصدور ولا يزيد الظالمين الا خساراً . وانه لتذكرة للمتقين . وانه لحسرة على الكافرين . وانه لحق اليقين . ولم ينزل القرآن ليتخذ حجبا وتمائم . ولا ليتلاعب به المتأكلون به الذين يشترون به ثمنا قليلا . والذين يقرءونه على المقابر وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به.

(*) قوله (ولأن فعل ذلك استهزاء اشد استهزاء بآيات الله ، ومناقضة لما جاءت به) الخ . اقول هذه فيها نظر ، والصواب ان تعليق التمائم ليس من الاستهزاء بالدين بل من الشرك الاصغر ، ومن التشبه بالجاهلية ، وقد يكون شركاً اكبر على حسب ما يقوم بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وانها تنفع وتضر دون الله عز وجل ، وما اشبه هذا الاعتقاد اما اذا اعتقد انها سبب السلامة من العين او الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر ، لان الله سبحانه لم يجعلها سببا ، بل نهى عنها وحذر وبين انها شرك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وما ذاك الا لما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات اليها والتعلق بها ولو كان تعليقها استهزاء بآيات الله سبحانه لكان ذلك كفرا وردة عن الاسلام كما قال الله عز وجل (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) الآية ، ولا نعلم احدا من اهل العلم قال ان تعليق التمائم استهزاء بآيات الله ولأن الواقع من المعلقين يخالف ذلك فانهم انما يعلقون التمائم من القرآن والسنة رجاء نفعها وبركتها ، لا لقصد الاستهزاء بها ، وهذا بين واضح لمن تأمل . والله المستعان .

و« التولة » شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

وعن عبدالله بن عُكَيم مرفوعاً « من تعلق شيئاً وُكِل اليه» رواه أحمد والترمذي

تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك إذاً من الظالمين وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) ونظائرها في القرآن أكثر من أن تحصر .

قوله (التولة) قال المصنف (هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته) وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث : كما في صحيح ابن حبان والحاكم « قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها ، فما التولة ؟ قال : شيء نصنعه للنساء يتحببن بـه إلى أزواجهن » .

قال الحافظ : التولة – بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً – شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر [1] . والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى

قال المصنف (وعن عبدالله بن عكيم مرفوعاً « من تعلق شيئاً وكل اليه » رواه أحمد والترمذي) ورواه أبو داود والحاكم . وعبد الله بن عكيم هو بضم المهملة مصغراً ، ويكنى أبا معبد ، الجهني الكوفي . قال البخاري : أدرك زمن النبي ﷺ ولا يعرف له سماع صحيح وكذا قال أبو حاتم . قال الخطيب سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة ، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات في ولاية الحجاج .

قوله (من تعلق شيئاً وكل اليه) التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ،

---

(١) وإن زعم الذين يصنعونها النساء أنهم مسلمون ومتدينون ، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء الله ، فانهم يفعلون ذلك تضليلا بالقرآن وإلحاداً فيه . لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفاً مقطعة وبمداد خاص ؛ ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه – كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان ؛ وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من الله . وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات ، ويزعمون أن الحروف والأسماء خداماً يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية ويتخذون أنواعاً من البخور والأدوات المخصوصة التي يوحي بها شياطينهم . وكل ذلك من الكفر العظيم .

وروى أحمد عن رُويفع قال : قال لي رسول الله ﷺ « يا رُويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أنّ مَن عقد لحيته أو تقلد وتَراً أو استنجى برَجيع دابة أو عظم فان محمداً بريء منه » .

ويكون بهما [1] « وكل اليه » أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه ، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ اليه ، وفوض أمره اليه ، كفاه وقرب اليه كل بعيد ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك : وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب . قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

قال الامام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال « لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز . قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود ، أمَا وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن الا جعلت له من بينهن مخرجاً . أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخاوق دوني ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه ثم لا أبالي بأيّ أوديتها هلك » .

قال المصنف (وروى الامام أحمد عن رويفع قال : قال رسول الله ﷺ « يا رويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فان محمداً بريء منه) .

الحديث رواه الامام أحمد عن يحيي بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ حسن :

---

(١) في قرة العيون : التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل وهو التفات القلب عن الله الى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله وهو ينافي قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فان كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد ، وان كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله ، وخروج عن دين الاسلام ، ولا يصح معه قول ولا عمل .

حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شُيَيم بن بيتان قال حدثنا رويفع بن ثابت قال: «كان أحدنا في زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما غنم وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش وللآخر القدح. ثم قال لي رسول الله ﷺ – الحديث» ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثني الفضل حدثنا عياش بن عباس أن شُيَيم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني – الحديث[1]. ابن لهيعة فيه مقال. وفي الاسناد الثاني شيبان القتباني، قيل فيه مجهول. وبقية رجالهما ثقات.

قوله (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصاً برويفع، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج اليه الناس وجب إعلامهم به، فان اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود.

قوله (لعل الحياة ستطول بك) فيه علم من أعلام النبوة، فان رويفعاً طالت حياته الى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار. وقيل مات سنة ثلاث وخمسين.

قوله (أن من عقد لحيته) بكسر اللام لا غير، والجمع لحىً بالكسر والضم قاله الجوهري.

قال الخطابي: أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين. أحدهما ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً، ثانيهما أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث وقال أبو زرعة ابن العراقي: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت عليه رواية محمد

---

(١) الحديث رواه ابو داود في باب ما ينهى عنه أو يستنجى به: حدثنا يزيد بن خالد ابن عبدالله بن موهب الهمداني أخبرنا المفضل يعني ابن فضالة المصري عن عياش بن عباس القتباني – بكسر القاف – أن شييم بن بيتان أخبره عن شيبان القتباني أن مسلمة بن مخلد استعمل رويفع بن ثابت على أسفل الأرض قال شيبان فسرنا معه – الخ. ثم ساق له سنداً آخر: حدثنا يزيد بن خالد حدثنا مفضل عن عياش أن شييم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضاً عن أبي سالم الجيشاني عن عبدالله ابن عمرو. اه وليس في أحدهما ابن لهيعة وقال المنذري: ورواه النسائي.

وعن سعيد بن جُبير قال : « مَن قطع تميمة من إنسان كان كعِدل رقبة » رواه وكيع .

بن الربيع . وفيه « أن من عقد لحيته في الصلاة »[1]

قوله (أو تقلد وتراً) أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته . وفي رواية محمد بن الربيع « أو تقلد وتراً — يريد تميمة » .

فاذا كان هذا فيمن تقلد وتراً فكيف بمن تعلق بالأموات وسألهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، الذي جاء النهي عنه وتغليظه في الآيات المحكمات ؟

قوله (أو استنجى برجيع دابة أو عظم فان محمداً بريء منه) قال النووي: أي بريء من فعله ، وهذا خلاف الظاهر . والنووي كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله تعالى له .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً « لا تستنجوا بالروث ولا العظام فانه زادُ اخوانكم من الجن » وعليه لا يجزي الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، لما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة « أن النبي ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث ، وقال : انهما لا يطهران » .

قوله (وعن سعيد بن جبير قال « من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ويكون هذا مرسلا لأن سعيداً تابعي[2] . وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك .

---

(١) في قرة العيون : قلت ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه ، وفي حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله (ص) « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال صحيح : وفي الصحيح « خالفوا المشركين احفوا الشوارب واعفوا اللحى » وذلك يدل على الوجوب ، وذكر ابن حزم الاجماع على أنه فرض فيتعين النهي عن ذلك .

(٢) في قرة العيون : فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمائم والترغيب في قطعها وأن ذلك مما يجب ، وفيه مع ما تقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رضي الله عنهم من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهي عنه ، فلما اشتدت غربة الاسلام في أواخر هذه الامة صار انكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب الى العلم كما لا يخفى .

وله عن إبراهيم : قال « كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقى والتمائم .

الثانية : تفسير التولة .

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك .

الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا ؟

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك .

السابعة : الوعيد الشديد على مَن تعلق وتراً .

الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان .

التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبد الله .

ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره . روى عنه الامام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله « (وله عن ابراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) » وابراهيم هو الامام ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي ، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء . قال المِزّي : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سماع منها . مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها .

قوله (كانوا يكرهون التمائم) الى آخره ، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلقمة ، والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد ، وعبيدة السلماني ومسروق والربيع بن خُثيم ، وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها ابراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ العراقي وغيره .

باب

(من تبرّك بشجرة أو حجر ونحوهما)

وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩ أفرأيتم اللات والعُزّى ٢٠ ومَناة الثالثة الأخرى) .

قوله : (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) كبقعة وقبر ونحو ذلك ، أي فهو مشرك .

قوله : (وقول الله تعالى) ٥٣ : ١٩ — ٢٣ أفرأيتم اللات والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى (الآيات) وكانت اللات لثقيف ، والعُزّ لقريش وبني كنانة ، ومناة لبني هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما (اللات) فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس بتشديد التاء .

فعلى الأولى قال الأعمش : سموا اللات من الاله . والعزى من العزيز . قال ابن جرير . وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا قال : وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فِناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ؛ قال ابن هشام : فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية قال ابن عباس « كان رجلا يلُتّ السويق للحاج ؛ فلما مات عكفوا على قبره » ذكره البخاري قال ابن عباس « كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها ؛ فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق [1] » وعن مجاهد نحوه وقال « فلما مات عبدوه »

---

(١) وفي النهاية : السلاء السمن . وفي فتح الباري (ج ٨ ص ٤٣٣) : وأخرج ابن ابي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس – ولفظه فيه زيادة – «كان يلت السويق–

رواه سعيد بن منصور . وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس « انهم عبدوه » وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لا منافاة بين القولين . فانهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيما .

ولمثل هذا بُنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

وأما « العزى » فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة — بين مكة والطائف — كانت قريش يعظمونها . . كما قال أبو سفيان يوم أحد لنا العزى ولا عزى لكم » فقال رسول الله ﷺ « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال « لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد الى نخلة — وكانت بها العزى ؛ وكانت على ثلاث سمرات — فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها . ثم أتى النبي ﷺ فأخبره . فقال : ارجع فانك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهو يقولون : يا عزى يا عزى ، فأتاها خالد فاذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها. ثم رجع الى رسول الله ﷺ فأخبره . فقال : تلك العزى » قلت : وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفي المشاهد .

وأما « مَناة » فكانت بالمشلل عند قُديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج ، وأصل اشتقاقها : من اسم الله المنان ، وقيل : لكثرة ما يُمنى — أي يُراق — عندها من الدماء للتبرك بها .

قال البخاري رحمه الله ، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها « إنها صنم بين مكة والمدينة » قال ابن هشام « فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح » فمعنى الآية كما قال القرطبي : أن فيها حذفا تقديره : أفرأيتم هذه الآلهة ، أنفعت أو ضرت ، حتى تكون شركاء لله تعالى ؟

=على الحجر ، فلا يشرب منه أحد إلا سمن ، فعبدوه » واختلف في اسم هذا الرجل : فعن مجاهد « كان رجلا في الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رسلها . ويأخذ من زبيب الطائف والاقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر به من الناس . فلما مات عبدوه . وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب . اه مختصراً .

وقوله (ألكم الذكر وله الأنثى ؟) قال ابن كثير : تجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور ؟ قوله (تلك إذاً قسمة ضيزى) أي جور وباطلة . فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً فتنزهون أنفسكم عن الاناث وتجعلونهن لله تعالى. وقوله (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أي من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) أي من حجة (إن يتبعون الا الظن) أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم [1] (وما تهوى الأنفس) وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين . قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قال ابن كثير : ولقد أرسل الله تعالى اليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤهم به ولا انقادوا له اه .

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك ، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات ، وبالأشجار كالعزى ومناة [2] من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك ؛ على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك . فالله المستعان .

---

(١) الظن هنا: ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجيب ، فانهم ليس لهم علم بذلك لا من طريق حواسهم ، ولا من خبر صادق ؛ وانما هو ما يشيعه السدنة ترويجاً لتجارتهم الخاسرة. ويزيد الجاهلين تعلقاً بأوليائهم من دون الله : ما تهوى أنفسهم من قضاء حاجاتهم بغير الأسباب الكونية ؛ فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطرهم لا حباً في الايمان والمؤمنين . ولذلك تراهم يتنقلون من ميت إلى آخر إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول . وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولي الذي كان في نظرهم كبيراً أصبح الولي الذي انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات . والله يقول : إن هؤلاء جميعاً لا يتبعون إلا هوى أنفسهم وهم كاذبون أعظم الكذب في دعواهم حب الأولياء والصالحين .

(٢) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجردة ، وانما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التي كانت امرأة يزعمون انها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات . وكذلك مناة . ولذلك سموا الأشجار العزى والحجر مناة ؛ كما يسمي الناس اليوم النحاس الذي يقام على القبر حسيناً وزينب وغيرهما من الصالحين ، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية .

عن أبي واقد الليثي قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حُدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها . ويَنوطون بهـا

قوله (عن أبي واقد الليثي قال « خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حُنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدْرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة ، فقلنا يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) لتركبُنّ سنن من كان قبلكم »رواه الترمذي وصححه) .

أبو واقد اسمه الحارث بن عوف ، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة قاله الترمذي وقد رواه أحمد وأبو يعلي وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه .

قوله (عن أبي واقد) قد تقدم ذكر اسمه في قول الترمذي وهو صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة .

قوله (خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين) وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني »قال « غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ، ونحن ألف ونيف حتى اذا كنا بين حنين والطائف ـ الحديث

قوله (ونحن حدثاء عهد بكفر) أي قريبٌ عهدنا بالكفر ، ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم اسلامه من الصحابة لا يجهل هذا وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ذكره المصنف رحمه الله .

قوله « (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) » العكوف هو الاقامة على الشيء في المكان ، ومنه قول الخليل عليه السلام (٢١ : ٥٢ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركا بهـا وتعظيما لها [١] وفي حديث عمرو « كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله » .

---

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور عندها ، ويجاورون ، معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى ويعتقد الجاهلون لهم ذلك فيمارونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات قربة لأولئك الموتى . وكل ذلك من الشرك الأكبر .

أسلحتهم ، يقال لها ذاتُ أنواط ، فمررنا بسدرة ؛ فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن . قلتم ، والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو أسرائيل لموسى

قوله (وينوطون بها أسلحتهم) أي يعلقونها عليها للبركة .

قلت : ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قوله (فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط) قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك . وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمي بها المنوط . ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به ، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ .

قوله (فقال رسول الله ﷺ الله أكبر) وفي رواية (سبحان الله) والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان ، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله ، وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيماً لله وتنزيهاً له اذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هضم للربوبية او الالهية .

قوله (إنها السنن) بضم السين أي الطرق .

قوله (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) شبه مقالتهم هذه بقول بني اسرائيل ، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله ، وإن اختلف اللفظان . فالمعنى واحد ، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة .

ففيه الخوف من الشرك ، وان الانسان قد يستحسن شيئاً يظن انه يقرب به الى الله ، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقرب به من سخطه ؛ ولا يعرف هذا على الحقيقة الا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شيء وهو الذنب الذي لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي المعروف بابن أبي

(٧ : ١٣٨ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .قال إنكم قوم تجهلون) لتركبُن سنَن مَن قبلكم » رواه الترمذي وصححه .

شامة في كتاب البدع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عمّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمد وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد ، يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا الى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر . وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث[١] . انتهى.

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أسرع أهل الشرك الى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، يقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر ؛ أي تقبل العبادة من دون الله ؛ فان النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر الى المنذور له . وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » .

وفي هذه الجملة من الفوائد : أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطغام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة ، فاذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بيّن لهم أن ذلك كقول بني اسرائيل (٨ : ١٣٨ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فكيف لا

---

(١) وفي مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب رضي الله عنهما ؛ وكثير مما يسمى بالأربعين ؛ بناء على عقيدة أخبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى ؛ وهي عقيدة أن الولي يتشكل في أربعين جسماً . وزعم الدباغ مبالغة في الوقاحة والضلال انه يكون للولي ثلاثمائة وستون جسماً . وكم في غير مصر من هذه المواضع الشركية من قبور وأشجار وأحجار . عجل الله بتطهير البلاد منها كما طهر الحجاز بيد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، مد الله في حياته ، ووفق أبناءه القيام بمثل عمله الصالح وأعلا بهم منار الاسلام .

يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة ؟ ! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكبروا فعله واتخذوه قربة .

وفيها : أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني اسرائيل ، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط . فالمشرك مشرك وان سمى شركه ما سماه . كمن يسمي دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيما ومحبة ، فان ذلك هو الشرك ؛ وان سماه ما سماه . وقس على ذلك .

قوله (لتركبن سَنَن من كان قبلكم) [1] بضم الموحدة وضم السين أي طرقهم ومناهجهم وقد يجوز فتح السين على الافراد أي طريقهم . وهذا خبر صحيح . والواقع من كثير من هذه الامة يشهد له .

وفيه علَم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ .

وفي الحديث : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيـ كانوا يفعلونه ؛ إلا ما دلّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ .

قال المصنف رحمه الله (وفيه التنبيه على مسائل القبر ، أما : مَن رَبُّك ؟ فواضح . وأما : من نبيك ؟ فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما : ما دينك ؟ فمن قولهم اجعل لنا إلهاً الخ . وفيه : أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الامة خلافا لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه الغضب عند التعليم ، وان ما ذم الله به اليهود والنصارى فانه قاله لنا لنحذره) قاله المصنف رحمه الله .

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من انه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه :

منها : أن السابقين الاولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ ، لا في حياته ولا بعد موته . ولو كان خيراً لسبقونا اليه ،

---

(١) أي اليهود والنصارى ، وقد وقع كما اخبر به (ص) في هذه الامة فركبوا طريق من كان قبلهم من ذكرنا كما هو في الاحاديث الصحيحة كحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال قال « فمن ؟ » وهو في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ وفي رواية « ومن الناس إلا أولئك ؟ » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النجم .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذي طلبوا [1] .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

السابعة : أن النبي ﷺ لم يعذرهم في الأمر بل رد عليهم بقوله والله أكبر ، إنها السنن ؛ لتتبعن سنن من كان قبلكم ، فغلّظ الأمر بهذه الثلاث .

الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً) .

التاسعة : أن نفيَ هذا من معنى « لا إله إلا الله » مع دقته وخفائه على أولئك .

العاشرة : أنه حلف على الفُتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : ان الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدّوا بهذا [2] .

وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم . وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة ، وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة ، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين وأهل الاسوة . فلا يجوز ان يقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الامة ، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح ان يشاركه فيها غيره .

---

(١) يعني انهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله ، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك ، وانما طلبوا شجرة يأذن لهم النبي فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها ؛ فبين لهم انما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صياماً ولا صدقة هو الشرك بعينه . وفيه إبطال لشبهة مشركي هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس بـه .

(٢) ليس ما طلبوه من الشرك الاصغر ؛ ولو كان منه لما جعله النبي « ص » نظير قول بني إسرائيل (اجعل لنا إلهاً) وأقسم على ذلك ، بل هو من الشرك الاكبر كما أن ما طلبه بنو اسرائيل من الاكبر . وانما لم يكفروا بطلبهم لانهم حدثاء عهد بالاسلام ؛ ولأنهم لم يفعلوا ما طلبوه ولم يقدموا عليه بل سألوا النبي « ص » فتأمل .

الثانية عشرة : قولهم « ونحن حُدَثاء بعهد بكفر » فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك .

الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ، خلافاً لمن كرهه .

الرابعة عشرة : سد الذرائع .

الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله « انها السنن » .

الثامنة عشرة : أن هذا علَم من أعلام النبوة ، لكونه وقع كما أخبر .

التاسعة عشرة : أن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

العشرون : أنه متقرّر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر . أما « منّ ربك » ؟ فواضح.وأما « منّ نبيك ؟ » فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما « ما دينك ؟ » فمن قولهم « اجعل لنا » الى آخره .

الحادية والعشرون : أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنّة المشركين .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ، لقولهم : ونحن حدثاء عهد كفر .

باب

(من جاء في الذبح لغير الله)

ومنها : أن في المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى .

قوله (باب ما جاء في الذبح لغير الله) من الوعيد وأنه شرك بالله .

قوله (وقول الله تعالى « ٦ : ١٦٣ قل إن صلاتي [١] ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له » الآية) .

---

(١) في قرة العيون : يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة وقد اشتملت على نوعي الدعاء، دعاء المسألة ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الاركان والواجبات فهو دعاء عبادة

وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتي ونُسكي ومَحياي ومماتي لله ربِّ العالَمين ١٦٣ لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أولُ المسلمين) .

قــال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له : بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته . لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والاقبــال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى . قال مجاهد : النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال الثّوري عن السدي عن سعيد بن جبير : ونسكي ذبحي. وكذا قال الضحاك . وقال غيره (ومحياي ومماتي) أي وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الايمان والعمل الصالح (لله رب العالمين) خالصاً لوجهه « لا شريك له وبذلك » الاخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) أي من هذه الأمة لأن اسلام كل نبي متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فان جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم الى الاسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وذكر آيات في هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبّد عباده بان يتقربوا اليه بالنسك ، كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات ، فان الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه ، فاذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكا في عبادته ، ظاهر في قوله (لا شريك له) نفي أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات؛

ــوهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة لانها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعا «ه» قرره شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى .

(ه) وهي مأخوذة من « الصلة » لانها الصلة والمنحة التي وصل الله بها حبيبه محمد « ص » ومنحه اياها في ليلة الوصل الاعظم : ليلة المعراج . وهي أقوى صلة بين العبد وبين ربه، لانه فيها يناجي ربه كما في الأحاديث ، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله « ص » وكانت مفزعه عند كل أمر يهمه . وكانت الفارق بين المسلم والكافر . فمن تركها فلاحظ له في الايمان بالله وحبه . ولا صلة بينه وبين ربه مهما حاول .

وقوله (فصلِّ لربِّك وانحر) .

عن علي رضي الله عنه قال « حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن

وهو بحمد الله واضح [1] .

قوله (فصلّ لربك وانحر) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب الى الله والى عِدَته ، عكسَ حال أهل الكِبْر والنُّفرة ، وأهل الغِنَى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم الى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله (قل إن صلاتي ونسكي — الآية) والنُسك الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فانهما أجلّ ما يُتقرّب به الى الله ، فانه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر . وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجل العبادات المالية : النحرُ . ومـــا يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها ، كما عرفه أربابُ القلوب الحية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الايمان والاخلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة ، كثير النحر . اهـ .

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيرا ، فمن ذلك الدعاء والتكبير ، والتسبيح والقراءة ، والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ، وإقامة الوجه لله تعالى ، والاقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة ، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله : وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم في كلام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى .

قوله (وعن علي بن أبي طالب قال « حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوى

---

(١) في قرة العيون : والمقصود ان هذه الآية دلت على ان اقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائنا من كان فمن صرف منها شيئا لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله (وما أنا من المشركين) والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه .

الله مَن ذبح لغير الله لعن الله مَن لعن والديه . لعن الله من آوى مُحدِثاً . لعن الله مَن غيّر منار الأرض ، رواه مسلم .

مُحدِثاً ، ولعن الله من غيّر منار الأرض ، رواه مسلم من طرق) وفيه قصة .

ورواه الامام أحمد كذلك عن أبي طفيل قال « قلنا لعلي : أخبرنا بشيء أسرّه اليك رسول الله ﷺ فقال : ما أسرّ إليّ شيئاً كتمه الناس ، ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غيّر تخوم الارض ،يعني المنار » .

وعلي بن أبي طالب : هو الأمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، كان من أسبق السابقين الأولين ومن أهل بدر وبيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه ، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قوله (لعن الله) اللعن : البعدُ عن مظانّ الرحمةِ ومواطنها . قيل واللعين والملعون من حقّت عليه اللعنة ، أو دُعِيَ عليه بها . قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء .

قال شيخ الاسلام رحمه الله ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلّي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى (٣٣ ٤٣ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليُخرِجكم من الظلماتِ الى النور وكان بالمؤمنين رحيما ٤٤ تحيّتهم يوم يلقَوْنه سلام) وقال (٣٣ : ٦٤ إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً) وقال (٣٣ : ٦١ ملعونين أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا) والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلّغه رسولَه محمداً ﷺ ، وجبريل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى ، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم . فالله تعالى هو المصلّي وهو المثيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وعليه سلف الأمة . قال الامام أحمد رحمه الله : « لم يزل الله متكلماً اذا شاء » .

قوله (من ذبح لغير الله) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى (٢ : ١٧٣

وما أُهلّ به لغير الله) [1] ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا . واذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه لل‍ ‍م وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه . كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله . فاذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة ، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ، فان العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله . وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً اليه يحرم [2] ؛ وإن قال فيه باسم الله ؛ كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك [3] وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال . لكن يجتمع في الذبيحة مانعان ، الأول : أنه مما أُهلّ به لغير الله . والثاني : أنها ذبيحة مرتد . ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن [4] ، ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن . اه .

---

(١) وفي سورة المائدة الآية الثالثة . وسورة الأنعام الآية (١٤٥) وسورة النحل الآية (١١٥) (وما أهل لغير الله به) وأصل الإهلال : رفع الصوت والإعلام. فالمقصود بما أهل به لغير الله : ما أُعلن عنه أنه منذور به لغير الله . سواء كان هذا الاهلال والاعلام قبل الذبح كأن يقال : هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان ؛ فيعرف الناس ذلك ، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمى الذابح باسم الله . فان هذه التسمية اللفظية لاغية . والعبرة بالاهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله . (وكذلك أيضاً ما سمي من الطعام أو الشراب أو غيره نذراً وقربة لغير الله . فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت) (٥) باسمها وعلى بركتها هو مما اهل به لغير الله .

(٢) بل يكون هذا الذبح شركا أكبر . (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

(٣) وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ ونحوها ؛ فانهم يتحرون بها يوم السبت في ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات . ويذبحون ويبخرون عند نزول الكوكب الفلاني في منزلة كذا ونحو كذا ، وهم في البلاد الاسلامية كثير – لا كثرهم الله – ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى ، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التمائم والحجب ومتخذون آيات الله هزواً ، ومتقربون بهذه المناسك لغير الله . فيا الله ما أشد غربة الاسلام . وإنا لله وإنا اليه راجعون .

(٤) وفي غير مكة . باسم الزار وأخراج الجن المتلبس بالانس . ويدقون لذلك الطبول .

(٥) قوله (وكذلك ايضا ما يسمى من الطعام والشراب او غيره نذراً او قربة لغير الله ، –

قال الزمخشري : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفا أن تصيبهم الجن ، فأضيفت اليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المروزي : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً اليه ، أفتى أهل بُخارَى بتحريمه ، لأنه مما أهل به لغير الله .

قوله (لعن الله من لعن والديه) يعني أباه وأمه وإن عليا . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال « من الكبائر شَتْم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه ، ويَسُبُّ أمه فيسب أمه » .

قوله (لعن الله من آوى محدثا) أي منعه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه . و « آوى » بفتح الهمزة ممدودة أي ضمه اليه وحماه .

قال أبو السعادات : أويت الى المنزل . وأويت غيري ، وآويته . وأنكر بعضهم المقصور المتعدي .

وأما « محدثا » فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل

=كل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت) الخ . اقول هذا المقام فيه تفصيل فان كان المراد من ذلك من ان هذا الشرك لكونه عبادة لغير الله وتقربا اليه فهذا صحيح . لانه لا يجوز لاحد ان يعبد غير الله بشيء من العبادات لا نبيا ولا غيره ، ولا ريب ان تقديم الطعام والشراب و النقود وغير ذلك للاموات من الانبياء والأولياء او غيرهم او للاصنام ونحوها رغبة ورهبة ، داخل في عبادة غير الله لان العبادة لله هي ما امر الله به ورسوله ، اما ان كان مراد الشيخ حامد ان النقود والطعام والشراب والحيونات الحية التي قدمها ملاكها للانبياء والاولياء وغيرهم يحرم أخذها والانتفاع بها فذلك غير صحيح لانها اموال ينتفع بها قد رغب عنها اهلها وليست في حكم الميتة فوجب ان تكون مباحة لمن أخذها ، كسائر الاموال التي تركها اهلها لمن أرادها ، كالذي يتركه الزراع وجذاذ النخل من السنابل والتمر للفقراء ، ويدل على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ الاموال التي في خزائن اللات ، وقضى منها دين عروة بن مسعود الثقفي ، ولم يرى تقديمها للات ما نعا من اخذها عند القدرة عليها . ولكن يجب على من رأى من يفعل ذلك من الجهلة والمشركين ان ينكر عليه ويبين له ان ذلك من الشرك حتى لا يظن ان سكوته من الانكار او اخذه لما ان اخذ منها شيئا دليل على جوازها واباحة التقرب بها الى غير الله سبحانه ، ولان الشرك اعظم المنكرات فوجب انكاره على من فعله لكن اذا كان الطعام مصنوعاً من لحوم ذبائح المشركين او شحمها او مرقها فانه حرام ، لان ذبيحتهم في حكم الميتة فتحرم وينجس بها ما خالطته من الطعام، بخلاف الخبز ونحوه ما لم يخالطه شيء من ذبائح المشركين فانه حل لمن أخذه ، وهكذا النقود ونحوها كما تقدم والله اعلم .

والمفعول ، فمعنى الكسر : مَنْ نَصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يُقْتَص منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدَع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ، فانه اذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله (ولعن الله من غيّر منار الأرض) بفتح الميم علامات حدودها . قال أبو السعادات في النهاية – في مادة « تخم » – ملعون من غيّر تخوم الأرض أي معالمها وحدودها ، وحدها تخم قيل : أراد حدود الحرم خاصة : وقيل هو عام في جميع الأرض ، وأراد المعالم التي يُهتدى بها في الطريق . وقيل هو أن يَدخل الرجل في ملك غيره فيقتطعه ظلما . قال ويروى « تَخوم » بفتح التاء على الأفراد وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء . اه

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه النبي ﷺ « من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقَه يوم القيامة من سبع أرضين» فقيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين .

وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان : أحدهما : أنه جائز . اختاره ابن الجوزي وغيره ، والثاني : لا يجوز ، اختاره ، أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام .

قوله (وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

---

(١) رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة ، وعن سعيد بن زيد رضي الله عنهما .

(٢) الحديث في كتاب الزهد ص ١٥ س ١٨ وفي الحلية ج ١ ص ٢٠٣ موقوفا فيهما كليهما على سليمان في الزهد وعلى سلمان في الحلية . وهو خطأ في الحلية لأن الحافظ ابن حجر قال في تعجيل المنفعة : سليمان بن ميسرة الأحمسي عن طارق بن شهاب وعنه الأعمش وحبيب بن أبي ثابت ، وثقة ابن معين . وقال ابن حبان في ثقات التابعين : روى عن طارق بن شهاب وله صحبة ؛ وقال ابن خلفون في الثقات : وثقه العجلي ويحيى والنسائي . اه

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : دخل الجنةَ رَجل في ذُباب . ودخل النارَ رجل في ذباب . قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال :

قال مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً . قالوا لأحدهما : قرّب . قال : ليس عندي شيء أقرب . قالوا قرب ولو ذبابا . فقرب ذباباً . فخلوا سبيله . فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه . فدخل الجنة » رواه أحمد) .

قال ابن القيم رحمه الله : قال الامام احمد رحمه الله[1] حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال « دخل رجل الجنة في ذباب — الحديث » .

وطارق بن شهاب : هو البجلي الاحمسي ، أبو عبدالله . رأى النبي ﷺ وهو رجل . قال البغوي : نزل الكوفة . وقال أبو داود : رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً . قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي . واذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح ؛ وكانت وفاته — على ما جزم به ابن حبان — سنة ثلاث وثمانين .

قوله (دخل الجنة رجل في ذباب) أي من أجله .

قوله (قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله) كأنهم تقالّوا ذلك ، وتعجبوا منه . فبين لهم النبي ﷺ ما صيّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيما يستحق هذا عليه الجنة . ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله (فقال : مر رجلان على قوم لهم صنم) الصنم ما كان منحوتاً على صورة ، ويطلق عليه الوثن كما مر .

قوله (لا يجاوزه) أي لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب اليه شيئاً وإن قلّ .

قوله (قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ؛ فدخل النار) في

---

(١) قال في النهاية : كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله يقال له : صنم .

مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يتجوزه أحد حتى يُقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرِّب . قال ليس عندي شيء أُقرِّب . قالوا له : قرِّب ولو ذُباباً . فقرَّب ذباباً ، فخلّوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب . فقال ما كنت لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل . فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه أحمد .

هذا بيان عظمة الشرك ، ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار [1] . كما قال تعالى (٥ : ٨٢ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) .

وفي هذا الحديث : التحذير من الوقوع في الشرك ، وأن الانسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار .

وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم

وفيه أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار في ذباب .

وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان . ذكره المصنف بمعناه .

قوله « وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل » ففيه بيان فضيلة التوحيد والاخلاص [2] .

---

(١) في قرة العيون : لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار . ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعاً « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار » فاذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابا فكيف بمن يستسمن الابل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله . من ميت أو غائب ، أو طاغوت أو مشهد أو شجر ، أو حجر أو غير ذلك ؟ وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه ، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله ، وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه .

(٢) في قرة العيون : ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الايمان ونفرتهم عنه وصلابتهم في الاخلاص ، كما في حديث انس الذي في البخاري وغيره الاتي ان شاء الله تعالى « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان » وفيه « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »

وفيه : تفاوت الناس في الايمان لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم ، كما هو ظاهر الحديث والله أعلم .

فيه مسائل : الأولى : تفسير (إن صلاتي ونسكي) .

الثانية : تفسير (فصلّ لربك وانحر) .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله .

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والديّ الرجل فيلعن والديك.

الخامسة : لعن من آوى محدثا ، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق لله ، فيلتجيء إلى من يجيره مِن ذلك .

السادسة : لعن من غيّر منار الأرض ، وهي المراسيم التي تفرّق بين حقك وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو تأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعيّن ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم [1] .

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طَلِبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر .

الحادية عشرة : ان الذي دخل النار مسلم ، لانه لو كان كافراً لم يقل « دخل النار في ذباب » .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح « الجنة أقرب إلى أحدكم من من شِراك نعله ، والنار مثل ذلك » .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان .

باب

(لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله)

وقول الله تعالى (٩ : ١٠٨ لا تقم فيه أبداً ، لَمسجد أُسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يُحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين) .

---

(١) الظاهر أنه لم يكن متخلصاً وإلا لم يدخل النار ؛ (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال المصنف رحمه الله : (وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر) .

قوله (باب : لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى) [1] .

« لا » نافية ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر . قوله (وقول الله تعالى « ٩ : ١٠٨ لا تقم فيه أبداً » الآية) قال المفسرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار ، والأمة تبع له في ذلك ، ثم إنه تعالى حثّه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أسّس من أول يوم بني على التقوى ؛ وهي طاعة الله ورسوله ﷺ ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلا ومنزلا للاسلام وأهله ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفي الصحيح « أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً » وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف ، منهم ابن عباس ، وعروة ، وعطية ، والشعبي ، والحسن وغيرهم .

قلت : ويؤيده قوله في الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال « تمارى رجلان في المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قُباء . وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : هو مسجدي هذا » رواه مسلم ، وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية والحديث . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسو ل الله ﷺ بطريق الأولى ، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى (٩ : ١٠٨ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، ولَيَحلفُنّ إن أردنا إلا

---

(١) في قرة العيون : أشار رحمه الله تعالى الى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم الى التوحيد من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً في دورهم . فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الاسلامية . فلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعي الى توحيد رب العالمين .

الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون) فلهذه الامور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة . وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه الى غزوة تبوك فسألوه أن يصلي فيه . وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فقال « إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً الى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد ، فبعث اليه فهدمه قبل قدومه الى المدينة [1]

وجه مناسبة الآية للترجمة : أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله . كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلا تجوز الصلاة فيه لله . وهذا قياس صحيح يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي .

قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) روى الامام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنصاري « أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا » وفي رواية عن جابر وأنس « هو ذاك فعليكموه » رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم .

قوله (والله يحب المطهرين) قال أبو العالية : إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وفيه إثبات صفة المحبة ، خلافا للأشاعرة ونحوهم .

قوله (وعن ثابت بن الضحاك قال « نذر رجل [2] ان ينحر إبلاً ببُوانة ،

---

(١) كان أبو عامر الفاسق الخزرجي قد ذهب الى هرقل بعد غزوة أحد ، يستعديه على رسول الله « ص » فوعده هرقل ومناه ، فأرسل جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله « ص » ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له اذا قدم عليهم ، فبنوا هذا المسجد ، والذي هدمه بأمر النبي « ص » وحرقه مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخوه عامر بن عدي .

(٢) روى أبو داود بعد هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفي أنها قالت : سمعت ميمونة بنت كردم قالت « خرجت مع أبي في حجه فرأيت رسول الله « ص » وسمعت الناس يقولون رسول الله « ص » فجعلت أبده بصري ، فدنا اليه أبي وهو على ناقة ، ومعه درة كدرة الكتاب ؛ =

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال « نذر رجل أن ينحر إبلا بِبُوانة، فسأل النبي ﷺ ، فقال : هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ قالوا: لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله

فسأل النبي ﷺ فقال : هل كان فيها وَثَن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : أوْف بنذرك ، فانه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود ، واسناده على شرطهما) .

قوله (عن ثابت بن الضحاك) أي ابن خليفة الأشْهَلي ، صحابي مشهور ، رَوى عنه أبو قِلابة وغيره . مات سنة اربع وستين .

قوله (ببوانة) بضم الباء وقيل بفتحها . قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم. قال أبو السعادات : هضبة من وراء يَنْبُع .

قوله (فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد) فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ، ولو بعد زواله . قاله المصنف رحمه الله .

قوله (فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟) قال شيخ الاسلام رحمه الله[1]: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد ، إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك [2] والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة ،

صفسمت الاعراب والناس يقولون إلطبطبية الطبطبية . فدنا اليه أبي فأخذ بقدمه ، ، قالت فاقرآ له ووقف فاستمع منه ، فقال يا رسول الله ، إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم — قال : لا أعلم إلا أنها قالت خمسين — فقال رسول الله هل بها من الأوثان شيء ؟ قال لا . قال : فأوف بما نذرت لله — الحديث » .

(١) في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم .

(٢) وهي التي يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء ، وهي نوع من العبادة لهم (ه) وتعظيمهم . ولذلك لا يذكر الناس ويعرفون إلا من أقيمت له هذه الذكرانات ولو كان أجهل الله وأفسقهم.فكلما كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قام السدنة بهذا العيد لتحيا في نفوس العامة عبادته وتكثر الهدايا والقرابين باسمه . وقد امتلأت البلاد الاسلامية بهذه الذكرانات ، وعمت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية الى بلاد الاسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولم ينج منها الا نجد والحجاز فيما نعلم بفضل الله ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب . —

ﷺ : أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود وإسناده على شرطهما .

ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقا ، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً . فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة « إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس « شهدت العيد مع رسول الله ﷺ » والمكان كقول النبي ﷺ « لا تتخذوا قبري عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب ، كقول النبي ﷺ « دعهما يا أبا بكر فان لكل قوم عيداً » انتهى . (١)

= (*) قوله (وهي نوع من العبادة لهم) الخ . اقول هذا فيه اجمال ، والصواب التفصيل بان يقال من أقام المولد لقصد التقرب الى صاحبه ورجاء نفعه وبركته ، او لكي يدفع عن مقيم المولد بعض الضرر ونحو ذلك ، فهذا تعتبر اقامته المولد عبادة لصاحبه فان دعاه مع ذلك او استغاث به او نذر له او ذبح له او فعل معه شيئاً من بقية انواع العبادة صار ذلك شركاً الى شرك ، وهذا هو الذي يفعله الكثيرون ممن يقيم الموالد للنبي صلى الله عليه وسلم ، او الحسين رضي الله عنه او البدوي او غيرهم.اما من اقام المولد لقصد التقرب الى الله سبحانه ظناً منه ان ذلك من العبادات التي يحبها الله ، فهذا لا يكون عابداً لصاحب المولد اذا لم يقع منه شيء من الشرك في احتفال المولد ، ولكنه قد اتى بدعة لم يشرعها الله سبحانه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعلها السلف الصالح رضي الله عنهم ولو كان قصده حسناً ، لان العبادات توقيفية لا يجوز الاتيان بشيء منها الا بتشريع من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولقد عظمت المصيبة بهذه الموالد وحصل بها من الشرك والفساد ما لا يحصيه الا الله عز وجل ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ونسأل الله ان يصلح احوال المسلمين ويمنحهم الفقه في الدين ويوفقهم لاتباع السنة وترك البدعة انه سميع قريب ، .

---

(١) في قرة العيون : وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيداً كولد البدوي بمصر وغيره بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة.
قال المصنف رحمه الله تعالى وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

قلت : وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلا للعبادة لكونها صارت محلا لما حرم الله من الشرك والمعاصي ، والحديث وان كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة الله فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلا لما يسخط الله تعالى ، فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التخصيص بالذبح وانما ذكر الذبح كالمثال .

وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً .

والجواب والله أعلم : أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع الى جعله وثناً . كما كان يفعل فيه أولا فجعله مسجداً والحالة هذه ينسى فيها ما كان يفعل فيه ويذهب بـه أثر الشرك بالكلية فاختص هذا المحل لهذه العلة وهي قوة المعـارض والله أعلم .

قال المصنف (وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله) .

قلت : وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة الى ذلك .

قوله (فأوف بنذرك) هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله . أي في محل أعيادهم ، معصية ، لأن قوله « فأوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بالفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم . فيكون سبب الامر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين . فلما قالوا « لا » قال « أوف بنذرك » وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانا لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذره . قال شيخ الاسلام .

وقوله (فانه لا وفاء لنذر في معصية الله) دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد في المكان بعض الموانع . وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به باجماع العلماء . واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد . احدهما : يجب وهو المذهب . وروى عن ابن مسعود وابن عباس . وبه قال أبو حنيفة واصحابه ؛ لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا « لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين» رواه أحمد وأهل السنن[1] واحتج به احمد واسحق ، والثاني : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي ، لحديث الباب . ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم . والمطلق يحمل على المقيد .

قوله (ولا فيما لا يملك ابن آدم) قال في شرح المصابيح : يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بان قال : إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فأما إذا التزم في الذمة شيئاً ، بأن قال : ان شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فاذ اشُفي مريضه ثبت ذلك في ذمته .

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث لا يصح . لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهري من أبي سلمة وانما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك . وقال مثل هذا أبو داود بعد إخراجه إياه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله (لا تقم فيه أبداً) .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض . وكذلك الطاعة .

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال .

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله .

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة . لأنه نذر معصية .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده .

العاشرة : لا نذر في معصية .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

باب

(من الشرك النذر لغير الله)

وقول الله تعالى (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرُّه مستطيراً)

وقوله (٢ : ٢٧٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه)

قوله (رواه أبو داود واسناده على شرطهما) أي البخاري ومسلم .

وأبو داود : اسمه سليمان بن الاشعث بن اسحق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الامام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما . ثقة إمام حافظ من كبار العلماء مات سنة خمس وسبعين ومائتين. رحمه الله تعالى.

قوله (باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى) .

أي لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله . فيكون النذر لغير الله تعالى شركا في العبادة .

وقوله تعالى (٨٦ : ٨ يوفون بالنذرِ ويخافون يوماً كان شَرُّه مُستطيراً)

فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ومدح من فعل ذلك طاعة لله ووفاء بما تقرب به اليه .

وقوله تعالى (٢ : ٢٨٠ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه)

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين ابتغاء وجهه . اه

اذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عباد القبور ، تقربا بها اليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب . كما قال تعالى (٦ : ١٣٦ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرْثِ والانعام نصيباً . فقالوا : هذا لله — بزعمهم — وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله . وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وأما ما نذر لغير الله كالنذر للاصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات . فان كلاهما شرك . والشرك ليس له حرمة . بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي ﷺ «من حلف وقال في حلفه : واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله [1] » .

وقال فيمن نذر شمعةً أو نحوها دُهْناً لتُنَوِّر بهويقول: إنهاتقبل النذر كما يقوله بعض الضالين — : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به وكذلك إذا نذر مالا للسَّدَنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة . فان فيهم شبها من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) ؟ والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه ، قال تعالى (٧ : ١٣٨ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ، فأتَوْا على قوم يَعْكُفون على أصنامٍ لهم) فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد في الهند[1] والمجاورين عندها .

وقال الرافعي في شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلّها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فان قصد الناذر بذلك — وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة — تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت اليه ، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد ، فان معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند اليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السُرجَ والشموع والزيت ، ويقولون إنها تقبل النذر كما يقوله البعض يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا . ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ؛ فان الناذر لا يقصد بذلك الايقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قربة ، فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والايقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للانسان غائب أو مريض أو له حاجة ؛ فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ؛ ويقول : يا سيدي فلان إن

---

(١) في القاموس : البد — بضم الباء — الصنم ، معرب ، بت والجمع بددة — كقردة — وأبداد كخرج وأخراج .

(٢) في قرة العيون : وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع : فتوحيد القصد هو توحيد العبادة ، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة اذا صرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله لالتفاته الى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكاً لله في العبادة فيكون قد أثبت ما نفته (لا اله الا الله) من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص ، وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته « لا اله الا الله » فعكس مدلولها فأثبت ما نفته ونفي ما أثبتته من التوحيد ؛ وهذا معنى قول شيخنا . وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافي كلمة الاخلاص وما تضمنته من التوحيد .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال «من نذر ان يُطيعَ الله فليُطعْه

رد الله غائبي أو عوفي مريضي ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا . فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه ؛ منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر — الى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل الى ضرائح الأولياء تقرباً اليها فحرام باجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق ؛ ونقله المرشدي في تذكرته وغيرهما عنه ، وزاد : قد ابتلي الناس بهذا لا سيما في مولد البدوي (١) .

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ؛ فيكون باطلا . وفي التنزيل (٦ : ١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) (٦ : ١٦٢ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ؛ لا شريك له) والنذر لغير الله إشراك مع الله ، كالذبح لغيره .

قوله (وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «مَن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه») .

قوله (في الصحيح) أي صحيح البخاري .

قوله (عن عائشة) هي أم المؤمنين ؛ زوج النبي ﷺ ، وابنة الصديق رضي

---

(١) أحمد البدوي بطنطا لا يعرف له تاريخ صحيح ، واضطربت الأقوال فيه ؛ والمشهور انه كان جاسوساً لدولة الملثمين . وكان داهية في المكر والخديعة . وقبره أكبر الأصنام في الديار المصرية ؛ مثل هبل الأكبر أو اللات في الجاهلية . يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر ، وتقدم لـه النذور ويجعل له الفلاحون النصف والربع في أنعامهم وزروعهم ، بل وأولادهم فيأتي الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه في الصندوق قائلا : هذا نصيبك يا بدوي ويقام له كل عـام ثلاثة موالد يشد الرحال اليها الناس من أقصى القطر المصري ؛ ويجتمع في المولد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج الى هذا الصنم الأكبر . عجل الله بهدمه وحرقه هو وغيره من كل صنم في مصر وغيرها .

ومَن نذر أن يَعصيَ الله فلا يَعصه »

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

الله عنهما تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين ، ودخل بها وهي ابنة تسع [1] . وهي أفقه النساء مطلقا ، وهي أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف [2] . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضي الله عنها .

قوله (من نذر أن يطيع الله فليطعه) أي فليفعل ما نذره من طاعة الله. وقد أجمع العلماء على ان من نذر طاعة لشرط يرجوه، كإن شفي الله مريضي فعليّ أن أتصدق بكذا ونحو ذلك وجب عليه، إن حصل له ما علق نذره على حصوله. وحكي عن أبي حنيفة : انه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم وأما ما ليس كذلك كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به .

قوله (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) زاد الطحاوي « وليكفر عن يمينه » وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية .

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر في المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا ؟ وتقدم . وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذي عن بريدة « أن امرأة قالت : يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف ، فقال أوفي بنذرك » وأما نذر اللَّجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران ابن حصين مرفوعا « لا نذر في غضب ، وكفارته كفارة يمين » رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائي ، فان نذر مكروها كالطلاق استحب أن يكفّر ولا يفعله .

---

(١) عقد عليها قبل الهجرة بسنة . وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريباً .

(٢) في قرة العيون : بل لا يقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل . والتحقيق أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقها الى الايمان بالنبي « ص » وتأييده في تلك الحال التي بدىء بالوحي فيها كما في صحيح البخاري وغيره ، فما زالت كذلك حتى توفيت رضي الله عنها قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم والأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبي « ص » ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام ، وكان الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاته « ص » يرجعون اليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي « ص » وحديثه صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عن أصحابه وأزواجه .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

باب

(من الشرك الاستعاذة بغير الله)

قوله باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله)

« الاستعاذة » الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، الى ربه ومالكه ؛ واعتصم واستجار به والتجأ اليه ؛ وهذا تمثيل ، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء الى الله ؛ والاعتصام به ، والانطراح بين يدي الرب ، والافتقار اليه ؛ والتذلل له ، أمر لا تحيط به العبارة . قاله ابن القيم رحمه الله .

وقال ابن كثير : الاستعاذة هي الالتجاء الى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر . والعياذ يكون لدفع الشر . واللياذ لطلب الخير . انتهى

قلت : وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده ؛ كما قال تعالى (٤١ : ٣٦ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) فما كان عبادة لله فصرفُه لغير الله شرك في العبادة ، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله جعله شريكاً لله في عبادته ونازع الرب في إلهيته كما أن من صلى لله صلى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق ، كما سيأتي تقريره قريباً ان شاء الله تعالى .

قوله (وقول الله تعالى (٧٢ : ٦ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) [1]

---

(١) في قرة العيون : قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رجال من الانس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثماً ، وقال بعضهم فزاد الانس الجن باستعاذتهم بالجن باستعاذتهم تعزيزهم جراءة عليهم وازدادوا هم بذلك إثماً ، وقال مجاهد : فازداد الكفار طغياناً ، وقال ابن زيد : وزادهم الجن خوفاً .

وقول الله تعالى (٧٢ : ٦ وأنه كان رجل من الإنس يَعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) .

وعن خَولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَن نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامّات

قال ابن كثير : أي كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أي اذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوءهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته . فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم – الى أن قال – قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم «رهقاً» أي خوفا . وقال العوفي عن ابن عباس «فزادوهم رهقا» أي إثماً . وكذا قال قتادة .اهـ

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ؛ يريد كبير الجن ، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله .

وقال مُلا علي قاري الحنفي : لا يجوز الاستعاذة بالجن . فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال : قال تعالى (٦ : ١٢٨ ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) فاستمتاع الانسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ، واستمتاع الجني بالانسي تعظيمه إياه ، وإستعاذته به وخضوعه له . انتهى ملخصا .

قال المصنف (وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك) .

قوله (وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق ، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه مسلم) .

من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم .

هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها أم شريك . ويقال انها هي الواهبة [1] وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظْعون

قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة

قوله (أعوذ بكلمات الله التامات) شرع الله لأهل الاسلام أن يستعيذوا به بدلا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن . فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته .

قال القرطبي : قيل : معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب . كما يلحق كلام البشر . وقيل : معناه الشافية الكافية . وقيل الكلمات هنا هي القرآن . فان الله أخبر عنه بأنه (١٠ : ٥٧ و ١٧ : ٨٢ ن ٤١ : ٤٤ هُدًى وشفاء) وهذا الأمر على جهة الارشاد الى ما يدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب اليه المرغب فيه ، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه اليه . ويتوكل في ذلك عليه ، ويحضر ذلك في قلبه ، فمتى فعل ذلك وصل الى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به وتقرب اليه بما يحب فقد عبده ، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً ، وصَدَقَ . هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خَدَم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عباده . فان الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به اهـ

قوله (من شر ما خلق) قال ابن القيم رحمه الله أي من كل شر في أي

---

(١) التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم

فيه مسائل :

(الأولى) : تفسير آية الجن (الثانية) كونه من الشرك (الثالثة) الاستلال على ذلك الحديث ، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة . قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك (الرابعة) فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره (الخامسة) أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك .

باب

(من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)

مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره ، إنسياً كان أو جنياً ، أو هامة [1] أو دابة ، أو ريحاً أو صاعقة ، أو أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

و« ما » ههنا موصولة وليس المراد بها العموم الاطلاقي ، بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله . فان الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضي اليه .

قوله (لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك) قال القرطبي : هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلا وتجربة ، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء الى أن تركته ، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلا . فتفكرت في نفسي فاذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

قوله : (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : الاستغاثة هي طلب الغَوْث . وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصر . والاستعانة طلب العون .

---

(١) الهامة : ما كان أهل الجاهلية يتوهمونه طائراً أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لا تزال تنادي على قبره بالأخذ بثأره . وهي خرافة من خرافاتهم أبطلها الاسلام ، وفي الصحيح أن النبي « ص » قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .

وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم من الاستغاثة ، لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة ؛ فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد به في القرآن هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ، كقوله تعالى (٥ : ٧٩ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وقوله (٦ : ٨١ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا . قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وقال (١٠ : ١٠٦ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فإنك إذاً من الظالمين) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العباده ، قال الله تعالى (٧ : ٥٥ أدعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين) وقال تعالى (٦ : ٤٠ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين ٤١ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه إن شاء وتنسون ما تشركون) وقال تعالى (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (١٣ : ١٥ له دعوة الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ، لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ؛ وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه ، طالب من الله في المعنى ؛ فيكون داعياً عابداً .

فتبين بهذا من قول شيخ الاسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة

كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال تعالى عن خليله (١٩ : ٤٨ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله . وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ٤٩ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) فصار الدعاء من أنواع العبادة . فان قوله (وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) كقول زكريا (١٩ : ٤ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقياً) . وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله (٧ : ٥٥ أدعوا ربكم تضرعاً وخفية : انه لا يحب المعتدين٥٦ ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة ؛ فان الداعي يرغب الى المدعو ويخضع له ويتذلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة . فاذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله بـه رسوله من قوله (٣٩ : ١٤ قل الله أعبد مخلصاً له ديني) وسيأتي لهذا مزيد بيان ان شاء الله تعالى .

قال شيخ الاسلام رحمه الله في الرسالة السنية : فاذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب الى الاسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة . فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الاسلام لأسباب منها الغلو في بعض المشايخ ؛ بل الغلو في علي بن أبي طالب . بل الغلو في المسيح ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الالهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان انصرني أو أغثني ؛ أو ارزقني ، أو أنا في حسبك ؛ ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ؛ فان تاب وإلا قُتل . فان الله سبحانه وتعالى انما أرسل الرسل ؛ وأنزل الكتب ، ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعى معه إله آخر . والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام . لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات . وانما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ؛ يقولون (٣٩ : ٣ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلفَى) (١٠ : ١٠١ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يُدعى أحد من دونه . لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . اهـ

وقال أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفرَ إجماعا .

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الانصاف وصاحب الاقناع وغيرهم . وذكره شيخ الاسلام ونقلته عنه في الرد على ابن جِرْجيس في مسألة الوسائط .

وقال ابن القيم رحمه الله : ومن أنواعه – يعني الشرك – طلبُ الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه اليهم . وهذا أصل شرك العالم . فان الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له الى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة ان شاء الله تعالى .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي رحمه الله في رده على السبكي في قوله « إن المبالغة في تعظيمه – أي الرسول ﷺ – واجبة » .

إن أُريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما ، حتى الحج الى قبره والسجود له ، والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطي ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ؛ وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ؛ ويدخل الجنة من يشاء – فدعوى المبالغة في هذاالتعظيم مبالغة في الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين .

وفي الفتاوي البزّازية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال أرواح المشائخ حاضرة تعلم : يكفر .

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله – في كتابه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة : هذا وانه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم . ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات . فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات ؛ مستدلين أن ذلك منهم كرامات وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة ؛ وأربعون وأربعة . والقطب هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس . وجوزوا لهم الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجور . قال : وهذا كلام فيه تفريط وإفراط . بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي ؛ لما فيه من روائح الشرك المحقق . ومصادمة الكتاب العزيز المصدق . ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت

عليه الأمة . وفي التنزيل (٤ : ١١٤ ومن يشاقق الرسولَ من بعد ما تبيّنَ له الهدَى ويتّبعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلّه ما تَولّى ونُصْله جهنم وساءت مصيرا) .

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ؛ فيرده قوله تعالى (٢٧ : ٦١ – ٦٤ أإلهٌ مع الله) (٧ : ٥٤ ألا له الخلقُ والأمر) (٣ : ١٨٩ و ٥ : ١٩ و ٢٠ : ١٢٣ و ٢٤ : ٤٢ و ٤٢ : ٤٩ و ٤٥ : ٢٧ و ٤٨ : ١٤ لله ملك السموات والأرض) ونحوها من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفا وملكا ، وإماتة وخلقا . وتمدّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله (٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله ؟) (٣٥ : ٤٠ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم . ويوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبؤك مثل خبير) وذكر آيات في هذا المعنى .

ثم قوله : فقوله في الآيات كلها « من دونه » أي من غيره . فانه هام يدخل فيه من اعتقدته ، من وَليٍّ وشيطان تستمده ، فان من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمِدُّ غيره ؟ الى أن قال : ان هذا لقولٌ وخيم ، وشرك عظيم . إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة . قال جل ذكره (٢٩ : ٣٠ انك ميت وانهم ميتون) (٣٩ : ٤٢ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) (٣ : ١٨٥ و ٢١ : ٣٤ و ٢٩ : ٥٧ كل نفس ذائقة الموت) (٧٤ : ٣٨ كل نفس بما كسبت رهينة) وفي الحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث » الحديث [١] فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلا عن غيره . فاذا عجز عن حركة نفسه . فكيف

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

يتصرف في غيره ؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفة (٢ : ١٤٠ قل أأنتم أعلم أم الله ؟) .

قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدي ، ولا قدرة ولا علم ، كما في قصة مريم بنت عمران ، وأسيد بن حضير ، وأبي مسلم الخولاني .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد . فهذا أقبح مما قبله وأبـــدع لمصادمته قوله جل ذكره (٢٧ : ٦٢ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟) (٦ : ٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ٦٤ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) وذكر آيات في هذا المعنى ، ثم قال : فانه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المنفرد باجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير . فهو المنفرد بذلك . فاذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي .

قال : والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال ، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه ، كقولهم : يا لزيد ، يا للمسلمين . بحسب الأفعال الظاهرة . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم . فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة وغيره على وجه الامداد منه : اشرك مع الله ، إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره .

قال : وأما ما قالوا إن منهم أبدالا ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس . فهذا من موضوعات إفكهم . كما

وقول الله تعالى (١٠ : ١٠٦ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين

ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين ؛ وابن الجوزي وابن تيمية . انتهى باختصار .

والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى وأعتقدها أهل الأهواء . فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب . والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل ، ومن قال قولا بلا برهان فقوله ظاهر البطلان ، مخالف ما عليه أهل الحق والايمان المتمسكون بمحكم القرآن، المستجيبون لداعي الحق والايمان . والله المستعان وعليه التكلان .

قال (وقوله تعالى « ١٠ : ١٠٦ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً من الظالمين ») .

قال ابن عطية : معناه قيل لي « ولا تدع » فهو عطف على « أقم » وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ . اذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره . والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة .

قال أبو جعفر ابن جرير في هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا يضرك في دين ولا دنيا ، يعني بذلك الآلهة والأصنام ، يقول لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها فانها لا تنفع ولا تضر . فان فعلت ذلك فدعوتها من دون الله (فانك إذاً من الظالمين) يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه [1] .

قلت : وهذه الآية لها نظائر كقوله (٢٦ : ٢١٣ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين) وقوله « ٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو » ففي هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها

---

(١) فالظلم في هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه (٣١ : ١٣ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) بل هو أظلم الظلم كما في الحديث عن ابن مسعود « أظلم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك » لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه ، وصرفه للعبد الذي لا يستحقه .

١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) .

شيء لغيره . ولهذا قال (لا إله إلا هو) كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العليُّ الكبير) وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ؛ كما قال تعالى (٩٨ : ٥ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والدين : كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة . وفسره ابن جرير في تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبادة ، على عادة السلف في التفسير ؛ يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكاً لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو . كما قال تعالى (٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون) فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال .

وقوله (١٠ : ١٠٧ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله) [1] فإنه المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل ما سواه . فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، المعبود وحده ؛ فان العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع . ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله

---

(١) في قرة العيون : هذا في حق المستغيث أخبر الله تعالى أنه هو الذي يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه . فهو المعطي والمانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس . ، وفيه « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك » فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم ، والشرك الذي لا يغفر ، وانهم قد أثبتوا ما نفته « لا إله الا الله » من الشرك في الالهية ؛ ونفوا ما أثبته من الاخلاص كما قال تعالى (٣٩ : ٢ فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص) والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه ، ونهى عنه وحرمه . واعظم ما أمر به التوحيد والاخلاص ؛ وأن لا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته ، وأرسل بذلك رسله . وأنزل به كتبه (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأعظم ما نهى عنه : الشرك به في ربوبيته وإلهيته .

وقوله (٢٩ : ١٧ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) .

بضرٍّ هل هنّ كاشفات ضُرّه ؟ أو أرادني برحمة ، هل هنّ ممسكات رحمته قل حسبي الله . عليه يتوكل المتوكلون) وقال (٣٥ : ٢ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمْسكَ لها ، وما يمسك فلا مُرْسِل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فهذا ما أخبرَ به الله تعالى في كتابه من تفرده بالالهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك . فاعتقد عُبّاد القبور والمشاهد نقيضَ ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره ، بسؤالهم والالتجاء اليهم بالرغبة والرهبة والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى . واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين (ما نعبدهم إلا ليقربونا الله الى زلفى) (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فان أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم الى الله . وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وماملك .

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك . فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً في الرغبات والرهبات (سبحان الله عما يشركون) .

وقوله (وهو الغفور الرحيم) أي لمن تاب اليه .

قال (وقوله تعالى « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون ») يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق منه وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص . وقوله (واعبدوه) من عطف العام على الخاص ، فان ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى (فابتغوا) أي فاطلبوا (عند الله الرزق) أي لا عند غيره . لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئا من ذلك (واعبدوه) أي أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له (واشكروا له) أي على ما أنعم عليكم (اليه ترجعون) أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله .

وقوله (٤٦ : ٥ ومَنْ أضلُّ ممن يدعو مِن دون الله مَنْ لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) .

قال (وقوله «٤٦ : ٥ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ وإذ حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين») .

نفى سبحانه أن يكون أحد أضلّ ممن يدعو غيره . وأخبر أنه لا يستجيب له ما طَلَب منه الى يوم القيامة . والآية تعم كل من يُدْعَى من دون الله ، كما قال تعالى (١٧ : ٥٦ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله [1] .

---

(١) في قرة العيون : وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب ، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله الا الخيبة والخسران . ثم قال تعالى (وهم عن دعائهم غافلون) كما قال في آية يونس (١٠ : ٢٨ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ؛ فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ٢٨ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين) ثم قال (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ، فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الانكار ؛ وقد صار المدعو للداعي عدواً ؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله (وكانوا بعبادتهم كافرين) فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعي له في غاية الضلال .

وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما عم وطم ، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولا عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى ؛ وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان ؛ لكن القلوب انصرفت الى ما زين لها الشيطان ، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم الى توحيد الله جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى ، كما قال تعالى (٥١ : ٥٢ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الله إلا قالوا ساحر أو مجنون ٥٣ أتواصوا به بل هم قوم طاغون) ويشبه هذه الآية في المعنى (٣٥ : ١٣ ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ١٤ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به؛ فتدبر هذه الآيات وما في معناها كقوله (٧٢ : ١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحد) (٧٢ ٢٠ قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً) وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى .

(٦ وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين) .

قال أبو جعفر بن جرير في قوله (واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يقول تعالى ذكره : واذا جُمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هـــذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء . لأنهم يتبرأون منهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم ولا شعرنا بعبادتها إيانا . تبرأنا اليك منهم يا ربنا ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء . أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولـــكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) .

قال ابن جرير (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) من الملائكـــة والانس والجن [١] وساق بسنده عن مجاهد قال : عيسى وعزير والملائكة .

ثم قال : يقال تعالى ذكره [٢] قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف اليك هؤلاء المشركون (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) نواليهم (أنت ولينا من دونهم) انتهى .

قلت : وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومَن بعدهم من العلماء : في السؤال والطلب . كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغةً الدعاء ، وقد قال تعالى (٣٥ : ١٣ ، ١٤ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير — الآيتين) وقال (٦ : ٦٣ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفية) وقال (١٠ : ١٢ وإذا مَسَّ الانسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقال (٤١ : ٥١ وإذا مسّه الشرّ فذو دعاء عريض) وقال (٤١ : ٤٩ لا يسأم الانسان من دعـــاء الخير) الآية . وقال (٨ : ٩ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية .

---

(١) سياق ابن جرير هكذا ؛ يقول تعالى ذكره : ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والانس والجن .

(٢) أي عند تفسير قوله تعالى (قالوا سبحانك — إلى قوله — وكانوا قوماً بوراً) .

وفي حديث أنس مرفوعاً « الدعاء مُخُّ العبادة » وفي الحديث الصحيح « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة » وفي آخر « من لم يسأل الله يغضب عليه » وحديث « ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه . وقوله « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض » رواه الحاكم وصححه . وقوله « سلوا الله كل شيء حتى الشسع اذا انقطع » الحديث . وقال ابن عباس رضي الله عنهما « أفضل العبادة الدعاء » وقرأ (٤٠ : ٦٠ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) الآية . رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وحديث « اللهم اني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان . الحديث » وحديث « اللهم اني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب ، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفا وخلفا .

وأما ما تقدم من كلام شيخ الاسلام ، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان : دعاء مسئلة ودعاء عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر . فذلك باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالباً في المعنى . فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار . وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به ، كما في الفاتحة وبين السجدتين وفي التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود . فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد .

ومما يبين هذا المقام ويزيده إيضاحاً . قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة . قالوا : كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول مرة « يا الله » ومرة « يا رحمن » فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية . ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أيّ اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى ، إما « الله » وإما « الرحمن » فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازم

وقوله (٢٧ : ٦٢ أمّنْ يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ،ويجعلهم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟)

المعنى في الآية . وليس هو عين المراد . بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطّرد في القرآن . وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء .

ثم قال : اذا عرف هذا فقوله (أُدْعُوا ربكم تضرعاً وخُفية) يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر باخفائه . قال الحسن « بين دعاء السر ودون العلانية سبعون ضعفا . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم » . وقوله تعالى (٢ : ١٨٦ واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) يتناول نوعي الدعاء . وبكل منهما فسرت الآية قيل : أعطيه اذا سألني ، وقيل : أثيبه اذا عبدني ؛ وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً . وهذا يأتي في مسألة الصلاة وانها نقلت عن مسماها في اللغة وصارت حقيقة شرعية ، واستعملت في هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينهما وبين المسمى اللغوي وهي باقية على الوضع اللغوي ، وضم اليها أركان وشرائط . فعلى ما قررناه لا حاجة الى شيء من ذلك ، فان المصلي من أول صلاته الى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو في الحالين داع . اه ملخصاً من البدائع .

قال (وقوله « ٢٧ : ٦٢ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون) بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده [1] فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه . ولهذا قال (أإله مع الله ؟) يعني يفعل ذلك . فاذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه

---

(١) في قرة العيون : وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم كما قال تعالى (٣٠ : ٦٥ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ؛ فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له اذا وقعوا في شدة .

ويكشف السوء وحده . وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتها من قوله (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) ولاحقتها الى قوله (أمّنْ يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه : من قَصْر العبادة جميعها عليه ، كما في فاتحة الكتاب (إياك نعبد وإياك نستعين) .

قال أبو جعفر بن جرير : قوله (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ـــ إلى قوله ـــ قليلا ما تذكرون) يقول تعالى ذكره : أم ما تشركون بالله خير ، أم الذي يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه ؟ وقوله (ويجعلكم خلفاء الأرض) يقول : يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم ، وقوله (أإله مع الله) أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟ وقوله (قليلا ما تذكرون) يقول تذكراً قليلا من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون ، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً . فلذلك أشركوا بالله غيره في عبادته . اهـ

قوله (وروى الطبراني « أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين. فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : انه لا يستغاث بي ، وانما يستغاث بالله »).

الطبراني : هو الامام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائي وإسحاق بن ابراهيم الديري وخلق كثير . مات سنة ستين وثلثمائة . روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : إنه لا يُستغاث بي ، وإنما يُستغاث بالله »

فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العامّ على الخاص .

الثانية : تفسير قوله (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا ، مع كونه كفراً .

قوله (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين) لم أقف على اسم هذا المنافق .

قلت : هو عبد الله بن أبيّ كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته .

قوله (فقال بعضهم) أي الصحابة رضي الله عنهم ؛ هو أبو بكر رضي الله عنه .

قوله (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه [1] .

قوله (إنه لا يستغاث بي ؛ وإنما يستغاث بالله) فيه النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه . كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه ، وإن كان مما يقدر عليه في حياته ، حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك

---

(١) في قرة العيون : فلعله أراد أن النبي « ص » كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق ، وفي السنة ما يدل على ذلك ، كما فعل مع ابن أبي وغيره . وقيل : ان النبي « ص » كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه « ص » عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، كنظائره مما المستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعاً مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين ، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك . وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى أنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه ؛ كما أشركوهم معه في ألوهيته وعبوديته ؛ والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها والله أعلم .

السابعة : تفسير الآية الثالثة [1]

الثامنة : إن طلبَ الرزق لا ينبغي إلا من الله ، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه.

التاسعة : تفسيرُ الآية الرابعة .

العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غيرَ الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي ، لا يدرى عنه [2] .

الثانية عشرة : ان تلك الدعوة سبب لبغض المدعو الداعي وعداوته له .

وأدباً وتواضعاً لربه ، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال فاذا كان فيما يقدر عليه ﷺ في حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أموراً لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري [3] والبرعي وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا

---

(١) يعني (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) .

(٢) يعني أن المدعو غافل عن دعاء الداعي بما هو مشغول به في قبره ، من نعيم ؛ ان كان من المؤمنين الصالحين ، كالحسين وأبيه رضي الله عنهما ، أو من عذاب اليم ، كالتجاني المشرك الخبيث وابن عربي الحاتمي أكبر الدعاة الى وحدة الوجود ؛ وابن القارض وأشباههما ممن اتخذه الناس ولياً معبوداً لعظم ما بنى عليه من القبة ؛ أو بالظنون واتباع الأهواء ؛ وهم كثير جداً ، بل أكثر أولئك الطواغيت منهم ؛ ومن أرباب الطرق الدجالين .

(٣) مثل قوله في البردة :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـــه سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيري أعظم من مدح النبي « ص » ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة رضي الله عنهم ؛ لأنهم في زعمهم لم يبلغوا من الغلو والاطراء ما بلغ البوصيري . وهذا هو الغلو الذي جر إلى الشرك والكفر برسول الله « ص » كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق هذا الغلو . وقد حذرنا الله منه في كتابه الكريم بقوله (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق(وحذرنا النبي « ص » فيما رواه البخاري ومسلم « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فأنا عبد الله ورسوله » « ص » . وانما تعظيمه « ص » وحبه باتباع سنته واقامة ملته ودفع كل ما يلصقه الجاهلون بها من الخرافات . فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والاطراء الذي أوقعهم في هذا الشرك العظيم .

ونحمد الله أن عافانا بفضله وجعلنا مؤمنين برسول الله « ص » معظمين له ومحبين بما يحبه الله ورسوله لنا على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لها باحسان . وقد عظمت المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول – الزاعمون جهلا وكذبا حبه – هذه البردة ورداً كالقرآن وأعظم من القرآن ؛ وكتبوها مجودة بماء الذهب كـ كتبوا القرآن ، وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن . فلا حول ولا قوة الا بالله .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

الخامسة عشرة : هي سبب كونه أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة [١] .

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله . ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله .

باب

قول الله تعالى (٧ : ١١٩ أيُشركون ما لا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون ١٢٠ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)

يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء الذي له الخلق والأمر وحده ، وله الملك وحده ، لا إله غيره ولا رب سواه . قال تعالى (٧ : ١٨٧ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) في مواضع من القرآن [٢] (٧٢ : ٢١ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشدا) فأعرض هؤلاء عن القرآن واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات ، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله ديناً ، والهدى ضلالا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى ، فعاندوا أهل التوحيد وبدعوا أهل التجريد ، فالله المستعان .

قوله : باب قول الله تعالى

(٧ : ١١٩ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ ١٢٠ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون) [٣] .

---

(١) في سورة (١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) .

(٢) يعني (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من المدعوين أن يجيب الداعي الا الله .

(٣) في قرة العيون : وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء —

قوله (أيشركون) أي في العبادة . قال المفسرون : في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق . والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها ؛ وبيّن أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله . وهذا وصف كل مخلوق . حتى الملائكة والأنبياء والصالحين . وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول « اللهم أنت عضدي ونصيري ، بك أحُول وبك أصول ، وبك أقاتل » وهـــذا كقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) وقوله (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ؛ إن أنا إلا نذير وبشير لقـــوم يؤمنون) وقوله (٧٢ : ٢١ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رَشداً ٢٢ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلتحَداً ٢٣ إلا بلاغا من الله ورسالاته)

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان . فإن كان نبياً أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له ، والرضاء به رباً ومعبوداً . فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب اليه بالنهي عن هذا الشرك كما قال تعالى (٢٨ : ٨٨ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ؛ كل شيء هالكٌ إلا وجهه ؛ له الحكم واليه ترجعون) وقال (١٢ : ٤٠ إن الحكم إلا لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه) فقد أمر عباده من الأنبيـــاء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده ؛ ونهاهم أن يعبدوا معه غيره . وهذا هو دينه الذي بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ؛ ورضيه لعباده ؛ وهو

=والشركاء في العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا شركاء لمن هم خلقه وعبيده . وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً ، أي لمن سألهم النصرة (ولا أنفسهم ينصرون) فاذا كان المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى .

فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين ، وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبوداً .

الدليل الثاني : أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم .

فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم .

دين الاسلام ، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام قال « يا رسول الله ، ما الاسلام ؟ قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » الحديث .

وقول الله تعالى (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير)[1] يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الاسباب التي تكون في المدعو ، وهي الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته فكيف إذا عُدمت بالكلية ؟ فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطاء والحسن وقتادة « القطمير : اللفافة التي تكون على نواة التمر » كما قال تعالى (١٦ : ٧٣ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون) و قال (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ٢٣ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله (إن تدعوهم لا يسمعوا) لأنهم ما بين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملائكة . ثم قال (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) لأن ذلك ليس لهم ؛ فان الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم ، لا استقلالاً ولا واسطة ،

---

(١) في قرة العيون : يخبر الخبير ان الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) فان من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد سواه تعالى وتقدس بل يجب اخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة ؛ وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم . ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وانهم يوم القيامة يكفرون بشركهم ، أي ينكرونه ويتبرأون من فعله معهم ؛ ذلك الدعاء شرك به ، وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا ان الميت يسمع ؛ ومع سماعه ينفع ؛ فتركوا الاسلام والايمان رأساً كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة .

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون بِشِرْكِكُم ولا يُنَبِّئك مثلُ خبير

كما تقدم بعض أدلة ذلك . وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك [١] . وقال تعالى (١٩ : ٨١ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزاً ٨٢ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله تعالى (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرأون منكم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ٦ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

قال وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير اليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى . فانه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت : والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها [٢] ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادي عابده يوم القيامة ويتبرأ منه ؛ كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون ٢٩ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين ٣٠ هنالك تبلُو كل نفس ما أسلفت ورُدّوا إلى الله مولاهم الحقّ وضل عنهم ما كانوا يفترون) أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال مجاهد (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) قال يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله .

---

(١) وتبين أنهم كانوا يدعون عباداً صالحين يتبرأون من الشرك الذي هو دعاء غير الله ويتبرأون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين وأنهم محسوبون عليهم .

(٢) يعني قالوا ذلك بلسان حالهم ، لأنهم أصروا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن وبخهم الله بأن الذي يستغاث به ويدعى لابدان يكون سميعاً بصيرا بيده الخير . والذي يدل على أنهم لم يكونوا يقولون ذلك بصريح القول : ما حكى الله من جواب قوم ابراهيم وأبيه لما سألهم (هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟) فانهم أعرضوا من الجواب الصريح عن السؤال . وقالوا (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فجوابهم هذا حيدة عن الجواب المطابق السؤال .

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة والنور والبرهان بالايمان والقبول والعمل ، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعا ، فضلا عن غيره .

قوله (وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال « شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحُدٍ وكُسرت رَباعيته . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت ٣ : ١٢٨ ليس لك من الأمر شي ») .

قوله (في الصحيح) أي الصحيحين . علقه البخاري . قال وقال حميد وثابت عن أنس . ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس . ووصله مسلم عن ثابت عن أنس . وقال ابن إسحاق في المغازي : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال « كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج وجهه . فجعل الدم يسيل على وجهه ؛ وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله الآية » .

قوله (شج النبي ﷺ) قال أبو السعادات : الشج في الرأس خاصة في الأصل ؛ وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل في غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عُتْبة بن أبي وَقّاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته العليا [١] وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شَجّه في وجهه . وأن عبد الله بن قمئة جرحه في وَجْنته ، فدخلت حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وجنته [٢] وأن مالك ابن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده . فقال له « لن تمسك النار» .

---

(١) روى ابن اسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال « فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة لما صنع برسول الله « ص » يوم أحد » .

(٢) في الطبراني من حديث أبي أمامة قال « رمى عبدالله بن قمئة رسول الله (ص) يوم أحد فشج وجهه وكسرت رباعيته فقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله (ص) وهو يمسح الدم عن وجهه : مالك أقمأك الله . فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة » .

يوم أحد وكُسرت رَباعيته ، فقال : كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨ ليس لك من الأمر شيء)

قال القرطبي : والرَّباعية بفتح الراء وتخفيف الياء — وهي كل سن بعد ثنية. قال النووي رحمه الله : وللانسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها .

قال النووي : وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالانبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب . ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم .

قال القاضي : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون . ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم انتهى .

قلت : يعني من الغلو والعبادة .

قوله (يوم أحد) هو شرقي المدينة . قال ﷺ « أحد جبل يحبنا ونحبه[1] » وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة . فأضيفت اليه .

قوله (كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم) زاد مسلم « كسروا رباعيته وأدموا وجهه » .

قوله (فانزل الله « ليس لك من الأمر شيء »)[2] قال ابن عطية : كأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ؛ فقيل له بسبب

---

(١) رواه البخاري في الصحيح عن أنس .

(٢) في قرة العيون : وقد قال تعالى (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) والآيات في هذا المعنى كثيرة ، والمقصود ان الذي له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة ، ولهذا المعنى قال لنبيه « ص » (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) فالذي ليس له من الأمر شيء وهو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله وهو الله تعالى ، فهذا دينه « ص » الذي بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم اليه كما تقدم في باب الدعاء الى شهادة أن لا إله إلا الله ، فاياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به .

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر « اللهم العن فلاناً وفلاناً » . بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) الآية .

ذلك (ليس لك من الأمر شيء) أي عواقب الأمور بيد الله ، فامض أنت لشأنك ، ودُم على الدعاء لربك .

وقال ابن إسحاق (ليس لك من الأمر شيء) في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .

قوله (وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول — إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : — « اللهم العن فلاناً وفلاناً » بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد . فأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) وفي رواية « يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام » فنزلت « ليس لك من الأمر شيء ») .

قوله (وفيه) أي في صحيح البخاري . ورواه النسائي .

قوله (عن ابن عمر) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابي جليل ، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح ، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها .

قوله (انه سمع رسول الله) هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحد .

قوله (اللهم العن فلانا وفلانا) قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله. ومن الخلق السب والدعاء. وتقدم كلام شيخ الاسلام رحمه الله.

قوله (فلانا وفلانا) يعني صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بيّنه في الرواية الآتية .

وفيه : جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة . وأن ذلك لا يضر في الصلاة .

قوله (بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده) قال أبو السعادات : أي أجاب حمده وتقبله . وقال السهيلي : مفعول « سمع » محذوف ، لأن السمع متعلق

وفي رواية « يدعو على صَفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام »

بالأقوال والأصوات دون غيرها فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع في الكلمة الايجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه : « سمع الله لمن حمده » باللام المتضمنة معنى استجاب له . ولا حذف وانما هو مضمن .

قوله (وربنا لك الحمد) في بعض روايات البخاري باسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ؛ لأنه يكون التقدير : بنا استجب ولك الحمد . فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر .

قال شيخ الاسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له . كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وكذا قال ابن القيم : وفرق بينه وبين المدح بأن الاخبار عن محاسن الغير إما أن يكون اخباراً مجرداً عن حب وإرادة ، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته. فان كان الأول فهو المدح ؛ وإن كان الثاني فهو الحمد . فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه . ولهذا كان خبراً يتضمن الانشاء بخلاف المدح ، فانه خبر مجرد . فالقائل إذا قال « الحمد لله » أو قال « ربناولك الحمد » تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى . ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد .

وفيه : التصريح بان الامام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالا : يقتصر على « سمع الله لمن حمده » .

قوله (وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام) .

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ،

فنزلت (ليس لك من الأمر شيء)
وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

فما استجيب له ﷺ فيهم بل أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم . وفي كله معنى شهادة أن لا إله إلا الله الذي له الأمر كله ، يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته .

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عبّاد القبور في الأولياء والصالحين . بل في الطواغيت من أنهم ينتفعون من دعاهم ، ويمنعون من لاذ بحماهم . فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب . وذلك عدلـــه سبحانه ، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، وبه الحول والقوة .

قوله وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه (٢٦ : ٢١٤ وأنذر عشيرتك الأقربين) قال «يا معشر قريش — أو كلمة نحوها — اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بنَ عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً . يا صفية عمة رسول الله ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً» .

قوله (وفيه) أي وفي صحيح البخاري .

قوله (عن أبي هريرة) اختلف في اسمه . وصحيح النووي أن اسمه عبد الرحمن بن صخر ، كما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال «كان اسمي في الجاهلية عبد الرحمن» وروى الدُّولابي باسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سمّاه عبد الله» وهو دَوْسِيٌّ من فضلاء الصحابة وحفاظهم ، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره [1] مات سنة سبع أو ثمان أو تســع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

---

(١) روى البخاري في أول البيوع عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبــا هريرة قال «إنكم تقولون : ان أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله «ص» ويقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله «ص» بمثل حديث أبي هريرة ؟ وان اخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وكنت ألزم رسول الله على ملء بطني ؛ فأشهد اذا غابوا ، وأحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخواني من الأنصار عمل أموالهم . وكنت امرأ مسكيناً

« قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه (وأنذِرْ عَشيرتك الأقربين) فقال يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً) . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً

قوله (قام رسول الله ﷺ) في الصحيح من رواية ابن عباس « صعد رسول الله ﷺ على الصفا »

قوله (حين أنزل عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين ») عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته . لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي كما قال تعالى (٦٦ : ٥ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) وقد أمره الله تعالى أيضا بالنذارة العامة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) (١٤ : ٤٤ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) .

قوله (يا معشر قريش) المعشر الجماعة .

قوله (أو كلمة نحوها) هو بنصب « كلمة » عطف على ما قبله .

قوله (اشتروا أنفسكم) أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . فان ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ، فان ذلك غير نافع عند رب الأرباب .

قوله (لا أغني عنكم من الله شيئاً)[1] فيه حجة على من تعلق على الأنبياء

من مساكين الصفة أعي حين ينسون وقد قال رسول الله « ص » في حديث يحدثه : انه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع اليه ثوبه إلا وعى ما أقول . فبسطت نمرة علي حتى اذا قضى رسول الله مقالته جمعتها الى صدري . فما نسيت من مقالة رسول الله « ص » تلك من شيء » .

(١) في قرة العيون : هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء بما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم ، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله ، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا باخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ما سواه . كما قال تعالى (٥ : ٧٢ انه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) والنبي « ص » في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ، وبلغهم وأعذر اليهم فأنذر قريشاً ببطونها وقبائل العرب في مواسمها ؛ وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس اليه . وأخبر أنه لا يغني من الله شيئاً إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به وسائر شرائع الاسلام وعباداته

يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً

والصالحين ، ورغب اليهم ليشفعوا له ويفعوه . أو يدفعوا عنه . فان ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى ، وأقام نبيه ﷺ بالانذار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله (٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) (١٠ : ١٨ هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فأبطل الله ذلك ونزّه نفسه عن هذا الشرك . وسيأتي تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفي صحيح البخاري « يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

قوله (يا عباس بن عبد المطلب) بنصب « بن » ويجوز في « عباس » الرفع والنصب . وكذا في قوله « يا صفية عمة رسول الله . ويا فاطمة بنت محمد »

قوله (سليني من مالي ما شئت) [1] . بيّن رسول الله ﷺ أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الايمان والعمل الصالح .

وفيه : أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا . وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ؛ فان ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد ، والاخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده ان يتقربوا اليه به ، فاذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى . وفي قصة عمه أبي طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه اليهم بالرغبات والرهبات ، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فضلا عن غيرهم — يتبين لك أنهم ليسوا على شيء (٧ : ٣٠ إنهم

---

(١) في قرة العيون : لأن هذا هو الذي يقدر عليه « ص » وما كان أمره الى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما في هذا الحديث ، ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله « ص » ويحميه ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله وقال « ص » « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى (٩ : ١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله ، فلم ينفعه حمايته النبي « ص » من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبي « ص » على الحق بدون البراءة من الشرك ، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالا في الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون الا لأهل الاخلاص خاصة ، كما قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) والآيات في هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم . وسيأتي في باب الشفاعة ان شاء الله تعالى .

فيه مسائل

الأولى : تفسير الآيتين [1] .

الثانية : قصة أُحد .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة.

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار . منها شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله . ومنها : التمثيل بالقتلى . مع أنهم بنو عمهم .

السادسة : أنزل الله عليه في ذلك (ليس لك من الأمر شيء) .

السابعة : قوله (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) فتاب عليهم فآمنوا .

تخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين ، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين ، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين . لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكاً بالله . وعبادة لغير الله ، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده ، كما قال تعالى (٥ : ١١٦ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ؛ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمته ؛ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . إنك أنت علام الغيوب ١١٧ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أنِ اعبدوا الله ربي وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم ؛ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غيْر ما أمر به وهو محض التوحيد فقال (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مُقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم ، وأن الله عز وجل المنفرد بعد

---

(١) يعني قوله تعالى (لا يستطيعون لهم نصرا) وقوله (ما يملكون من قطمير) لأنه اذا كان النبي «ص» وهو سيد ولد آدم لا يغني عن قرابته شيئاً . فغيره أولى أن يعجز عن ضر أو نفع لنفسه أو لغيره .

الثامنة : القنوت في النوازل .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشرة : لعن المعيّن في القنوت .

الحادية عشرة : قصته ﷺ لما أنزل عليه (وأنذر عشير تاك الأقربين) .

الثانية عشرة : جده ﷺ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب « لا أغني عنك من الله شيئاً » حتى قال « يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً » فاذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئا عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الانسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد وغربة الدين .

الوفاة بالاطلاع عليهم فقال (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) وصف الله سبحانه بان شهادته فوق كل شهادة وأعم اه .

قلت : ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله من توحيده الذي هو دينهم الذي اتفقوا عليه ، ودعوا الناس اليه ؛ وفارقوهم فيه إلا من آمن ؛ فكيف يقال لمن دان بدينهم ، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقّصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه ، واتبع فيه رسله عليهم السلام ، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية . وتنقّص للإلهية وسوء ظن برب العالمين ؟ .

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به ، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم « ٦ : ١٠٩ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) .

باب

قول الله تعالى (٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا : الحقَّ . وهو العليُّ الكبيرُ) .

قوله : باب (قول الله تعالى « ٣٤ : ٢٣ حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العليُّ الكبير »)[1] .

قوله (حتى اذا فزّع عن قلوبهم) أي زال الفزع عنها . قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذين فُزِّع عن قلوبهم : الملائكةُ . قالوا : وإنما فزّع عن قلوبهم من غَشْية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي

---

(١) في قرة العيون : وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة :

(الأول) أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله والذي لا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر ، فالله تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده .

(الثاني) قوله (وما لهم فيهما من شرك) أي في السموات والأرض ، أي وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض .

(الثالث) قوله (وما لهم منهم من ظهير) والظهير المعين ؛ فليس لله معين من خلقه ، بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم الى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم .

(الرابع) قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا يشفع عنده أحد الا باذنه . وأخبر تعالى ان من اتخذ شفيعاً من دونه حرم شفاعة الشفعاء ، قال تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) لأن اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى في حقهم « سبحانه وتعالى عما يشركون » والمشرك منفية الشفاعة في حقه كما قال تعالى (٧٤ : ٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال (٦ : ٩٤ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وذلك ان متخذ الشفيع لا بد أن يرغب اليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الاخلاص .

(١) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق ، وساق بسنده حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري الآتي بعد صفحة .

وقال ابن عطية : في الكلام حذف يدل عليه الظاهر . كأنه قال . ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم ، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبداً ؛ يعني منقادون ، حتى اذا فزع عن قلوبهم . والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذي لا مِرْية فيه ؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار .

وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله (حتى اذا فزع عن قلوبهم) انما هي الملائكة اذا سمعت الوحي الى جبريل بأمره الله به سمعت كَجَرِّ سلسلة الحديد على الصَّفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة. قال : وبهذا المعنى — مِنْ ذِكْر الملائكة في صدر الآية — تتّسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار اليهم من أول قوله (الذين زعمتم) لم تتصل له هذه الآية بما قبلها [1] .

قوله (قالوا ماذا قال ربكم ؟) ولم يقولوا ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا : ماذا خلق ؟ . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

ومثله الحديث « ماذا قال ربنا يا جبريل » وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير

قوله (قالوا الحق) أي قال الله الحق . وذلك لأنهم اذا سمعوا كلام الله صعقوا ثم اذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

قوله (وهو العلي الكبير) علو القدر وعلو القهر وعلو الذات . فله العلو الكامل من جميع الوجوه ، كما قال عبد الله بن المبارك — لـمّا قيل له: بما نعرف ربنا ؟ قال « بأنه على عرشه بائن من خلقه » تمسكا منه بالقرآن لقوله تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) (٢٥ : ٥٩ ثم استوى على

= وقد قال البخاري في تفسير سورة الحجر عن علي بن عبدالله . قلت لسفيان . ان انسانا روى عنك عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة أنه قرأ « فرغ » بضم الفاء والراء المثقلة المهملة وبالغين المعجمة فقال سفيان : هكذا قرأ عمرو ويعني ابن دينار . فلا أدري سمعه هكذا أم لا ؟ قال الحافظ ؛ وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد . والقراءة المشهورة بالزين والعين المهملة . وقرأها ابن عامر مبنياً للفاعل . ومعناه بالزاي والعين المهملة : أدهش الفزع عنهم . ومعنى التي بالراء والغين المعجمة : ذهب عن قلوبهم ما حل فيها .

(١) قال أبو حيان : ولهذا اضطرب المفسرون في تفسيرها .

العرش الرحمن) في سبعة مواضع من القرآن (٧ : ٥٣ و ١٤ : ٢ و ٣٢ : ٤ و ٥٧ : ٤) .

قوله (الكبير) أي الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى .

قوله (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « اذا قضَى الله الأمر في السماء ضربَت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صَفوان ؛ ينْفُذهم ذلك ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقّ وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسترِق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض . وصفه سفيان بكَفِّه فحرَفها وبَدّدَ بين أصابعه — فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى أن تحته . حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل من يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدقُ بتلك الكلمة التي سمعت من السماء »

قوله (في الصحيح) أي صحيح البخاري [1] .

قوله (اذا قضى الله الأمر في السماء) أي اذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه الى جبريل بما أراده ؛ كما صرح به في الحديث الآتي ، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود « اذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صَلْصَلة كَجَرِّ السلسلة على الصفوان » .

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما أوحى الجبار الى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي . فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله . فقالوا : الحق . وعلموا أن الله لا يقول إلا حقا » .

---

(١) رواه في تفسير قوله « إلا من استرق السمع » من سورة الحجر ، وفي تفسير سورة سبأ وغير هذين الموضعين . حدثنا علي بن عبدالله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة . ورواه مسلم وأبو داود نحو هذا .

ضَرَبت الملائكةُ بأجنحتها خَضَعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان يَنفُذُهم ذلك ، حتى إذا فُزِّع عَن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحقَّ ، وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مُسترق السمع — ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض — وصَفَه سفيان بكفه ، فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه — فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته .

قوله (ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله) أي لقول الله تعالى . قال الحافظ : خضعاناً بفتحتين من الخضوع . وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه. وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله (كأنه سلسلة على صفوان) أي كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان وهو الحجر الأملس .

قوله (ينفذهم ذلك) هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة « ذلك » أي القول . والضمير في « ينفذهم » للملائكة . أي ينفذ ذلك القولُ الملائكة أي يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه . وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس « فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا» وعند أبي داود وغيره مرفوعا « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل » الحديث .

قوله (حتى اذا فزع عن قلوبهم) تقدم معناه .

قوله (قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أي قالوا : قال الله الحقّ ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق .

قوله (فيسمعها مسترق السمع) أي يسمع الكلمة التي قضاها الله . وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً . وفي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعا « إن الملائكة تنزل في العنان — وهو السحاب — فتذكر الأمر قُضِيَ في السماء . فتسترق الشياطين السمع ؛ فتوحيه الى الكهّان » .

قوله (ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه) أي وصف ركوب بعضهم فوق بعض .

وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي . ثقة حافظ . فقيه ، إمام حجة ، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة .

ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فقال :

قوله (فحرّفها) بحاء مهملة وراء مشددة وفاء . قوله (وبَدّدَ) أي فرق بين أصابعه .

قوله (فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته) أي يسمع الفوقاني الكلمة فيلقيها إلى آخر تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن .

قوله (فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها) الشهاب هو النجم الذي يرمى به ؛ أي ربما أدرك الشهابُ المسترقَ . وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره — والسياق له في المسند من طريق معمر — : أنبأنا الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال « كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه — قال عبد الرزاق : من الأنصار — قال : فرمي بنجم عظيم ، فاستنار ، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قال : كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت ؛ قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ؛ ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ قال : فأنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ؛ ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا . ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش . فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ،وتخْطفُ الجنُّ السمعَ فيرمون ؛ فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقْرِفون فيه ويزيدون »[1] . قال عبد الله : قال أبي : قال عبد الرزاق « ويخطف الجن ويرمون » وفي رواية له « لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون » .

قوله (فيكذب معها مائة كذبة) أي الكاهن أو الساحر .

و « كذبة » بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس ومعقل بن عبدالله ، أربعتهم عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار .

أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء » (١)

وعن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله تعالى أنْ يوحي بالأمر تكلم الوحي .

قوله (فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟) هكذا في نسخة بخط المصنف ، وكالذي في صحيح البخاري سواء .

قال المصنف (وفيه قبول النفوس للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟) .

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله . فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى (٢ :٤٢٠ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة . وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً . خلافاً للأشاعرة والجهمية ، ونُفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله (وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رَجْفَةٌ — أو قال رعدة — شديدة خوفا من الله عز وجل . فاذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرُّوا لله سجّداً فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريلُ . فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل . فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عــز

---

(١) يعني أن قول الكاهن والساحر والعراف قد يصادف بعض الواقع ؛ فيغتر الجاهلون المخرفون بذلك ؛ ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كــذبه الذي لا يعــد وهو مبني على افتراء الكذب على الله ودعوى معرفة الغيب الذي لا يعلمه إلا الله . وسيأتي بيانه في باب الكهان .

وجل » [1]) .

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره .

النواس بن سمعان ، بكسر السين ، بن خالد الكلابي ، ويقال : الأنصاري صحابي . ويقال : إن أباه صحابي أيضاً .

قوله (إذا أراد الله أن يوحي بالأمر) إلى آخره . فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي . وهذا من حجة أهل السنة على النفاة : لم يزل الله متكلما إذاشاء

قوله (أخذت السموات منه رجفة) السموات مفعول مقدم ، والفاعل « رجفة » أي أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أي ارتجفت . وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى ، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة . قال « إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال وخرت الملائكة كلهم سجداً » .

قوله (أو قال رعدة شديدة) شك من الراوي . هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما .

---

(١) في قرة العيون : قوله « أن يوحي بالأمر » فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله « اذا قضى الله الأمر » قوله « تكلم بالوحي » فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوحيه الى جبريل عليه السلام ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم ان القرآن عبارة عن كلام الله .
قوله « أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل » في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو . قوله « فاذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً » هيبة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس قوله « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل » لأنه ملك الوحي عليه السلام . قوله « فيكلمه الله من وحيه بما أراد » فيه التصريح بأنه تعالى يوحي الى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث ، قوله « ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها » وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى وتقدس . قوله « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول (قال الحق وهو العلي الكبير) فيقولون كلهم مثلَ ما قال جبريل ؛ فينتهي جبريل بالوحي الى حيث أمره الله عز وجل » وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول ، وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتابه وأثبته رسوله « ص » في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته .

خوفا من الله عز وجل . فاذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخروا سُجداً ، فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العليُّ الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل .

قوله (خوفا من الله عز وجل) وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله . بما يجعل تعالى فيها من الاحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى (١٧ : ٤٤ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنه كان حليما غفورا) وقال تعالى (١٩ : ٩٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وقال تعالى (٢ : ٧٤ وإن منها لما يهبط من خشية الله) وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلا بهذه الآيات وما في معناها .

وفي البخاري عن ابن مسعود قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » وفي حديث أبي ذر « أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات ؛ فسُمع لهن تسبيح — الحديث » وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير .

قوله (صُعقوا وخروا لله سجداً) الصعوق هو الغشي ؛ ومعه السجود .

قوله (فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل) بنصب « أول » خبر يكون مقدم على اسمها . ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبد الله ؛ كما روى ابن جرير وغيره عن علي بن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل عُبيد الله ؛ وإسرافيل عبد الرحمن . وكل شيء رجع إلى « ايل » فهو مُعبّد لله عز وجل . وفيه فضيلة جبريل عليه السلام . كما قال تعالى (٨١ : ١٩ إنه لقول رسول كريم ٢٠ ذي قوة عند ذي العرش مكين ٢١ مطاع ثم أمين) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم . وقال

فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل » .

أبو صالح في الآية [1] « جبريل يدخل في سبعين حجابا من نور بغير إذن » .

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ؛ كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » فاذا كان هذا عظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجلّ وأكبر . فكيف يسوّى به غيره في العبادة : دعاء وخوفا ورجاء وتوكلا وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى ، وقد قال تعالى (٢٢ : ٢٦ بل عباد مكرمون ٢٧ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٢٨ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ٢٩ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه به جهنم ؛ كذلك نجـزي الظالمين) .

قوله (ثم ينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السمـاء والأرض) وهذا تمام الحديث .

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فان الملك العظيم الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفا منه ومهابة ، وترجف منه المخلوقات ؛ الكامل في ذاته وصفاته ؛ وعلمه وقدرته وملكه وعزه ؛ وغناه عن جميع خلقه ؛ وافتقارهم جميعاً اليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته ، لا يجوز شرعا ولا عقلا ان يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم ، فكيف يجعل المربوب ربا ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبت عقول المشركين ؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى (١٩ : ٩٣ إنْ كلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ٩٤)من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

---

(١) أي في قوله (ذي قوة عند ذي العرش مكين) كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقـد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلّق على الصالحين ، وهي الآية التي قيل انها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة : تفسير قوله (قالوا الحق وهو العلي الكبير) .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة - أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله « قال كذا وكذا » .

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل .

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم ، لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الغَشْي يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السموات بكلام الله .

العاشرة : أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضا .

الثالثة عشرة : إرسال الشهاب .

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها في أذن وليّه من الانس قبل أن يدركه .

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان .

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء .

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة ؟

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها .

العشرون : إثبات الصفات ، خلافا للأشعرية المعطلة .

الحادية والعشرون : أن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله عز وجل .

الثانية والعشرون : أنهم يخرّون لله سُجدا .

باب الشفاعة [1]

وقول الله عز وجل (٦ : ٥١ وأنذِر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) وقوله (٣٩ : ٤٤ قل لله الشفاعةُ جميعا)

قوله (باب الشفاعة) أي بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

قوله (وقول الله عز وجل ٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا) المخافة والتحذير منها .

قوله (به) قال ابن عباس « بالقرآن »(الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) «وهم المؤمنون » وعن الفُضَيل بن عِياض « ليس كلٌّ خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون ؛ فقال : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية » .

---

(١) في قرة العيون : الشفاعة نوعان . شفاعة منفية في القرآن ؛ وهي الشفاعة الكافر والمشرك قال تعالى (٢ : ٢٥٤ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (٧٤ : ٤٨ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وقال (٢ : ٤٨ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) ونحو هذه الآيات كقوله (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله انه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك وما لا يعلمه لا وجود له فنفى وقوع الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٣٩ : ٣ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً بزعم أنه يقربه الى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته . لأنه جعل لله شريكاً يرغب اليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم .

« النوع الثاني » الشفاعة التي أثبتها القرآن وهي خالصة لأهل الاخلاص ؛ وقيدها تعالى بأمرين الاول : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وإذنه تعالى لا يصدر الا اذا رحم عبده الموحد المذنب ؛ فاذا رحمه الله تعالى أذن للشافع ان يشفع له .

الأمر الثاني : رضاه عمن أذن لشافع أن يشفع فيه . كما قال تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » فالاذن بالشفاعة له بعد الرضاء ؛ كما في هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد .

قوله (ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع) قال الزجاج موضع « ليس » نصب على الحال ، كأنه قال : متخلّين من كل وليّ وشفيع . والعامل فيه « يخافون » .

قوله (لعلهم يتقون) أي فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة [1] .

وقوله (٣٩ : ٤٤ قل لله الشفاعة جميعا [2]) وقبلها (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؛ قل أوَلَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟) وهذه كقوله تعالى (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ؛ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع ، وأن اتخاذهم شفعاء شرك ؛ يتنزه الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى (٤٦ : ٢٨ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكُهم وما كانوا يفترون) فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتأليههم. أن ذلك منهم إفك وافتراء .

وقوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) أي هو مالكها ؛ فليس لمن تُطلب منه شيء منها ، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل مَن سواه ، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله .

قال البيضاوي : لعله ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .

وقوله تعالى : (له ملك السموات والأرض) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ، لأنه مالك الملك ، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة ، فاذا كان

---

(١) في قرة العيون : وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم لأنه ينافي الاخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملا بدونه .

(٢) في قرة العيون : دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه لانها لا تقع الا لأهل التوحيد باذنه سبحانه وتعالى كما قال تعالى في الآية السابقة ، وقال تعالى (١٠ : ٣ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم) فلا شفاعة الا لمن هي له سبحانه ، ولا تقع إلا من أذن له فيها . فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء .

وقوله (٢ : ٢٥٥ مَن ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه)

وقوله (٥٣ : ٢٦ وكم مِن مَلَكٍ في السموات لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأذن اللهُ لمن يشاء ويرضى) .

هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها [1] (٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) (٢١ ؛ ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

قال ابن جرير : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثاننا [2] هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . قال الله تعالى (له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون)

قال (وقوله ٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تُطلب من غير الله . وفي هذه الآية بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة باذنه ، كما قال تعالى (٢٠ : ١٠٩ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له الرحمن ورضي له قولا) فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع ؛ ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أُريد به وجهه ، ولقي العبد به ربه مخلصاً غير شاك في ذلك . كما دل على ذلك الحديث الصحيح . وسيأتي ذلك مقرراً أيضاً في كلام شيخ الاسلام رحمه الله .

وقوله (« ٥٣ : ٢٦ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ») قال ابن كثير رحمه الله (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء

---

(١) في قرة العيون : فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده ، والاسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالاخلاص كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله « ص » (فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الاسلام . قال : وما الاسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك الى الله ؛ وأن تصلي الصلاة المكتوبة ؛ وأن تؤدي الزكاة المفروضة) والآيات في بيان الاخلاص كثيرة ، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده . كما قال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) فأمر تعالى باخلاص الدعاء له وحده وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل . قال شيخ الاسلام : الاخلاص محبة الله وإرادة وجهه .

(٢) الأولى « ما نعبد أولياءنا » ولم أجد هذه الجملة كلها في تفسير ابن جرير .

وقوله (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ٢٣ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

ويرضى) كقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فاذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ؛ وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ؛ وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه ؟

قال (وقوله تعالى) « ٣٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك انما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فان لم يكن مالكا كان شريكا للمالك ، فان لم يكن شريكا له كان مُعيناً له وظهيراً ، فان لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً ؛ متنقلا من الأعلى الى الأدنى ؛ فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ؛ وهي الشفاعة باذنه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد ؛ وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثاً ، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن . ولعمر الله ؛ إن كان أولئك قد خلوا فقد

---

(١) في قرة العيون : فاذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله (٢١ : ٢٦ - ٢٩ بل عباد مكرمون) الآيات . فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره . وقيد حصولها بقيدين كما في هذه الآية وغيرها كما تقدم قريباً : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) والثاني : رضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين . فاختصت الشفاعة بأهل الاخلاص خاصة ، وان اتخاذ الشفعاء بلا اذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات .

ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم . وتناول القرآن لهم كتناولــه لأولئك .

ثم قال : ومن أنواعه — أي الشرك — طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم . فان الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده . فانه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا باذنه . والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببا لإذنه ؛ وانما السبب كمال التوحيد ، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الاذن ، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه . ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله الى التنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمروهم به ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم ؛ وما نجى من شَرَك هذا الشرك الاكبر إلا من جرّد توحيده لله ، وعادى المشركين في الله . وتقرب بمقتهم الى الله ، واتخذ الله وحده وليّه وإلهه ومعبوده . فجرد حبه لله وخوفه لله ، ورجاءه لله ؛ وذُلّه لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجاءه إلى الله . واستغاثته بالله ، وقصده لله ، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته ، إذا سأل سأل الله ، واذا استعان استعان بالله ، واذا عمل عمل لله . فهو لله وبالله ومع الله . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وهذا الذي ذكره هذا الامام في معنى الآية هو حقيقة دين الاسلام ، كما قال تعالى (٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا) .

قوله (قال أبو العباس) هذه كنية شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني إمام المسلمين رحمه الله .

(نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك

يكون لغيره ملك أو قسطٌ منه ، أو يكون عوناً لله . ولم يبقَ إلا الشفاعة . فبيّن أنها لا تنفعُ إلا لمن أذِنَ له الربُّ ، كما قال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التي يظنُّها المشركون هي مُنْتَفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآنُ وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجُد لربّه ويَحْمدُه» لا يبدأ بالشفاعة أولا . ثم يقال له «ارفع رأسك وقُلْ يُسمعْ وسَلْ تُعْطَ ، واشفع تشفع» .

وقال أبو هريرةَ : «من أسعدُ الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعةُ لأهل الاخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته : أنّ الله سبحانه هو الذي يتفضّل على أهل الاخلاص فيغفر لهم بواسطةِ دعاء مَنْ أذِنَ له أن يشفع ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود .

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذْنه في مواضع . وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص . اهـ كلامه .

أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله . فلم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ؛ لا يبدأ بالشفاعة أولا . ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع . وسل تُعطَه ، واشفع تشفع» . وقال له أبو هريرة «من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعة لأهل الاخلاص باذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقتها : أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الاخلاص . فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة باذنه في مواضع ، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص» انتهى) .

قوله (وقال أبو هريرة) إلى آخره . هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه «وشفاعتي لمن قال لا إله إلا الله مخلصاً . يصدق قلبُه لسانَه ، ولسانه قلبه» وشاهده في صحيح مسلم

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتجعل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » .

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الاسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات ، وهو كاف واف بتحقيق مع الايجاز . والله أعلم .

وقد عرّف الاخلاص بتعريف حسن فقال : الاخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه . اه .

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم . فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب . وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله . كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة ، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله ، كما قال في الفصل الأول (٢ : ٢٥٥ من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) وفي الفصل الثاني (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقي فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ . فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها . اه .

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع :

(الأول) الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي اليه ﷺ فيقول « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف . وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهي المقام المحمود .

الخامسة : صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة ، بل يسجد فاذا أذن له شفّع .

السادسة : مَنْ أسعدُ الناس بها .

السابعة : أنها لا تكون لمن أشركَ بالله .

الثامنة : بيان حقيقتها .

باب

قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦ إنك لا تَهدي مَن أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

(الثاني) شفاعته لأهل الجنة في دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

(الثالث) شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ؛ فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

(الرابع) شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ . وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدّعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

(الخامس) شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ؛ وهذه مما لم ينازع فيها أحد . وكلها مختصة بأهل الاخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى (٦ : ٥١ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيع) .

(السادس) شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده .

قوله : باب (قول الله تعالى « ٢٨ : ٥٦ إنك لا تَهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ») .

سبب نزول هذه الآية ، موت أبي طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى لرسوله : إنك يا محمد لا تهدي من أحببت ، أي ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغُ والله يهدي من يشاء . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٢ ليس عليك هُداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء) وقال تعالى (١٢ : ١٠٣ وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين) .

قلت : والمنفيُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول ، فان أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه . وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى (٤٢ : ٥٢ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) فانها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبيّن عن الله ، والدالُّ على دينه وشرعه .

وقوله (في الصحيح عن ابن المسيّب عن أبيه قال « لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له: يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا . فكان آخرَ ما قال هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك . فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) وأنزل الله في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) .

قوله (في الصحيح) أي في الصحيحين . وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي ، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين . اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل . وقال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .

وأبوه المسيب صحابي . بقي الى خلافة عثمان رضي الله عنه . وكذلك جده حَزْن . صحابي استُشْهِدَ باليمامة .

جاءه رسول الله ﷺ ، وعنده عبدُ الله بن أبي أميّة وأبو جهل . فقال له : يا عمّ قُلْ لا إله إلا الله ، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله . فقالا له : أترغبُ عن مِلّةِ عبد المطلب ؟

قوله (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي علاماتها ومقدماتها .

قوله (جاء رسول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين . فانهما من بني مخزوم ، وهو أيضاً مخزومي ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارا ، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران .

قوله (يا عمّ) منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها ، حذفت الياء هنا ، وبقيت الكسرة دليلا عليها .

قوله (قل لا إله إلا الله) أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده ، فان من قالها عن علم ويقين فقد بريء من الشرك والمشركين ودخل في الاسلام . لأنهم يعلمون ما دلت عليه ، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر . فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبريء منه . ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها ، لكن لا يعتقدونها . لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب ؛ فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن ؛ وفيها اليهود ؛ وقد أقرّهم رسول الله ﷺ لما هاجر ، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور في كتب الحديث والسير .

قوله (كلمة) قال القرطبي : بالنصب على أنه بدل من « لا إله إلا الله » ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قوله (أحاجّ لك بها عند الله) هو بتشديد الجيم من المحاجة . والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال . وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم . لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والاثبات لنفعته .

قوله (فقالا له : أترغبُ عن ملة عبد المطلب) ذكّراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى (٢٠ : ٥١ فما بالُ القرون الأُولى ؟) وكقوله تعالى (٤٣ : ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في

قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقْتدون)

قوله (فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا) [1] فيه معرفتهما لمعنى « لا إله إلا الله » لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرىء من ملة عبد المطلب . فان ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته . وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبْرَهَة « أنا ربُّ الابل . والبيت له رب يمنعه منك » وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه « قل لا إله إلا الله » استكباراً عن العمل بمدلولها . كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين (٣٧ : ٣٥ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ٣٦ ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فرد عليهم بقوله (٣٧ : ٣٧ بل جاء بالحق وصدق المرسلين) فبين تعالى أن استكبارهم عن قول « لا إله إلا الله » لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله . فان دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن ، ودلالتها عليه وعلى الاخلاص دلالة مطابقة .

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الاسلام ليبين لعباده أن ذلك اليه . وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبي ﷺ — الذي هو أفضل خلقه — من هداية القلوب وتفريج الكروب ؛ ومغفرة الذنوب ؛ والنجاة من العذاب . ونحو ذلك شيء ؛ لكان أحقّ الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بَهَرتْ حكمتُه العقول : وأرشد العباد إلى ما يدلُّهم على معرفته وتوحيده ، وإخلاص العمل له وتجريده .

قوله (فكان آخر ما قال) الأحسن فيه الرفع على أنه اسم « كان » وجملة « هو » وما بعدها الخبر .

قوله (هو على ملة عبد المطلب) الظاهر أن أبا طالب قال « أنا » فغيره الراوي استقباحاً للفظ المذكور . وهو من التصرفات الحسنة ؛ قاله الحافظ .

(١) في قرة العيون : فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم . ففيه معنى قول الناظم :

اذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الاية. وأنزل الله في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) [١]

قوله (وأبى أن يقول لا إله إلا الله) قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب .

قال المصنف رحمه الله (وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ومضرة أصحاب السوء على الانسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف) .

أي إذا زاد على المشروع ، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع اليها عند التنازع

قوله (فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) قال النووي : وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبي طالب .

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل .

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوما .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

---

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى في القلب وتحويله من الضلال والكفر والفسوق الى الهدى والايمان والطاعة ، وتسديده على صراط الله المستقيم وتثبيته عليه ، وهذه مختصة بالله تعالى ، لأنه هو الذي يقلب القلوب ويصرفها ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء . ومن يهدي الله فما له من مضل . ومن يضلل فما له من هاد . وهي المنفية في الآية عن النبي « ص » وعن غيره من باب أولى. فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم ، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم ما فيها ويصرفها على ما يريد – فهو كاذب ضال مضل . ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله ؛ وتطلق على العلم والدلالة والارشاد بالقرآن ونحوه على طريق النجاة والسعادة ، وهذه يقدر عليها المخلوق وهي المثبتة للنبي « ص » في قوله تعالى (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) .

وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الى صراط الله المستقيم . وأكثر الناس لا يميز الفرق بين الهدايتين . فبعضهم يعتدي على الحدود وبعضهم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . محتجاً بالآية (انك لا تهدي من أحببت. الخ) وهذا وذاك جهل وضلال .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير (إنكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ولكنَّ الله يهدِي من يشاء)

الثانية : تفسير قوله (ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولَوْ كانوا أولي قُرْبَى من بعد ما تبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم) .

الثالثة : هي المسألة الكبيرة ، تفسير قوله « قل لا إله إلا الله » بخلاف ما عليه مَنْ يدَّعي العلم [1] .

قوله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى – الآية) أي ما ينبغي لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهي ، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب . فان الاتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله « فأنزل الله » بعد قوله « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسبابا أخر . فلا منافاة . لأن أسباب النزول قد تتعدد .

قال الحافظ : أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب . وأما نزو الآية التي قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد آن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة ، وهي عامة في حقه وحق غيره؛ ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير [2] ، فأنزل الله بعد ذلك (ما كان للنبي والذين آمنوا أن

---

(١) كثير من أدعياء العلم يجهلون « لا إله إلا الله » فيحكمون على كل من تلفظ بها بالاسلام ولو كان مجاهرا بالكفر الصراح ، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى « لا إله إلا الله » البراءة من عبادة غير الله ؛ واعطاء العهد والميثاق بالقيام باداء حق الله في العبادة ، يدل على ذلك قول الله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) وقد شهد النبي « ص » للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا اله الا الله . ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال « لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد » كما في الصحيحين . ولو كان مجرد التلفظ بلا اله الا الله كافياً ؛ ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول « ص » وبين المشركين الذين كانو يفهمون (لا إله إلا الله) أكثر مما يفهمها أدعياء العلم في هذا الزمن . ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون .

(٢) ساق البخاري قصة موت أبي طالب في كتاب الجنائز في الباب الحادي والثمانين . ولم يتكلم عليه الحافظ في الفتح ، بل حوله الى التفسير . وساقه في تفسير سورة براءة فحول الحافظ تفصيل القول فيه الى سورة القصص .

الرابعة : أن أبا جَهْل ومَنْ معه يعرفون مراد النبيّ ﷺ إذ قال للرجل « قل لا إله إلا الله » فَقَبَّحَ الله مَنْ أبو جَهل أعلَمُ منه بأصل الاسلام .

الخامسة : جِدُّه ﷺ ومُبالغته في إسلام عمه .

السادسة : الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

السابعة : كونه ﷺ استغفر له فلم يُغْفَر له ، بل نُهِيَ عن ذلك .

الثامنة : مَضَرَّة أصحاب السوء على الانسان .

التاسعة : مَضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر .

العاشرة : استدلال الجاهلية بذلك .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم لأنه او قالها لنفعته .

الثانية عشرة : التأملُ في كِبَر هذه الشبهة في قلوب الضالين لأنَّ في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها . مع مبالغته ﷺ وتكريره . فلأجلِ عَظَمتها ووُضوحها عندهم اقتصروا عليها .

باب

(ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)

وقول الله عز وجل (٤ : ١٧١ يا أهلَ الكتاب لا تَغْلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) .

يستغفروا للمشركين – الآية) . ونزل في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت) كله ظاهر في أنه مات على غير الاسلام . ويُضَعِّف ما ذكره السُّهَيلي أنه روى في بعض كتب المسعودي أنه أسلم ، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح . انتهى .

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى .

قوله (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)

قوله (تركهم) بالجر عطفاً على المضاف اليه . وأراد المصنف رحمه الله تعالى بيان ما يؤول اليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الالهية الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به ؛ وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الاخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله (وقول الله عز وجل) (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) الغلو هو الافراط في التعظيم بالقول والاعتقاد. أي لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله . والخطاب – وإن كان لأهل الكتاب – فانه عام يتناول جميع الأمة . تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى ، واليهود في العزير [1] كما قال تعالى (٥٧ : ١٦ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) ولهذا قال النبي ﷺ « لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » ويأتي .

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً ، وضاهأ النصارى في شركهم ، وضاهأ اليهود في تفريطهم . فان النصارى غلوا في عيسى عليه السلام ، واليهود عادوه وسبّوه وتنقصوه . فالنصارى أفرطوا ؛ واليهود فرطوا . وقال تعالى (٥ : ٥٧ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام) ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى .

---

(١) في قرة العيون : وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظما ونثراً كما في كلام البوصيري والبرعي وغيرهما ؛ وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسوله « ص » ؛ فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي « ص » (أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا) فكره ذلك « ص » أشد الكراهة ؟ كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث ان شاء الله تعالى ، وقول القائل « ما شاء الله وشئت » فقال « أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده »

في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى (٧١ : ٢٣ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سواعا ، ولا يغوثَ ويعوق ونَسْراً) قال « هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قَوْمِ نُوحٍ .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : ومن تشبه من هذه الأمه باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم . قال : وعلي رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خُدّت لهم عند باب كندة [1] فقذفهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق . وهو قول أكثر العلماء .

قوله (في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى « ٧١ : ٢٣ وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تذرُنّ وَدّاً ولا سُواعا ولا يغوث ويَعوق ونَسْرا » قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أنِ انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ؛ ولم تُعبد ؛ حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت) قوله (وفي الصحيح) أي صحيح البخاري .

وهذا الأثر اختصره المصنف . ولفظ ما في البخاري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعدُ . أما « وَدٌّ » فكانت لكلب بدَومة الجندل . وأما « سُواع » فكانت لهذيل . وأما « يغوث » فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجُرف عند سبأ . وأما « يعوق » فكانت لهمدان . وأما « نسر » فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاع : أسماء رجال صالحين في قوم نوح — إلى آخره » .

وروى عكرمة والضحاك وابن اسحاق نحو هذا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن خميد قال حدثنا مهران عن سفيان عن موسى

---

(١) باب من ابواب الكوفة . الثلاة المحرقون : هم عبد الله بن سبأ اليهودي وأتباعه . قالوا ان علياً إلههم ، فنهاهم فلم ينتهوا فحرقهم . وانما أراد ابن سبأ بذلك احداث فتنة، وخلق شيع ؛ وفتح ثغرة في صفوف المسلمين . وقد حدث ما أراد هذا اليهودي الملعون . ووجد في الناس كثير من أطاعه وأله علياً وأبناءه وكفر بالله ورسوله وعادى علياً والمؤمنين . ولا حول ولا قوة الا بالله .

فلمّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم : أنْ انْصبِوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسونَ فيها أنْصاباً .

عن محمد بن قيس « أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة ؛ فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر . فعبدوهم » .

قوله (أن انصبوا) هو بكسر الصاد المهملة .

قوله (أنصابا) جمع نُصب . والمراد به هنا الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً ؛ أو صورة أو غير ذلك [1] .

---

(١) في قرة العيون : فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلماً الى عبادتها. وكل ما عبد من دون الله ، من قبر أو مشهد ، أو صنم ، أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو . كما لا يخفى على ذوي البصائر . كما جرى لأهل مصر وغيرهم ، فان أعظم آلهتهم أحمد البدوي وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة . ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف الا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل . ذكره السخاوي عن أبي حيان . فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون ؛ ويطفىء الحريق وينجي الغريق ، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب ، وكانوا يعتقدون انه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة . وفيهم من يسجد على عتبة حضرته . وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني ؛ كما يعتقد أهل مصر في البدوي . وعبد القادر من متأخري الحنابلة وله كتاب الغنية ، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة أفضل منه في العلم والزهد ، لكن فيه زهد وعبادة ، وفتنوا به أعظم فتنة . كما جرى من الرافضة مع أهل البيت .

وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به .

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره ، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا ؛ وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى ، كعبادتهم الجن وطلبهم الشفاعة منهم . والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان .

وسمّوها بأسمائهم . ففعلوا ، لم تُعبد . حتى إذا هلك أولئك ونُسيَ العلم عبدت » .

قوله (حتى إذا هلك أولئك) أي الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله (ونُسي العلم) ورواية البخاري « وينسخ » وللكشميهني « ونسخ العلم » أي درست آثاره بذهاب العلماء . وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ، فوقعوا في الشرك ظنا منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله (عبدت) لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر . هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم في الحقيقة . كما قال تعالى (٣٦ : ٦٠ ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ٦١ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ٦٢ ولقد أضل منكم جبلاً كثيرا ، أفلم تكونوا تعقلون ؟) وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وان كان القصد بها حسناً . فان الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والافراط في محبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك ؛ من عبادتهم لهم من دون الله [1] وفي رواية « أنهم قالوا : ما عظّم أوّلنا هؤلاء إلا وهم يرجون

= وذكر أهل السير ان التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال « لبيك لا شريك لك » فقال الشيخ : « إلا شريكا هو لك » . فأنكر ذلك عمرو وقال ما هذا ؟ فقال الشيخ : « تملكه وما ملك » . فانه لا بأس بهذا . فقالها عمرو . فدانت بها العرب .

(١) وما جر الى هذا الغلو الذي أدى الى عبادتهم من دون الله الا تعظيم قبورهم ؛ وبناء القباب عليها ، وسترها بالأستار ، وايقاد السرج ، وقيام السدنة وشياطين الانس عندها لدعوة الناس الى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال . والا فكم من عباد صالحين من الصحابة وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صدق في الاسلام مدفونون في مقابر مصر والشام وغيرهما ؛ هم أفضل آلاف المرات من أمثال البدوي والدسوقي ؛ بل نعالهم أشرف وأكرم من هذا البدوي وأضرابه — لا يعرفهم أولئك المشركون . لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان . ولذلك كان الذي يزعم أنه يزور للموعظة وتذكر الدار الآخرة ، تلك القبور التي نصبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدى الاسلام الذي لا يعرف تلك القباب وانما يعرف القبور التي لا يبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بالأستار الحرير وغيرها فانه من أمحل المحال الاتعاظ بهذه الأوثان والأنصاب ، ومن أعظم الجهل أن =

وقال ابن القيم ، قال غير واحد من السلف « لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم »

شفاعتهم عند الله » أي يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم . ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم : شرك بالله . كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات .

قوله (وقال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم . ثم صوروا تماثيلهم. ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم).

قوله (وقال ابن القيم رحمه الله) هو الامام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوي : العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان ، المجمع عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

قوله (وقال غير واحد من السلف) هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك بل هو الشرك . لأن العكوف لله في المساجد عبادة . فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيما ومحبة : عبادة لها .

قوله (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أي طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل اليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم ، ونصب صورهم في مجالسهم ، فصارت بذلك أوثانا تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى . فانهم تركوا بذلك دين الاسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث في الأرض .

قال القرطبي : وإنما صوّر أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أفعالهم

=تسمى هذه قبوراً تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التي وصفها رسول الله « ص » وأمر بها . فنسألك اللهم أن تعجل بهدم هذه الأوثان وتطهير الأرض منها كلها تحقيقاً لما أمر به نبيك« ص » وبعث علي به بن أبي طالب إلى اليمن صيانة التوحيد من قذر الشرك الذي أعظم أسبابه هذه القبور .

الصالحة . فيجتهدوا كاجتهادهم . ويعبدو الله عند قبورهم . ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها اهـ .

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحي إلى عُبَّاد القبور ويُلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين . وأن الدعاء عندها مستجاب . ثم ينقلهم من هذه المرتبة الى الدعاء بها ، والاقسام على الله بها ، فان شأن الله أعظم من أن يُقْسَم عليه أو يسأل بأحد من خلقه .

فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ؛ وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبّل ، ويحج اليه ويذبح عنده ، فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه الى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد عُلم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فاذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه الى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية وحطهم عن منزلتهم ؛ وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ؛ وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفّروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم . وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله . ويأبى الله ذلك (٨ : ٣٤ وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون) . اهـ كلام ابن القيم رحمه الله .

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله [١]

ومنها : رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات : ويدفعون بها ما جاء به

---

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنقص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة . فاكتفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار .

الكتاب والسنة من توحيد الصفات ، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .

ومنها : مضرة التقليد .

ومنها : ضرورة الأمة الى ما جاء به الرسول ﷺ علماً وعملا بما يدل عليه الكتاب والسنة فان ضرورة العبد الى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله (وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تطروني كما

---

(١) حيث أن النبي أخبر – وهو الصادق – أن بعض هذه الأمة يتبع سنن أهل الكتاب في اتباع الهوى والقول على الله بلا علم وابتداع دين لم يشرعه الله . فقد وقع ما نهى عنه النبي « ص » فان كثيراً من ينتسب الى الاسلام يطري النبي غاية الاطراء فيعتقد فيه أنه يعلم الغيب وانه لا يخفى عليه شيء . في الأرض ولا في السماء . وقد نفى الله عنه ذلك في القرآن فقال (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ؛ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) (قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) فكفروا به واعتقدوا ما أوحته اليهم الشياطين . وكثير منهم يعتقدون انه يتصرف في الدنيا بعد موته ويزور من شاء في المشارق والمغارب . وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التيجاني أن زعم أن النبي « ص » يحضر مجلس مكائه وتصديته ومجالس كل من اتبعه في طريقه الضال ، فصار هؤلاء الزائغون اذا جلسوا للغط واللغو الذي يسمونه صلاة الفاتح ، ويزعمون بوقاحتهم وفجورهم أن المرة الواحدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة . وينشرون ثوبا أبيض في وسط حلقتهم ليجلس عليه النبي والخلفاء ، وانما زعم الدجال التيجاني هذا تموها على أشباه الأنعام العامة ليتبعوه على دجله وباطله ويريهم أنه أتى بما لم يسبق اليه . وصدق فانه لم يسبق الى هذه الوقاحة في الكفر فنعوذ بالله من عمي القلوب ، وشرع ما لم يأذن به الله . بل تكاد السموات يتفطرن منه . وبعضهم يعتقد أن النبي « ص » يزوره ويشرع له من الدين ما يخالف شرعه الذي أتمه الله وأكمله وارتضاه ديناً قبل موته « ص » ادعى ذلك الشعراني في كتاب العهود المحمدية . وزعم أن شيخه الخواص كان لا يفارق النبي « ص » طرفة عين وهذا كله كذب وبهتان . فكم وقع بين الصحابة مع الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها النبي « ص » ليرجعهم فيها الى الصواب الذي يطفيء الفتنة . لو أمكن ظهوره . ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وبعضهم يعتقد أن السموات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبي ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيانا ؛ فاذا سمع أهل الغرور هذه الخرافة أفنوا أعمارهم في الخلوات يهمهمون ويزمزمون ، وأنفقوا أموالهم كلها على الدجالين المشعوذين الذين أغووهم كل ذلك طمعاً في المحال أن يروا النبي عياناً مالئاً السماء والأرض وما بينهما ؛ وقد انجر بنا الكلام الى ذكر شيء من باطلهم تحذيراً ان لم يقع في حبائلهم وإنذاراً لمن

ابن مريم إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله » أخرجاه .

أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبد ؛ فقولوا عبد الله ورسوله » أخرجاه(

قوله (عن عمر) هو ابن الخطاب بن نفيل – بنون وفاء مصغراً – العدوي أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم . ولي الخلافة عشر سنين ونصفا ، فامتلأت الدنيا عدلا ، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستُشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه .

قوله (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم) [1] الاطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه . قاله أبو السعادات . وقال غيره : أي لا تمدحوني بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد في مدحي .

قوله (إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الالهية . وانما أنا عبد الله ورسوله . فصفوني بذلك كما وصفني ربي . فقولوا عبد الله ورسوله . فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه ، وعظَّموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة . وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم ، ووقعوا في المحذور ؛ وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده ؛ وصنفوا فيه مصنفات .

وقد ذكر شيخ الاسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه [2] أنه جوّز الاستغاثة

حوائج ؛ وهذا نزر يسير مما نعرفه عنهم وهو مسطور في كتبهم وأساطيرهم المطبوعة المنشورة ، وليعلم الناظر في هذا اني كنت على عقيدتهم الخبيثة سنين.فأنقذني الله منها على يد بعض المصلحين فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة فلاحت لي أنوار شمس السنة ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

(١) في قرة العيون : كما قال تعالى (٤ : ١٧١ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) قوله « انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » أمرهم « ص » أن لا يتجاوزوا هذا القول . وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه ، لأن أشرف مقامات الأنبياء ؛ العبودية الخاصة والرسالة

(٢) هو علي بن يعقوب بن جبريل البكري المتوفي يوم الاثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤هـ والرد عليه اسمه تلخيص كتاب الاستغاثة طبع بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ على نفقة جلالة امام الموحدين ناصر السنة وقامع البدعة ، الملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود ، أيده الله بنصره وأطال حياته المباركة في خدمة الاسلام ؛ ووفق ولي عهده المعظم صاحب السمو الملكي الامير الأجل سعود الى مثل ما يقوم به والده العظيم من نشر راية الاسلام واعلاء كلمته ، بطبع الكتب النافعة ، واقامة حدود الله .

بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله ، وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الاسلام ، ورده موجود بحمد الله . ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله . وذكر لهم أشياء من هذا النمط . نعوذ بالله من عمى البصيرة

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـــه   سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجــاء والاعتماد في أضيق الحالات . وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والاخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون . أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي . وفرطوا في متابعته . فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له . وانما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتباع سنته . والدعوة إلى دينه الذي دعا اليه ونصرته ؛ وموالاة من عمل به . ومعاداة من خالفه . فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علما وعملا . وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله . فالله المستعان .

قوله (وقال رسول الله ﷺ « إياكم والغلو . فانما أهلك من كان قبلكم الغلو)

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه . وقد رواه الامام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس .

[1] وهذا لفظ رواية أحمد : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ غَداة جَمْعٍ : « هَلُمَّ الْقُطْ لي . فلقطتُ له حَصيات هُنَّ حَصَى الخَذْف . فلما وضعهن في يده قال : نعم بأمثال هؤلاء فارموا . واياكم والغلو في الدين . فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين » .

(١) ورواه أيضاً الإمام أحمد وأبو داود ، وانما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى .

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً .

فيه مسائل :

الأولى : أن مَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

الثانية : معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم .

الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ، فالأول محبة الصالحين ، والثاني فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية التي في سورة نوح .

قال شيخ الإسلام : هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار ، وهو داخل فيه ، مثل الرمي بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار . ثم علله بما يقتضي مجانبة هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك .

قوله (ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « هلك المتنطعون » قالها ثلاثا) .

قال الخطابي : المتنطع المتعمق في الشيء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

ومن التنطع : الامتناع من المباح مطلقا ، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن لبس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أن هذا من الزهد المستحب ، قال الشيخ تقي الدين : فهذا جاهل ضال . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال الغزالي : والمتنطعون في البحث والاستقصاء

السابعة جبلة الآدمي [1] في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر

التاسعة . معرفة الشيطان بما تؤول اليه البدعة ، ولو حسن قصد الفاعل .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما تؤول اليه

الحادية عشرة : مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها .

الثالثة عشرة : معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة اليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة : وهي أعجب وأعجب قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون في الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوقهم . مأخوذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل في كل متعمق قولا وفعلا .

وقال النووي : فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله (قالها ثلاثا) أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات ، مبالغة في التعليم والابلاغ ، فقد بلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(1) الجبلة بكسرتين فلام مشددة وكجشبة أيضا الخلقة والطبيعة ، والمعنى أن الإنسان مجبول على نقصان الحق في قلبه وزيادة الباطل إلا من رحم الله وأنزل في قلوبهم السكينة فان إيمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص

التاسعة عشرة . التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم . ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده .

العشرون : أن سبب فقد العلم موت العلماء .

باب

(ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟)

في الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها

قوله : باب (ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح . فكيف إذا عبده ؟) .

أي الرجل الصالح ، فان عبادته هي الشرك الأكبر . وعبادة الله عنده وسيلة الى عبادته ، ووسائل الشرك محرمة . لأنها تؤدي الى الشرك الأكبر وهو أعظم الذنوب .

قوله (في الصحيح «عن عائشة رضي الله عنها أن أمُّ سَلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة [1] وما فيها من الصور . فقال : ولئكِ اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ؛ بنوا على قبره مسجداً . وصوروا فيه تلك الصور . أولئكِ شرار الخلق عند الله» فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل) .

قوله (في الصحيح) أي الصحيحين .

قوله (أن أم سلمة) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع . وقيل : ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة الى الحبشة [2] ماتت سنة اثنتين وستين .

---

(١) لأن دين الحبشة : النصرانية . وقد أسلم النجاشي وجماعة من أهلها لما هاجر اليها جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين : الهجرة الأولى .

(٢) ثم عادت مع زوجها أبي سلمة الى مكة ، وهاجر أبو سلمة الى المدينة ، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة ؛ ثم لحقت بزوجها في المدينة ؛ وتوفي أبو سلمة رضي الله عنه سنة أربع من الهجرة .

بأرض الحبشة وما فيها من الصوَر ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله »[1]

قوله (ذكرت لرسول الله) وفي الصحيحين « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ » و « الكنسية » بفتح الكاف وكسر النون : مَعبَد النصارى .

قوله (أولئك) بكسر الكاف ، خطاب للمرأة .

قوله (اذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) هذا — والله أعلم — شك من بعض رواة الحديث : هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا ؟ ففيه التحري في الرواية . وجواز الرواية بالمعنى .

قوله (وصوروا فيه تلك الصور) الاشارة الى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة .

قوله (أولئك شرار الخلق عند الله) وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي .

قال البيضاوي : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي ﷺ .

قال القرطبي : وانما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أعمالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ؛ ويعبدوا الله عند قبورهم ؛ ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك ، سداً للذريعة المؤدية

---

(١) انما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا وسنوا لمن بعدهم الغلو في القبور وأهلها المفضي بالغالين الى عبادتها وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة التي سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مثلهم ، وفي مثل هؤلاء ورد الحديث الذي في الصحيح « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وقال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية .

الى ذلك [1] .

قوله (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل) هذا من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل فان فتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور لأنها هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فان النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك . فان الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب الى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها . حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا ، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها . لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس ، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سداً للذريعة . وأما اذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادّة لله ولرسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله ، فان المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ : أن الصلاة عند القبور منهي عنها ، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد . فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها واتخاذها

---

(١) في قرة العيون : ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة الى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته فبذلك صاروا شرار الخلق . فانظر الى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا ، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها ومع ذلك يعتقدونه ديناً وهو الشرك الذي حرمه الله ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، بالنهي عنه .

ولهما عنها قالت : لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتمّ بها كشفها فقال — وهو كذلك — لعنة الله على اليهود

مساجد . وبناء المساجد عليها . وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك . وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم ، إحساناً للظن بالعلماء . وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه . اه كلامه رحمه الله تعالى .

قوله (ولهما عنها — أي عن عائشة رضي الله عنها — قالت : « لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه . فاذا اغتمّ بها كشفها فقال — وهو كذلك — : لعن الله اليهود والنصارى . اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا . ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خَشي أن يتخذ مسجداً » [1] أخرجاه) .

قوله (ولهما) أي البخاري ومسلم. وهو يغني عن قولهفي آخره« أخرجاه».

قوله (لما نزل) هو بضم النون وكسر الزاي . أي نزل بـه ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام .

قوله (طفق) بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح . وبه جاء القرآن . ومعناه جعل .

قوله (خميصة) بفتح المعجمة والصاد المهملة . كساء له أعلام .

قوله (فاذا اغتم بها كشفها) أي عن وجهه .

قوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [2] يبين أن

---

(١) نزل : بضم النون وكسر الزاي أي نزل به علامات الوفاة وخاف على أمته أن يتخذوا قبره مسجداً ويغلوا فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك ، جزاه الله خير الجزاء .

(٢) هذا هو الشاهد للترجمة . لأن النبي « ص » لعنهم على تحري الصلاة عندها وإن كان المصلي انما يصلي لله . فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون ، لأنه ذريعة الى عبادتها ؛ فكيف اذا عبد المقبور فيها بأنواع العبادة ؛ وسأله ما لا قدرة له عليه . وهذا هو=

والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد — يُحَذِّر ما صنعوا — ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خَشِي أن يُتخذ مسجداً » أخرجاه .

من فعل مثل ذلك حلّ عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى .

قوله (يحذر ما صنعوا) الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم ؛ فانه من الغلو في الأنبياء ؛ ومن أعظم الوسائل الى الشرك . ومن غربة الاسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه — تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته — قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة ، واعتقدوه قربة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله .

قال القرطبي في معنى الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية الى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام . انتهى .

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال (١٢ : ٢٨ واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) نكرةٌ في سياق النفي تعم كل شرك .

قوله (ولولا ذلك (أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع .

قوله (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا) روى بفتح الخاء وضمها ، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه . وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة . فلم يبرزوا قبره ، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيما بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله .

=الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة اليها . وليست اللعنة خاصة باليهود والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم ، وانما هي لأعمالهم ، وكذلك من فعل فعلهم فمن فعل ما هو أعظم من فعلهم أولى باللعن ، وانما أراد « ص » تحذير أمته أن يتعرضوا لما تعرض لـه اليهود والنصارى من اللعنة ، ولذلك قالت عائشة « يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره » .

ولمسلم عن جُنْدُبَ بن عبدالله قال : سمعتُ النبي ﷺ قَبْلَ أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول « إني أبْرأ إلى الله أن يكونَ لي منكم خليلٌ فان الله قد

قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدوا المداخل اليها ، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ ؛ ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة اذا كان مستقبل المصلين . فتُصور الصلاة اليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يمكنوا أحد من استقبال قبره[1] انتهى[2].

قوله (ولمسلم عن جُندب بن عبدالله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول « إني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل . فان الله قد اتخذني خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك ») .

قوله (عن جندب بن عبدالله) أي ابن سفيان البَجَلي ، وينسب إلى جده ، صحابي مشهور . مات بعد الستين .

قوله (أني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل) أي امتنع عما لا يجوز لي أن أفعله . والخلّة فوق المحبة . والخليل هو المحبوب غاية الحب ، مشتق من الخلة – بفتح الخاء – وهي تخلل المودة في القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

---

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لا صقا بالجدار الذي فيه باب جبريل ولكن قد أزيل هذا الوضع وأخل حول القبر من جهاته الأربع ، وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون في الموضع الخاص بالأغوات ، وفي المكان الخاص بالنساء ، وأصبح عرضة لأن يطاف به . وقد رأيت كثيراً من العامة يطوفون به ؛ ويحاولون التمسح به لولا منع الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع . ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم ؛ فلن يمكنهم ولا أي قوة أن تمنع هذا منعاً باتاً ، اللهم إلا العلم الذي ينير قلوب الجمهور الاسلامي ويعرفهم حقيقة محبة النبي ﷺ وانها انما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه رضي الله عنهم يفعلون ، وهم أشد الناس حباً لله ولرسوله . وأن يعود الناس الى الأمر الأول الذي كان عليه السلف الصالح في كل شئونهم ، فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة . والله يهدي الناس الى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

(٢) وقد ذكر الشارح بعد هذا بعض ما ذكر المصنف من المسائل المستنبطة من حديث الباب حذفناها لعدم التكرار .

اتّخذني خليلاً . كما اتخذ ابراهيم خليلاً . ولو كنت مُتّخِذاً من أمتي خليلا لاتّخذت أبا بكر خليلا »

هذا هو الصحيح في معناها . كما ذكره شيخ الاسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قال القرطبي : وانما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خُلّة غيره .

قوله (فان الله قد اتخذني خليلا) فيه بيان أن الخلة فوق المحبة .

قال ابن القيم رحمه الله : وأما ما يظنه بعض الغالطين من ان المحبة أكمل من الخلة ، وأن أبراهيم خليل الله ؛ ومحمد حبيب الله — فمن جهلهم ، فان المحبة عامة ، والخلة خاصة وهي نهاية المحبة . وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه ؛ مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم . وأيضاً فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ؛ وخلته خاصة بالخليلين .

قوله (ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا) فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور . وهم أول من بنى عليها المساجد . قاله المصنف رحمه الله ، وهو كما قال بلا ريب [1] .

وفيه إشارة الى خلافة أبي بكر ، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره . وقد استخلفه على الصلاة بالناس . وغضب ﷺ لما قيل

---

(١) فان اول من فعل ذلك العبيديون الذين زعموا كذبا أنهم فاطميون . شيدوا للحسين رضي الله عنه وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم — قبراً بالقاهرة ؛ ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذي بالقاهرة ، يقام فيه من الأعمال الشركية ما يغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من في قلبه حب الله ورسوله والايمان الصحيح . وقد صنف كثير من العلماء السالفين في بيان كذب أولئك العبيدين وبيان نحلتهم الكافرة الفاجرة ، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويبطنون الكفر . وممن كتب في ذلك الامام أبو بكر الباقلاني في كتاب نفيس سماه كشف الاسرار وهتك الاستار ؛ والامام ابن الجوزي وغيرهم . انظر في ذلك البداية والنهاية للعماد بن كثير في حوادث سنة ٤٠٢ (ج ١١ ص ٢٤٩) .

ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » .

فقد نهى عنه في آخر حياته .

ثم لعن وهو في السياق مَن فعله.والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد

يصلي بهم عمر [1] وذلك في مرضه الذي توفى فيه ﷺ .

واسم أبي بكر : عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة باجماع من يعتد بقوله من أهل العلم . مات في جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة ، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه .

قوله (ألا) حرف استفتاح (ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم مساجد ـ الحديث) قال الخلخالي : وانكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين : احدهما أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما .

الثاني : أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الانبياء والتوجه اليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك الى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء . والأول هو الشرك الجلي . والثاني الخفي ، فلذلك استحقوا اللعن .

قوله (فقد نهى عنه في آخر حياته) اي كما في حديث جندب . وهذا من كلام شيخ الاسلام . وكذا ما بعده .

قوله (ثم إنه لعن ، وهو في السياق [2] مَن فعله) كما في حديث عائشة ؛

قلت : فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ، ويصلى عندها واليها ؟ هذا أعظم مشاقّة ومحادّة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون .

قوله (الصلاة عندها من ذلك ، وان لم يبن مسجد) أي من اتخاذها مساجد الملعون فاعله .

---

(١) الذي قال ذلك وعرضه : عائشة رضي الله عنها كما في الصحيح البخاري : قالت « ان أبا بكر رجل أسيف ، لا يملك نفسه اذا صلى . فمر عمر يصلي بالناس . فقال النبي « ص »« أنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

(٢) أي في سياق الموت ؛ أصله « سواق » قلبت الواو ياء لكسر السين ، كأن روحه تساق لتخرج من البدن ، وسياق وسواق مصدر ان من ساق يسوق .

وهو معنى قولها « خشي أن يتخذ مسجداً » فان الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً . وكل موضع قُصد الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً ، بل كل موضع

وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور واليها .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعا « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم رحمه الله : وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده ، جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته – صيغة « لا تفعلوا » وصيغة « اني أنهاكم عن ذلك » – ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه . وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ؛ ولم يخش ربه ومولاه . وقلّ نصيبه أو عدم من « لا إله إلا الله » فان هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه ؛ فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه ؛ وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين . وكلما كنتم لها أشد تعظيما وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد . ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان على عبّاد يعوق ويغوث ونسر ؛ ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا الى يوم القيامة ؛ فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم ؛ فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الالهية عنهم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وممن علل بخوف الفتنة بالشرك : الامام الشافعي ، وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقدسي . وشيخ الاسلام وغيرهم رحمهم الله . وهو الحق الذي لا ريب فيه .

قوله (فان الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا) أي لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه النهي عنه ، ولعن من فعله .

قوله (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً) أي وان لم يبن مسجد ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعني وإن لم يقصد بذلك . كما اذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت

يُصلّى فيه يسمى مسجداً كما قال ﷺ وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً
ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا

الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

قوله (كما قال ﷺ « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً[1] ») أي فسمى الأرض مسجداً ، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها ، كالمقبرة ونحوها .

قال البغوي في شرح السنة : أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم ؛ فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً ، ثم خص من جميع المواضع : الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى

قوله (ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعا « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه[2]) .

قوله (إن من شرار الناس) بكسر الشين جمع شرير .

قوله (من تدركهم الساعة وهم أحياء) أي مقدماتها ، كخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه ، وفيه زيادة « فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته » .

(٢) في قرة العيون : (قلت) وقد وقع هذا في الأمة كثيراً كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي « ص » كما لا يخفى على ذوي البصائر . وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور (منها) أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله (ومنها) انهم يعتقدون أن آلهتهم من الاموات يتصرفون في الكون دون الله . وجمعوا بين نوعي الشرك في الالهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة ، ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : ان عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع ، نزعم انه يعلم الغيب وهو ميت فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله في كتابه كقوله (٣٥ : ١٤ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله في كتابه بل بالغوا وعاندوا في رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان .

«إن من شِرار الناس مَن تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبو حاتم في صحيحه .

فيه مسائل :

الاولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهي عن التماثيل وغِلظ الأمر في ذلك .

قوله (والذين يتخذون القبور مساجد) معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل . أي وان من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها واليها ، وبناء المساجد عليها ، وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك . تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى . فما رفع أكثرهم بذلك رأسا ؛ بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة لله تعالى، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته . والعجب أن أكثر من يدعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغّبوا في فعله ؛ فلقد اشتدت غربة الاسلام وعاد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ؛ نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

قال شيخ الاسلام : أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه ، متابعة للأحاديث الصحيحة . وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه . قال : ولا ريب في القطع بتحريمه ؛ ثم ذكر الأحاديث في ذلك (الى أن قال) وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين ، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره . هذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم رحمه الله : يجب هدم القباب التي بنيت على القبور ، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية ، منهم ابن الجميزي والظهير الترميني وغيرهما .

وقال القاضي ابن كج : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

الثالثة : العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك . كيف بيّن لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس ، قال ما قال ، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم .

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم .

السادسة : لعنه إياهم على ذلك .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

الثامنة : العلة في عدم إبراز قبره .

وقال الأذرعي : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وانفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب في تحريمه .

وقال القرطبي في حديث جابر رضي الله عنه « نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه » وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والجص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف عليه .

وقال الزيلعي في شرح الكنز : ويكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضي خان : أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه . لما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وللبناء فوق القبر . والمراد بالكراهة — عند الحنفية رحمهم الله — كراهة التحريم . وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز .

وقال الشافعي رحمه الله : أكره أن يعظم مخلوق ، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مرده بالكراهة كراهة التحريم .

قال الشارح رحمه الله تعالى : وجزم النووي رحمه الله في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقاً . وذكر في شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغني ، والكافي وغيرهما رحمه الله تعالى : ولا يجوز اتخاذ المساجد

التاسعة : في معنى اتخاذها مسجداً .

العاشرة : أنه قرن بين من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

الحادية عشرة : ذكره في خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور وهم أول من بنى عليها المساجد .

على القبور . لأن النبي ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى » الحديث ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها ، انتهى [1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة ، انقلبت تربتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا ، لعموم الاسم وعموم العلة ، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بني عليه مسجد ، فلا يصلي في هذا المسجد سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب ؛ لأن النبي ﷺ قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ، واتخاذها مساجد أشد ، وكذلك إن لم يكن عليه بني مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها ، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال ﷺ « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » وإن كان موضع قبر أو قبرين .

---

(١) وقد صرح ابن حجر الهيتمي المكي في كتابه الكبائر : أن بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنص الصريح ، وإن الواجب على ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدأوا بقبة الإمام الشافعي .

الثانية عشرة : ما بُلي به ﷺ من شدة الفزع .
الثالثة عشرة : ما أكرم به من الخلة .
الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .
الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة .
السادسة عشرة : الاشارة إلى خلافته .

وقال بعض أصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق ، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر .

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال : « لا أصلي في حمام ولا عند قبر » .

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولا لحريم القبر وفنائه ؛ ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة ؛ سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفا .

قال في رواية الاثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلي فيه على الجنائز ولا يصلي فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبي مَرْثَد عن النبي ﷺ « لا تصلوا على القبور [1] » وقال : إسناده جيد ، انتهى .

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق . فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي اليه ذلك : من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد وغيّروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد . فقال بعضهم : النهي عن البناء على القبور يختص المقبرة المسبلة ، والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه : منها : أنه من القول على الله بلا علم . وهو حرام بنص الكتاب .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

باب

(ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله)

ومنها : أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله ، ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة ، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة . وهذا باطل قطعاً وعقلا وشرعا ، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر في البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل . فان النبي (ص) بلغ البلاغ المبين ، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد ، فاذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد انما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء في بعض النصوص ما يَعُم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم ، فاذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، عُلم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

قوله : (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله) .

(روى مالك في الموطأ أنّ رسول الله ﷺ قال « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [1] .

---

(١) في قرة العيون : وذلك أنه « ص » خاف أن يقع في أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وكذلك رغب « ص » الى ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى ، وتقدم في حديث عائشة رضي الله عنها « ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً » وقد استجاب الله دعوة نبيه « ص » وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران .

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مَساجد»

هذا الحديث رواه مالك مرسلا عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار : أن رسول الله ﷺ قال — الحديث » . ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ، ولم يذكر عطاء . ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعا .

وله شاهد عند الامام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه « اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قوله (روى مالك في الموطأ) هو الامام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الاصبحي ، أبو عبدالله المدني . إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث ، حتى قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ؛ مات سنة تسع وسبعين ومائة . وكان مولده سنة ثلاث وتسعين . وقيل أربع وتسعين . وقال الواقدي : بلغ تسعين سنة .

قوله (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

فأجاب رب العالمين دعاءه — وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه — في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل اليه . ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها ، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير . تجري على الناس يتخذونها سنة ، إذا غُيِّرت قيل : غيرت السنة » انتهى .

ولخوف الفتنة نهى عن عمر تتبع آثار النبي ﷺ .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : « أمر عمر بن الخطاب —

رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ »[1] فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة .

وقال المعرور بن سُويد : « صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكــة صلاة الصبح . ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب . فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه ، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونهــا كنائس وبِيَعاً . فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصلّ . ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بُكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال « لما فتحنا تُستَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية . فأنا أول رجل قرأه من العرب : قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتم بالرجل ؟ قــال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنُعمّيه على الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما كان تغيّر منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شُعيرات من قفاه ، إنّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض »[2] .

---

(١) كان ذلك في صلح الحديبية . وهي الشجرة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفتح (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ؛ وذلك حين أشاع الناس أن عثمان ابن عفان قتلته قريش حين بعثه النبي « ص » سفيراً بينه وبين قريش ، فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا رسول الله الناس الى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت ،.وكان المبايعون ألفا وأربعمائة ، ثم أتى رسولَ الله أن الذي كان من أمر عثمان باطل . والقصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازي .

(٢) ذكرها الطبري (ج ٤ ص ٢٢٠) في حوادث سنة ١٧ قال : قيل لأبي سبرة هــذا جسد دانيال في هذه المدينة . قال وما لنا بذلك ؟ فأقره بأيديهم – ثم ذكر خبر دانيال وسبي بختنصر له من بيت المقدس وموته بالسوس ؛ فكان هنالك يستسقي بجسده ، فلما فتحها المسلمون=

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يُفتتن به ؛ ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ؛ ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ؛ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها — ولم يستحب الشارع قصدها — فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها ، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعا ولا عيناً ، إلا أن ذلك قد قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها ويسلم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى ؛ كما جاءت به السنة . وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره ؛ فهذا هو المنهي عنه انتهى ملخصاً .

قوله (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فيه تحريم البناء على القبور ، وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر . وفي القِرى للطبري [1] من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبي ﷺ وعلل ذلك بقوله ﷺ « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » الحديث كره إضافة هذا اللفظ الى القبر ، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سداً للذريعة

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم

= أتوا به فأقروه في أيديهم ، حتى إذا ولي أبو سبرة عنهم الى جندي سابور اقام ابو موسى بالسوس وكتب الى عمر فيه . الخ القصة . وقد ذكرها أبوعبيد في الأموال ص ٣٤٣ رقم ٨٧٦ عن قتادة قال « لما فتحت السوس وعليهم أبوموسى الأشعري وجدوا دانيال في أبرن ، واذا الى جانبه مال موضوع وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه الى أجل ، فان أتى به الى ذلك الأجل وإلا برص . فكتب اليه عمر : كفنه وحنطه وصل عليه ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم وانظر ماله فاجعله في بيت مال المسلمين ، قال فكفنه في قباطي بيض وصلى عليه ودفنه » وقال البلاذري ص ٣٧١ « ورأى أبو موسى في قلعتهم بيتاً وعليه ستر فسأل عنه فقيل : ان فيه جثة دانيال النبي ، فانهم كانوا اذا قحطوا ، فسألوا أهل بابل دفعه اليهم ليستسقوا به فعلوا ، وكان بختنصر سبى دانيال وأتى به الى بابل فقبض بها . فكتب أبو موسى بذلك الى عمر ، فكتب اليه عمر أن كفنه وادفنه . فسكر أبو موسى نهراً حتى اذا انقطع دفنه ثم أجرى الماء عليه »

(١) كتاب « القرى لقاصد أم القرى » تأليف المحب الطبري .

ولابن جرير بسنده عن سفيان بن منصور عن مجاهد « (أفرأيتم اللات والعزى) قال : كان يلُتّ لهم السويق [1] فمات فعكفوا على قبره » وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس « كان يلت السويق للحاج » .

الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفا عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ — إلى أن قال — وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول « زرت قبر النبي (ص) » لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيـارة البدعية ، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه ، والرغبة اليه في قضاء الحوائج ؛ ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ؛ فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا . وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه،فان ذلك مما أمر الله به.أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى . ألا ترى إلى قوله « فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » مع زيارته لقبر أمه . فان هذا يتناول قبور الكفار . فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به ، ونحو ذلك ممـا يفعله أهل الشرك والبدع ؛ بخلاف ما إذا كان المزور معظما في الدين كالأنبياء والصالحين ؛ فانه كثيراً ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية؛ فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا ، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة . اهـ

وفيه : أن النبي (ص) لم يستعذ الا مما يخاف وقوعه . ذكره المصنف رحمه الله تعالى .

(ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد « أفرأيتم الـلات والعزى » قال كان يلُتّ لهم السويق ، فمات فعكفوا على قبره ، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان يلت السويق للحاج ») .

قوله (ولابن جرير) هو الامام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن جزيمة : لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً . ولـه

---

(1) السويق دقيق الحنطة أو الشعير ؛ ولته بله بالماء أو السمن ، والحاج بمعنى الحجاج .

أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .

قوله (عن سفيان) الظاهر : أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبدالله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً ؛ وله أتباع يتفقهون على مذهبه . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله (عن منصور) هو ابن المعتمر بن عبدالله السلمي ثقة ثبت فقيه . مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله (عن مجاهد) هو ابن جبر – بالجيم والموحدة– أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ، ثقة إمام في التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم . مات سنة أربع ومائة ؛ قاله يحيي القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد ، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه .

قوله (كان يلت السويق لهم فمات فعكفوا على قبره) في رواية « فيطعم من يمرّ من الناس . فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللاتّ » رواه سعيد بن منصور .

ومناسبته للترجمة : أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين .

قوله (وكذا قال أبو الجوزاء) هو أوس بن عبدالله الربعي ، بفتح الراء والباء ، مات سنة ثلاث وثمانين .

قال البخاري : حدثنا مسلم وهو ابن ابراهيم . حدثنا أبو الأشهب [1] حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال « كان اللات رجلا يلت سويق الحجاج »

قال ابن خزيمة : وكذا العزّى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزّى ولا عزّى لكم » .

---

(١) أبو الأشهب هو جعفر بن حيان التيمي السعدي العطاردي الحذاء الأعمى. مات سنة١٦٥ .

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لَعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن) .

قلت : وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت . فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذي وصححه [1] . وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال « لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور » .

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانيء ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم [2] . قال علي بن المديني ، عن يحيي القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانيء . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله بن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه . انتهى من الذهب الابريز عن الحافظ المزي .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين : فعن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور » وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هذا ليس رجال هذا . فلم يأخذه

---

(1) أخرجه الترمذي من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة « أن رسول الله « ص » لعن زوارات القبور » وقال هذا حسن صحيح . وأخرجه ابن حبان في صحيحه . قال الترمذي : وفي الباب عن عائشة وحسان بن ثابت . وحديث حسان بن ثابت رواه الامام أحمد في مسنده أيضاً وروى ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو حديث فاطمة بنت رسول الله « ص » في عزائها أهل ميت في ميتهم ، فقال لها « لعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر . قال : لو بلغت الكدى معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » .

(2) وأبو صالح اسمه باذام ، أو باذان . وقد صرح في هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس ؛ ثم قد حسن الترمذي هذا الحديث وان كان الحافظ المنذري قد تعقبه عليه . وقال الحافظ ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود في باب الكراهية اتخاذ القبور مساجد ، وفي صحيح أبي حاتم عن أبي صالح عن ابن عباس قال « لعن رسول الله (ص) زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » قال أبو حاتم : أبو صالح هذا اسمه مهران ثقة . وليس بصاحب الكلبي . ذاك اسمه باذام . وقال الاشبيلي : هو باذام صاحب الكلبي . وهو عندهم ضعيف جداً . وكان شيخنا أبو الحجاج المزي يرجح هذا أيضا .

أحدهما عن الآخر . وليس في الاسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي . فانه جعل الحسن اذا تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذاً . أي مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات ، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف .

والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روي عن عائشة رضي الله عنها انها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : « لو شهدتك ما زرتك » وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال . إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته سواء شهدته أم لا .

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبدالله بن أبي مُليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبدالله بن أبي مليكة أيضاً « أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنين ؛ أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم نهى عن زيارة القبور . ثم أمر بزيارتها » .

فأجاب شيخ الاسلام رحمه الله عن هذا وقال : ولا حجة في حديث عائشة فان المحتج عليها احتج بالنهي العام ، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة . يبين ذلك قولها « قد أمر بزيارتها » فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضي الاستحباب ، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة . ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها « لما زرتك » واللعن صريح في التحريم . والخطاب بالاذن في قوله « فزوروها » لم يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء ، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه ، وهو المعروف عند أصحابه ، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص ؟ إذ قد يكون قوله « لعن الله زوارات القبور » بعد إذنه للرجال في الزيارة . يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج . ومعلوم

أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر .

والصحيح : أن النساء لم يدخلن في الاذن في زيارة القبور لعدة أوجه :

أحدها : أن قوله ﷺ « فزوروها » صيغة تذكير . وانما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب . لكن هذا فيه قولان ، قيل : انه يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل . وقيل أنه يحتمل على ذلك عند الاطلاق . وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف ، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء . ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن الزيارة للقبور . وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور .

ومنها : أن النبي ﷺ علل الاذن للرجال بأن ذلك « يذكر الموت ، ويرقق القلب ، وتدمع العين» هكذا في مسند أحمد . ومعلوم أن المرأة إذا فتح بالها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة ؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر . وإذا كانت زيارة النساء مظنّة وسبباً للأمور المحرمة فانه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك ؛ ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة : أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها . فيحرم هذا الباب سداً للذريعة ؛ كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة ، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك . وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة . فانه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت وذلك ممكن في بيتها .

ومن العلماء من يقول : التشييع كذلك ، ويحتج بقوله ﷺ « ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فانكن تفتنّ الحي وتؤذين الميت » ، وقوله لفاطمة « أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلي الجنة » ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من « انه نهى النساء عن اتباع الجنائز » ومعلوم أن قوله ﷺ « من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان » هو أدل على العموم من صيغة التذكير . فان لفظ « من » يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي

والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » رواه أهل السنن

النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز . فاذا لم يدخلن في هذ العموم فكذلك في ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصاً .

قلت : ويكون الاذن في زيارة القبور مخصوصاً للرجال ، خص بقوله « لعن الله زوّارات القبور — الحديث » فيكون من العام المخصوص .

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضا .

منها : أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور ، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم .

قال محمد بن اسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد : فان هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والالحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الأسلام وخراب بنيانه : غالبُ — بل كل — من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير ؛ ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه ، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شيّد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالفراش الفاخر ، وأرخيت عليه الستور ، وألقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع . حتى يغرسوا في جبلته كل باطل ، والأمر ما ثبت في في الأحاديث النبوية من لعن [1] من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى

---

(١) في تطهير الاعتقاد : ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج القبور . الخ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة .

الثالثة : أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه .

الرابعة : قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد [1]

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

السادسة : وهي من أهمها .. صفة معرفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان.

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنة زوارات القبور .

العاشرة : لعنة من أسرجها .

عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة فان ذلك في نفسه منهي عنه . ثم هو ذريعة الى مفسدة عظيمة. انتهى .

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة والله أعلم .

قوله (والمتخذين عليها المساجد) تقدم شرحه في الباب قبله .

قوله (السُرُج) قال أبو محمد المقدسي : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة ، وإفراطا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

وقال ابن القيم رحمه الله : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر [2] .

قوله (رواه اهل السنن) يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط ولم يروه النسائي .

---

(١) يعني انه لما قرن بذلك الدعاء اتخاذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريعة إلى إتخاذها أوثاناً .

(٢) وقد عده ابن حجر الهيثمي في الكبائر أيضاً .

باب

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم

قوله : باب (ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك) .

الجناب : هو الجانب . والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

قوله (وقول الله تعالى « ٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ١٢٩ فان تَولَّوْا فقلْ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ») .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم ، كما قال ابراهيم عليه السلام (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (٣ : ١٦٤ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أي منكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : « إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته » وذكر الحديث . قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال « لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية[1] » .

---

(١) ثم ذكر ابن كثير الحديث « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر . كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي . وقد استدل بعض الجاهلين بهذا على إيمان آباء النبي « ص » وهذا من عظيم جهلهم . فليس فيه أي دليل . لأن في البخاري من حديث عائشة أنهم كانوا في الجاهلية لهم نكاح هو نكاح الناس اليوم .

حريصٌ عليكم ، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ١٢٩ فإن تولّوا فقل حسبيَ الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم)

وقوله (عزيز عليه ما عنتّم) أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها [١] ولهذا جاء في الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفي الصحيح « إن هذا الدين يسر » وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة ، يسيرة على من يسرها الله عليه .

قوله (حريص عليكم) أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخرى اليكم . وعن أبي ذر رضي الله عنه [٢] قال « تركنا رسولُ الله ﷺ ومـا طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً » أخرجه الطبراني ، قال [٣] : وقال رسول الله ﷺ « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم » .

وقوله (بالمؤمنين رؤوف رحيم) كما قال تعالى (١٦ : ٢١٥ واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين ٢١٦ فان عصوكَ فقل إني بريء مما تعملون ٢١٧ وتوكل على العزيز الرحيم) . وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله (فإن تولوْا) أي عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

قلت : فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرَهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب ، وبيّن لهم ذرائعه الموصلة اليه ، وأبلغ في نهيهم عنها ، ومن ذلكَ تعظيم القبور والغلو فيها ،

---

(١) في قرة العيون : ووجه الدلالة بالآية انه « ص » يعز عليه كل ما يؤثم الامة ويشق عليهم وأعظم ما يؤثم الامة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب وقد بالغ « ص » في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى ، وقد كانت هذه حالة أصحابه رضي الله عنهم في قطعهم الخيوط التي يرقى المريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم .

(٢) ساق ابن كثير عند الطبراني الى أبي ذر .

(٣) أي قال أبو ذر : وهو من رواية الطبراني أيضاً . وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الامام أحمد عن ابن عباس حديث الملكين اللذين أتيا رسول الله (ص) في المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . ثم ضربا له ولأمته المثل . وروى عدة أحاديث في هذا المعنى في رحمة النبي (ص) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن . رواته ثقات .

والصلاة عندها واليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم . وكما سيأتي في أحاديث الباب .

قوله (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليَّ فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم » رواه أبو داود باسناد حسن . ورواته ثقات)[1] .

قوله (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) قال شيخ الإسلام : أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ؛ فتكون بمنزلة القبور ؛ فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة .

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعا « لا تجعلوا بيوتكم مقابر فان الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه » .

قوله (ولا تجعلوا قبري عيداً) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد . فاذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً . وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية . فلما جاء الله بالاسلام أبطلها

---

(١) في قرة العيون : قال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن ؛ جيد الاسناد ، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة . نهاهم صلى الله عليه وسلم أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها ، كما تهجر القبور عن الصلاة اليها ، مخافة الفتنة بها ، وما يفضي إلى عبادتها من دون الله . لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم ، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك .

ر عوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى . كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر .

قوله (وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من صلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً

قوله (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) تقدم كلام شيخ الاسلام في معنى الحديث قبله اه .

قوله (وعن علي بن الحسين رضي الله عنه « أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ ؟ قال : لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فان تسليمكم يبلغني اين كنتم » رواه في المختار) .

هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الاسنادين .

أما الأول فرواه أبو داود وغيره من حديث عبدالله بن نافع الصائغ قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبدالله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر . وقال ابن معين : هو ثقة . وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ لاسلام رحمه الله : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن جيد الاسناد ، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة . وأما الحديث الثاني فرواه أبو يعلى والقاضي اسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط . اه

وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهل قال « رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر ، فناداني ، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى ، فقال : هلمّ إلى العشاء . فقلت : لا أريده . فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ . فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ؛ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء »[1] .

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حبان بن علي ؛ حدثنا محمد عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال : قال رسول الله ﷺ « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغني » .

قال شيخ الاسلام : فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله . وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسنداً ؛

قوله (علي بن الحسين) أي ابن علي بن أبي طالب ، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه . مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سِبْط رسول الله ﷺ وريحانته ، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه .

---

(١) قال في قرة العيون : وهذا أيضاً له قرب النسب وقرب الدار ؛ فنهى عن المجيء الى القبر للدعاء عنده . فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الامة . ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ، ولما أنكروا على ما فعله ، وقولهم هو الحجة ، وهو الذي دلت عليه الأحاديث ، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما ، لعلم السلف بما أراده النبي « ص » بنهيه عن الغلو ؛ وخوفه مما وقع ممن غلا في الدين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ؛ كما قال تعالى (٤ : ١١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)

ولما حدث الشرك بارباب القبور في هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال اليها لقصد دعائها ؛ والاستغاثة بها ، وبذل نفيس المال تقربا اليها وتعظيم سدنتها . فيا لها من مصيبة ما أعظمها . نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل اليه .

« أنه رأى رجلا يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيهـــا فيدعو فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدّي عن

قوله (أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة) بضم الفاء وسكون الراء ، وهي الكُوّة في الجدار والخوخة ونحوهما .

قوله (فيدخل فيها فيدعو فنهاه) هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : ما علمت أحداً رخص فيه ، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجـــد ليصلي منهي عنه ، لأن ذلك لم يشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الانسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال « ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون ، فاذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك؛ أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ؛ بل نهاهم عنه في قوله « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليّ فان صلاتكم تبلغني » فبين أن الصلاة تصل اليه من بعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة في زمانهم يُدخَل إليها من الباب ، إذ كانت عائشة رضي الله عنها فيها ؛ وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلاة ، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاما أو سلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبيّن لهم الأحاديث ، أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج ، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره [1] وقبر غيره ؛ حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم

---

(١) ومن ذلك الحكاية المفتراة المنسوبة الى الشيخ أحمد الرفاعي ؛ وأنه طلب من النبي « ص » مد يده ليقبلها ففعل ، وخرجت اليد فقبلها . فانظر بالله كيف استطاعت شياطين الجن والانس أن تلعب بعقول أولئك المخبولين ، المحرومين من كل علم وعقل ودين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم » رواه في المختارة .

وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم . وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج .

والمقصود : أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف . وانما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر . كما كان ابن عمر يفعله . قال عبيد الله بن عمر عن نافع « كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا أبا بكر . السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف » قال عبيد الله « ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر » وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الاسلام رحمه الله : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة . وفي المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي . ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره .

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر ؛ وتنازعوا : هل يستقبله عند السلام عليه أم لا ؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد ، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب الاشراك بأصحابها . وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الاسلام رحمه الله — أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين — ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن مبيح لذلك . كالغزالي وأبي محمد المقدسي . ومن مانع لذلك ، كابن بَطّة وابن عقيل ؛ وأبي محمد الجُوَيني ، والقاضي عياض . وهو قول الجمهور ، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب . لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال « لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » فدخل في النهي شَدُّها لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن يكون

نهياً . وإما أن يكون نفياً . وجاء في رواية بصيغة النهي . فتعين أن يكون للنهي ، ولهذا فهم منه الصحابة رضي الله عنهم المنع — كما في الموطأ والمسند والسنن — عن بَصْرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة — وقد أقبل من الطور — ؛ « لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تُعْمَل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام . ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » وروى الامام احمد وعمر بن شَبَّة في أخبار المدينة باسناد جيد عن قَزَعة قال « أتيت ابن عمر فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته » فابن عمر وبَصْرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نُهي عن شد الرحال اليه . لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة . فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها . وأن النهي ليس خاصاً بالمساجد . ولهذا نهيا عن شدها الى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور انما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة . فان الله سماه (الوادي المقدس ؛ والبقعة المباركة) وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الاسلام مجيباً لابن الاخنائي [1] فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى . لأن المفسدة في ذلك ظاهرة .

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب شدّ الرحال ، ولا مزية تدعو اليه . وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب الصارم المنكي في رده السبكي ، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الاسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع . إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ؛ فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة .

---

(١) قاضي المالكية في عصره ، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكري ؛ على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح ؛ الملك عبد العزيز آل سعود . أدام الله تأييده ونصره .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة .

الثانية : إبعاده أمته عن هذه الحمى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص . مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

الخامسة : نهيه عن الاكثار من الزيارة .

السادسة : حثه على النافلة في البيت .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة .

الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد . فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب .

التاسعة : كونه ﷺ في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه[1].

باب

(ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

وقوله تعالى (٤ : ٥١ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنـــون

قوله (رواه في المختارة) المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين .

ومؤلفه : هو أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام . قال الذهبي : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والاتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه .

وقال شيخ الاسلام : تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن النبي «ص» لا يعرض عليه من أعمالنا إلا الصلاة والسلام عليه فقط ، لا كما يظنه المبتدعون أن كل الأعمال تعرض عليه فان وجد خيراً حمد الله وان وجد غيرذلك استغفر ، مستدلين على ذلك بحديث ، وهي من بيت العنكبوت ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التي رواها البخاري ومسلم .

بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

قوله : باب (ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

(وقول الله تعالى « ٤ : ٥١ ألم ترَ إلى الذين أوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ») .

« الوثن » يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام (٢٢ : ١٧ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا) ومع قوله (٢١ : ٧١ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) وقوله (٣٧ : ٩٥ أتعبدون ما تنحتون ؟) فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ؛ كما تقدم في الحديث .

قوله (يؤمنون بالجبت والطاغوت) روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : « جاء حُيَيُّ ابن أخطب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكَوْماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفُكُّ العناة ؛ ونسقي الحجيج ، ومحمد صُنبور ، قطع أرحامنا ؛ واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار . فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلا » فأنزل الله تعالى (ألم إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب بالجبت يؤمنون والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) [1] وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان»

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف؟. وقال الامام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال « لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : الا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية . قال أنتم خير : قال فنزلت فيهم (إن شانئك هو الأبتر) ونزل (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب — الآية) و « الكوماء » الناقة العظيمة السنام لسمنها . و « العناة » جمع « عان » وهو الأسير . و « الصنبور » الأبتر الذي لا عقب له . وأصله سعفة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض ، وقيل هي النخلة المنفردة التي دق أسفلها . أرادوا أنه إذا بلغ انقطع ذكره كما يذهب الصنبور لأنه لا عقب له .

وقوله تعالى (٥ : ٦٠ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله ؟ مَن لعنه الله وغضِب عليه وجعل منهم القِردةَ والخنازير وعَبَد الطاغوت) .

وكذلك قول ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك « الجبت الشيطان – زاد ابن عباس : بالحبشية » وعن ابن عباس أيضاً : « الجبت الشرك » وعنه « الجبت الأصنام » وعنه « الجبت : حيي بن أخطب » وعن الشعبي « الجبت الكاهن » وعن مجاهد « الجبت كعب بن الأشرف » قال الجوهري « الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر » ونحو ذلك [1] .

قال المصنف رحمه الله تعالى (وفيه معرفة الايمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟) .

قوله (وقوله تعالى « ٥ : ٦٠ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله : من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردةَ والخنازير وعَبَد الطاغوت»)

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد هل أخبركم بشرٍّ جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أي أبعده من رحمته (وغضب عليه) أي غضباً لا يرضى بعده أبداً (وجعل منهم القردة والخنازير) وقد قال الثوري عن علْقمة بن مَرْثَد عن المغيرة بن عبدالله اليَشْكُري عن المعرور بن سُويد أن ابن مسعود رضي الله عنه قال « سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أهي مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يُهلك قوماً – أو قال لم يمسخ قوماً – فجعل لهم نسلا ولا عقبا ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم [2] .

---

(١) زاد ابن كثير عن الجوهري : وفي الحديث « الطيرة والعيافة والطرق من الجبت » قال ابن كثير : رواه الامام أحمد عن قبيصة بن مخارق .

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر في باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص من وجهين : أولهما عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وأبي كريب عن مسعر . وهذا هو الذي فيه « ولا عقبا » والثاني عن إسحاق بن ابراهيم الحنظلي وحجاج بن الشاعر واللفظ لحجاج : وليس فيه « ولا عقبا » .

قال البغوي في تفسيره (قل) يا محمد (هل أنبئكم) أخبركم (بشرٍّ من ذلك) الذي ذكرتم ، يعني قولهم : لم نرَ أهل دين أقلّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم . ولا ديناً شراً من دينكم . فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شراً ؛ لقوله تعالى (٢٢ : ٧٢ قلْ أفأنبئكم بشرٍّ من ذلكم ؟ النار)..

وقوله (مثوبة) ثوابا وجزاء ، نصب على التفسير (عند الله ، من لعنه الله) أي هو من لعنه الله (وغضب عليه) يعني اليهود (وجعل منهم القردة والخنازير) فالقردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار مائدة عيسى . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير» .

(وعَبَدَ الطاغوت) أي وجعل منهم مَنْ عبد الطاغوت ، أي أطاع الشيطان فيما سوّل له ، وقرأ ابن مسعود [١] (عبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة و«عَبُدَ» بضم الباء ، و «الطاغوتِ» بجر التاء [٢] أراد العبد . وهما لغتان : عَبْد بسكون الباء ؛ وعَبُد بضمها ، مثل سبْع وسبُع [٣] وقرأ الحسن «وعبد الطاغوت» على الواحد [٤]

وفي تفسير الطبرسي : قرأ حمزة وحده «وعبُد الطاغوتِ» بضم الباء وجر التاء ، والباقون «وعبَدَ الطاغوتَ» بنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب «وعُبُدَ الطاغوتِ» بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحجة حمزة في قراءته (وعبُد الطاغوت) أنه يحمله على ما عمل فيه (جعل) كأنه : وجعل منهم عبد الطاغوت . ومعنى (جعل) «خلق» . كقوله (وجعل الظلمات والنور) وليس (عبد) لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء ، ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الأفراد ومعناه الجمع ، كما في قوله تعالى (وإن تعدوا

---

(١) في البغوي : وتصدقها قراءة ابن مسعود .
(٢) فيكون على الاضافة ، على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أي خدامه وعبيده .
(٣) في تفسير البغوي وقيل : هو جمع العباد وقرأ الحسن ألخ .
(٤) آخر النقل عن البغوي .

وقوله تعالى (١٨ : ٢١ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) .

نعمة الله لا تحصوها (ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يقظ ودنس ، وكأن تقديره : أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال (وعبد الطاغوت) فانه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة : وهو قوله (لعنه الله) وأفرد الضمير في «عبد» وان كان المعنى فيه الكثرة ، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه . وفاعله ضمير «من» كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير «من» فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ . وأما قوله (عبد الطاغوت) فهو جمع عبد [1] .

وقال أحمد بن يحيي : عُبُد جمع عابد ، كبازل وبُزل . وشارف وشُرف ، وكذلك عبد جمع عابد . ومثله عباد وعبّاد . اه

وقال شيخ الاسلام في قوله (وعبد الطاغوت) الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال ، أي مَن لعنه وغضب عليه ، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت ، قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله ، مظهراً أو مضمراً . وهنا الفاعل اسم مَنْ عبد الطاغوت . وهو الضمير في (عبد) ولم يعد سبحه (من) لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود .

قوله (أولئك شر مكانا) مما تظنون بنا (وأضل عن سواء السبيل) وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى (٢٥ : ٢٤ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) قاله العماد ابن كثير في تفسيره . وهو ظاهر .

قوله (وقول الله تعالى «١٨ : ٢١ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» (والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله . لأن النبي ﷺ قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم .

---

(١) قال ابن كثير : على أنه جمع الجمع . عبد عبيد عبد ؛ مثل ثمار ثمر .

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذة ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟» أخرجاه .

ولمسلم عن ثوبانَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زَوَى لي

قوله (عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لتتبعن سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذّة بالقُذة ؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟» أخرجاه) وهـــذا سياق مسلم .

قوله (سنن) بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم . قال المهلب : فتح أولى

قوله (حذو القذة بالقذة) بنصب (حذو) على المصدر . والقذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم . أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه ، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو علم من أعلام النبوة .

قوله (حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه) وفي حديث آخر « حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك » . أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارى . اهـ

قلت : فما أكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريبا .

قوله (قالوا يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟) هو برفـــع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف ؛ أي أهُم اليهود والنصارى الذين نتبع سَننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعني .

قوله (قال فمن ؟) استفهام إنكاري . أي فمن هم غير أولئك ؟

قوله (ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى

لي منها . وأعطيت الكنزين : الأحمر ، والأبيض . وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة.وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من باقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا » ورواه البرقاني في صحيحه وزاد « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين . واذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي ، بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان . وانه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)

هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف

قوله (عن ثوبان) هو مولى النبي ﷺ صحبه . ولازمه . ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

قوله (زوى لي الأرض) قال التُّورِبِشْتي : زويت الشيء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب. وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره.قال الطيبي : أي جمعها ، حتى بصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها) قال القرطبي : هذا الخبر وجد مخبره كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة — بالنون والجيم — الذي هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر ، وكثير من بلاد السند والهند والصغد ؛ ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال . وذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه .

قوله (زوى لي منها) يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول

أعطيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض . وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يُسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يُرَدُّ . وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة . وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى

قوله (وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض) قال القرطبي : يعني به كنز كسرى ، وهو مُلك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما . وقد قال ﷺ « والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب ؛ وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة . ووجد ذلك في خلافة عمر . فانه سيق اليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها . وكذلك فعل الله بقيصر . « والأبيض والأحمر » منصوبان على البدل .

قوله (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة) هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله (بعامة) بالباء وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها . قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن (عامة) صفة السنة ، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام ، ويسمى الجدب والقحط : سنة . ويجمع على سنين ، كما قال تعالى (٧ : ١٣٠ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) أي الجدب المتوالي .

قوله (من سوى أنفسهم) أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضا ، وسبي بعضهم بعضا ؛ كما هو مبسوط في التاريخ فيما قيل . وفي زماننا هذا ، نسأل الله العفو والعافية .

قوله (فيستبيح بيضتهم) قال الجوهري : بيضة كل شيء حوزته . وبيضة القوم ساحتهم ؛ وعلى هذا فيكون معنى الحديث : أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها . وقيل : بيضتهم معظمهم وجماعتهم ، وإن قلوا .

قوله (حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا) والظاهر

أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضا ، ويَسْبِي بعضهم بعضا » ورواه البَرقاني في صحيحه .

أن (حتى) عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضا . وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم .

قوله (وان ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد) قال بعضهم : أي إذا حكمت حكما مبرماً نافذاً فانه لا يرد بشيء ، ولا يقدر أحد على رده ، كما قال النبي ﷺ « ولا راد لما قضيت » .

قوله (رواه البرقاني في صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة . قال الخطيب: كان ثبتاً ورعا ، لم نر في شيوخنا أثبت منه ، عارفا بالفقه كثير التصانيف . صنف مسنداً ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان . وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة .

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله — أو قال إن ربي — زوى لي الأرض فأريت مشارق الأرض ومغاربها ، وان ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض . واني سألت لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة [1] ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وان ربي قال لي : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها — أو قال : بأقطارها — حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً . وانما أخاف على أمتي الأئمة المضلين . واذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين

---

(١) الذي في سنن أبي داود (ج ٤ ص ١٥) مع شرح عون المعبود — وهي طبعة هندية مصححة بدقة « بسنة بعامة » وقال في عون المعبود وفي رواية مسلم « بسنة بعامة » في باب الفتن .

وزاد « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين .

لا نبيّ بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق – قال ابن عيسى : ظاهرين ثم اتفقا لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى » [1] .

وروى أبو داود أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « تدور رحى الاسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عاما اقلت : أمما بقي أو مما مضى ؟ قال : مما مضى » [2] .

وروى في سننه أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله « يتقارب الزمان وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج ، قيل : يا رسول الله أيّه هو ؟ قال : القتل القتل » .

قوله (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم [3] ، كما قال تعالى (٣٣ : ٦٧ وقالو ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فيأت إلى قبري فاني أقضيها له ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا هو الضلال البعيد ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه مالا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتها ، وقد قال تعالى (٢٢ : ١٢ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ١٣ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) وقال تعالى (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) وقال تعالى (٢٩ : ١٧ فابتغوا عند الله الرزق

---

(١) قال في عون المعبود : اسناده صحيح .

(٢) قال الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي في كتاب الاطراف : وأخرجه البخاري في الصحيح في الأدب وفي الفتن ، ومسلم في القدر ، وأبو داود في الفتن .

(٣) في قرة العيون : كما قال تعالى (٦ : ١١٩ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) وقال (٣٧ : ٧١ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وأمثال هذه الآيات كثير ، وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : « هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين » . رواه الدارمي .

واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) وأمثال هذا في القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : مَنْ يدّعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف ، ويدعي أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، يعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم ؛ ويُجوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وايقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والافراط والعبادة لغير الله . فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ؛ وما وقع في خلَد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم — الحديث » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون » رواه أبو داود الطيالسي . وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » رواه الدارمي .

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين . فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون وحدثه مردود ، كما قال ﷺ « من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا ولا عَدْلا » وقال « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » وقال « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وهذه أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع منْ كتابه العزيز ، كما قال تعالى (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٤٥ : ١٨ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ونظائرها في القرآن كثير .

وإذا وقع عليهم السيف لم يُرْفَع إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حيٌّ من أمتي بالمشركين . وحتى تَعْبُدَ فِئامٌ من أمتي الأوثان .

وعن زياد بن حُدَيْر قال : قال لي عمر رضي الله عنه « هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زَلّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمي .

وقال يزيد بن عمير : كان « معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول : الله حكم قسط : هلك المرتابون — وفيه : فاحذروا زيغة الحكيم ، فان الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ؛ والمنافق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقول : ما هذه : ولا يثنيك ذلك عنه ، فانه لعله أن يراجع الحق ، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته ؛ فان على الحق نوراً » رواه أبو داود وغيره .

قوله (وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وكذلك وقع . فان السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى [1] .

قوله (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين) « الحي » واحد الأحياء وهي القبائل . وفي رواية أبي داود « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين » والمعنى : أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الاسلام ويلحقون بأهل الشرك .

وقوله (حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) « الفئام » بكسر الفاء مهموز : الجماعات الكبيرة ، قاله أبو السعادات .

وفي رواية أبي داود « وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان » .

---

(١) قال في قرة العيون : وفيه ما هو حق ، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ، وجهادهم على تركهم الشرك ، وقد من الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة الى توحيده ، لكن أهل الشرك بدأوهم بالقتال ، وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الفهم في هذه الأزمنة . اهـ

وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان . وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد [1] ؛ فالتوحيد هو أعظم مطلوب ، والشرك هو أعظم الذنوب .

وفي معنى هذا الحديث : ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا «لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألَيَات نساء دَوْس على ذي الخَلَصة قال : وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية» وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحداً ، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور ، والتي اتخذت أوثانا تعبد من دون الله ، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركا عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفا ، والسنة بدعة

---

(١) في قرة العيون : وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لا يعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذي أنكره ونهى عنه . ودعا الناس إلى تركه والى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وأسمائه وصفاته . فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة . فأيده الله بالحجة ، وأعز أنصاره على من ناوأهم . وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولكن من الناس منهم من عرف ومنهم من أنكر . وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها . فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين .

قال أبو طاهر – غفر الله لهما – : وانما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذي دعا اليه الشيخ ابن عبد الوهاب . فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر في ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقا لقول الله تعالى (٥٧ : ٢٥ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ما وفقهم له .

والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الاسلام ، وقلّ العلماء ، وغلب السفهاءّ ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد ؛ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ؛ ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله االأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . اهـ ملخصاً .

قلت : فاذا كان هذا في القرن السابع وقبله ، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع .

قوله (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) قال القرطبي : وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون ؛ منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم . وقال : هذا حديث غريب . انتهى .

وحديث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضي عياض : عدّ من تنبأ من زمن رسول ﷺ الى الآن الله ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة . فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا [1]

وقال الحافظ : وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العنسي باليمن ، وفي خلافة أبي بكر : طُليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة ، وسَجاح في بني تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، قتله وَحشي قاتل حمزة يوم أُحد ، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الاسلام في زمن عمر رضي الله

(١) السيد صديق حسن خان كتاب «الاذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة». عد فيه أولئك الدجالين إلى زمنه ؛ وعد منهم الدجال الافرنجي الخبيث غلام أحمد القادياني المتنبي قبحه الله وأخزاه ، ومن اتبعه على كفره ، فانه ما قام بفتنته وادعى المهدوية ثم النبوة إلا بايعاز ومساعدة دولة نصرانية ، سياستها التفريق لجماعات المسلمين .

ولا تزالُ طائفة من أمتي على الحقِّ منصورة لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتيَ أمرُ الله ، تبارك وتعالى » .

عنه . ونقل أن سجاح تابت أيضاً . ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير . وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ، وأعان عليه . فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريلاً عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرث الكذاب ، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل . وخرج في خلافة بني العباس جماعة .

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقا . فانهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء . وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا . وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله (وأنا خاتم النبيين) قال الحسن . الخاتم : الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وإنما ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان حاكما بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته . فهو كأحد أمته ، بل هو أفضل هـذه الأمة . قال النبي ﷺ « والذي نفسي بيده ليتزلن فيكم ابن مريم حكَمــا مُقْسِطا . فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليَضَعن الجزية » .

قوله (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم) قال يزيد بن هرون ، وأحمد بن حنبل « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ » .

قال ابن المبارك وعلي بن المديني ، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم « إنهم أهل الحديث » وعن ابن المديني رواية « هم العرب » واستدل برواية من روى ، هم أهل الغرب . وفسر الغرب بالدلو العظيمة ، لأن العرب هم الذين يستقون بها .

قال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة : — وهي أهمها — ما معنى الايمان بالجبت والطاغوت ، هل هو اعتقادُ قلب ، أو هو موافقةُ أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها ؟

الخامسة : قولهم : إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدى سبيلا من المؤمنين .

السادسة : — وهي المقصود بالترجمة — أنّ هذا لا بدّ أن يوجد في هذه الأمة ، كما تقرر في حديث أبي سعد .

السابعة : التصريح بوقوعها ، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة .

بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ؛ بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد ، وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه . ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولا بأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فاذا انقرضوا جاء أمر الله . اه ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ .

قال القرطبي : وفيه دليل على أن الاجماع حجة لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة [1] .

قال المصنف رحمه الله (وفيه الآية العظيمة : أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . وفيه البشارة بان الحق لا يزول بالكلية) :

قلت : واحتج به الامام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة .

---

(١) المراد من الاجماع : اجماع كل من يعتد به من هذه الأمة في جميع أقطار الأرض ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه ، ولذلك يروى عن الشافعيّ وأحمد : ان من ادعى الاجماع بعد الصحابة فقد أخطأ .

الثامنة : العجبُ العجاب : خروج مَنْ يدّعي النبوة ، مثل المختار مع تكلُّمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة . وأنَّ الرسول حقّ وأن القرآن حق . وفيه أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصَدَّق في هذا كله مع التضادّ الواضح . وقد خرج المختارُ في آخر عصر الصحابة وتبعه فِئامٌ كثيرة .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية ، كما زال فيما مضى ، بل لا تزالُ عليه طائفة .

العاشرة : الآية العظمى أنهم مع قلّتهم لا يضرهم مَنْ خَذَلهم ولا من خالفهم .

الحادية عشرة : أنَّ ذلك الشرطَ إلى قيام الساعة .

قوله (حتى يأتي أمر الله) الظاهر أن المراد به ما روي من قبض مَنْ بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس ، كما روى الحاكم أن عبدالله ابن عمر قال « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية » فقال عُقبة بن عامر لعبدالله : « اعلم ما تقول ، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » قال عبدالله : « ويبعث الله ريحاً ريحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة » وفي صحيح مسلم « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » .

وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه « حتى تأتيهم الساعة » ساعتهم . وهي وقت موتهم بهبوب الريح . ذكره الحافظ .

وقد اختلف في محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : انها تكون في بيت المقدس ، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة « قيل : يا رسول الله ، أين هم ؟ قال : ببيت المقدس » وقال معاذ ابن جبل رضي الله عنه « هم بالشام » وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائما ، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة .

الثانية عشرة : ما فيهن من الآيات العظيمة .

منها : إخبارُه بأن الله زَوَى له المشارقَ والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .

وإخبارُه بأنه أعطي الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين .

وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة .

وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع .

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وقع كما أخبر ، مع أن كل واحدة منهما من أبعد ما يكون في العقول .

الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فانهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن، فانهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون اليه ، ويناظرون عليه ، ويجاهدون فيه . وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة . والله على كل شيء قدير .

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد ، بل هم في غالب الأمصار في الشام منهم الأئمة ، وفي الحجاز وفي مصر ، وفي العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ، ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التي صارت أعلاما لأهل السنة ، وحجة على كل مبتدع .

فعلى هذا ، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تكون في الشام ، وقد تكون في غيره ، فان حديث أبي أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام وانما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها .

وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، فان كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ .

باب

(ما جاء في السحر)

وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق) .

وقوله (تبارك وتعالى) قال ابن القيم رحمه الله : البركة نوعان : أحدهما بركة هي فَعَلَة والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة ، والمفعول منها مبارك . وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركا بجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة تضاف اليه إضافة الرحمة والعزة ؛ والفعل منهـا تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ؛ فهو سبحانه المتبارك ؛ وعبده ورسوله المبارك ، كما قال المسيح عليه السلام (١٩ : ٣٠ وجعلني مباركا أينما كنت) فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك .

وأما صفة تبارك فمختصة به ، كما أطلقه على نفسه في قوله (٧ : ٥٤ تبارك الله رب العالمين) (٦٧ : ١ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ، لا تطلق على غيره ؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه ، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ؛ فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف (تبارك) تعاظم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جاء بكل بركة.

قوله (باب ما جاء في السحر) أي والكهانة .

السحر في اللغة : عبارة عما خفي ولطُف سببه ، ولهذا جاء الحديث « إن من البيان لسحراً » [1] وسمي السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل .

قال أبو محمد المقدسي في الكافي : السحر عزائم ورُقىً وعقد يؤثر في القلوب والأبدان ؛ فيمرض ويقتل ؛ ويفرق بين المرء وزوجه . قال الله تعالى (٢ : ١٠٢ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وقال سبحانه

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عمر .

وقوله (٤ : ٥١ يؤمنون بالجبت والطاغوت)
قال عمر « الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان » .

(ومن شر النفاثات في العقد) يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه .

وعن عائشة رضي الله عنها « أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل اليه أنه يفعل الشيء وما يفعلهُ ، وأنه قال لها ذات يوم : أتاني ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومَن طبّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم في مشط ومِشاطة وفي جفّ طلعة ذكر في بئر ذَرْوان » رواه البخاري .

قال (وقول الله تعالى « ٢ : ١٠٢ ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ») قال ابن عباس (من نصيب) قال قتادة : وعد علم أهل الكتاب فيما عهد اليهم : أن الساحر لا خلاق له في الآخرة . وقال الحسن: ليس له دين.

فدلت الآية على تحريم السحر ، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يُفلح الساحر حيث أتى) وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله ﷺ « من تعلم شيئا من السحر قليلا كان أو كثيرا كان آخر عهده من الله » . وهذا مرسل.

واختلفوا : هل يكفر الساحر أولا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله . قال لأصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر .

وقال الشافعي : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فان وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد إباحته كفر . اهـ

وقد سماه الله كفراً بقوله (٢ : ١٠٢ إنما نحن فتنة فلا تكفر) وقوله (٢ : ١٠٢ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) قال ابن عباس في قولــه

(إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والايمان ؛ فعرفا أن السحر من الكفر .

قال (وقوله تعالى « يؤمنون بالجبت والطاغوت » تقدم الكلام عليهما في الباب قبله . وفيه أن السحر من الجبت . قاله المصنف رحمه الله .

قوله (قال عمر رضي الله عنه : الجبت السحر . والطاغوت : الشيطان) هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره .

قوله (وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد) هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولا عن وهب بن منبه قال : « سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون اليها ؛ فقال : إن في جهينة واحداً ؛ وفي أسلم واحداً . وفي هلال واحداً ؛ وفي كل حي واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين »[1]

قوله (قال جابر) هو ابن عبدالله بن حرام الأنصاري[2] .

قوله (الطواغيت كهان) أراد أن الكهان من الطواغيت : فهو من أفراد المعنى .

قوله (كان ينزل عليهم الشيطان) أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع ، فيصدقون مرة ويكذبون مائة .

قوله (في كل حي واحد) الحي واحد الأحياء ، وهم القبائل ؛ أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون اليه ويسألونه عن الغيب ؛ وكذلك كان الأمر قبل

---

(١) الذي يستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم : أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله واخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله . سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الانس ، والأشجار والأحجار وغيرها . ويدخل في ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الاسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الانسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها . والقوانين نفسها طواغيت ، وواضعوها ومروجوها طواغيت . وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله (ص) إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه . فهو طاغوت .

(٢) توفي جابر سنة ٧٤ وقيل سنة ٧٧ ، وكان عمره أربعاً وتسعين سنة .

مبعث النبي ﷺ ، فأبطل الله ذلك بالاسلام وحرست السماء بكثرة الشهب .

قوله (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .

كذا أورده المصنف غير معزو . وقد رواه البخاري ومسلم .

قوله (اجتنبوا) أي أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ، لأن النهي عن القربان أبلغ ، كقوله (٦ : ١٤١ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

قوله (الموبقات) بموحدة وقاف . أي المهلكات . وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب .

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير ، وعبد الرزاق مرفوعا وموقوفا قال « الكبائر تسع — وذكر السبعة المذكورة — وزاد : والالحاد في الحرم ، وعقوق الوالدين » ولابن أبي حاتم عن علي قال « الكبائر — فذكر السبع — إلا مال اليتيم ، وزاد — العقوق ، والتعرب بعد الهجرة ، وفراق : الجماعة ، ونكث الصفقة » .

قال الحافظ : ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع .

ويجاب : بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أولا بالمذكورات . ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .

وقد أخرج الطبراني واسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له « الكبائر سبع » قال : « هن أكثر من سبع وسبع » وفي رواية « هي إلى سبعين أقرب » وفي رواية « إلى السبعمائة » [1] .

---

(١) قد ألف الحافظ عبد الرحمن بن رجب رحمه الله كتابا في عد الكبائر . طبع ولشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : كتاب مسائل الجاهلية ، هو كذلك في عد الكبائر .

قوله (قال الشرك بالله) هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه . ويخافه كما يخاف الله ، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود « سألت النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . الحديث » وأخرج الترمذي بسنده عن صفوان بن عسّال قال « قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي ، فقال له صاحبه : لا تقل نبي ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال النبي ﷺ : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ،، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تولّوا للفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدُوا في السبت . فقبّلا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبي – الحديث» وقال حسن صحيح.

قوله (السحر) تقدم معناه . وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة .

وقوله (وقتل النفس التي حرم الله) أي حرم قتلها . وهي نفس المسلم المعصوم .

قوله (إلا بالحق) أي بأن تفعل ما يوجب قتلها ، كالشرك ، والنفس بالنفس ، والزاني بعد الاحصان ، وكذا قتل المعاهد ، كما في الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » .

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلالا بقوله تعالى (٤ : ٩٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها)وقال ابن عباس «نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء» وفي رواية « لقد نزلت في آخر ما نزل ، وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي » وروى في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الامام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ،

التي حرم الله إلا بالحق ، وأكْلُ الربا ، وأكْلُ مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصناتِ الغافلات المؤمنات » .

فان تاب وأناب وعمل صالحا بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى (٢٥ : ٦٨ – ٧١ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل صالحا – الآيات)

قوله (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) قال أبو هريرة وغيره « هذا جزاؤه إن جازاه » .

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد ابن عبادة أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول (لمن قتل مؤمناً توبة) وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما . وروى مرفوعاً « أن جزاءه جهنم إن جازاه » .

قوله (وأكل الربا) أي تناوله بأي وجه كان ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٥ – ٢٨٠ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس – الآيات) قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوء الخاتمة . نعوذ بالله من ذلك .

قوله (وأكل مال اليتيم) يعني التعدي فيه . وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ، كما قال تعالى (٤ : ١٠ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

قوله (والتولي يوم الزحف) أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال . وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال . كما قيد به في الآية [1] .

---

(١) في سورة الأنفال (٨ : ١٥ و ١٦ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) .

وعن جُنْدَب مرفوعاً «حَدُّ الساحر ضربُه بالسيف» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي صحيح البخاري عن بَجالة بن عَبْدة قال:

قوله (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا؛ وبكسرها الحافظات فروجهن منه. والمراد بالحرائر العفيفات. والمراد رميهن بزنا أو لواط. والغافلات، أي عن الفواحش وما رمين به. فهو كناية عن البريئات. لأن الغافل بريء عما بُهت به. والمؤمنات، أي بالله تعالى احترازاً من قذف الكافرات.

قوله (وعن جندب مرفوعاً «حدُّ الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف)

قوله (عن جندب) ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبدالله البجلي. لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر فانه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ. وخالد العبد ضعيف. قال الحافظ: والصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير «وأنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات؛ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول — فذكره» وجندب الخير هو جندب بن كعب. وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان: أبو عبدالله الأزدي الغامدي صحابي روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال «يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة».

قوله (حد الساحر ضربه بالسيف) وروي بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز؛ ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد. والأول أولى للحديث ولأثر عمر. وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية سحرتها . فقتلت وكذلك صح عن جندب .

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

قال (وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب أن أقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر) .

هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف رحمه الله ؛ لكن لم يذكر قتل السواحر .

قوله (عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم ؛ ابن عبدة بفتحتين ، التميمي العنبري بصري ثقة .

قوله (كتب الينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) وظاهره أنه يقتل من غير استتابة . وهو كذلك على المشهور عن احمد ، وبه قال مالك ، لأن عام السحر لا يزول بالتوبة . وعن أحمد يستتاب ؛ فان تاب قُبلت توبته؛ وبه قال الشافعي لأن ذنبه لايزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله (وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت) .

هذا الأثر رواه مالك في الموطأ .

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

قوله (وكذلك صح عن جندب) أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال « كان عند الوليد رجل يلعب فذبح انساناً وأبان رأسه فعجبنا ، فأعاد رأسه فجاء جندب الازدي فقتله » ورواه البيهقي في الدلائل مطولا . وفيه « فأمر به الوليد فسجن » فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة .

قوله (قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ) احمد هو الامام ابن

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجنّ وقد يكون من الانس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي .

السادسة : أن الساحر يكفر .

السابعة : أنه يُقتل ولا يستتاب .

الثامنة : وجود هذا في المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟

باب

(بيان شيء من أنواع السحر)

محمد بن حنبل [1] .

قوله (عن ثلاثة) أي صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ ، يعني عمر ، وحفصة ، وجندباً . والله أعلم .

قوله : باب (بيان شيء من أنواع السحر) .

قلت : ذكر الشارح رحمه الله تعالى ما هنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء وذكر ما اغترّ به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولاية منْ جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال : ولشيخ الاسلام كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فراجعه . انتهى

---

(١) الامام الجليل ، ناصر السنة وقامع البدعة ، الصابر المحتسب في الله وفى على ما لقي في نصر دين الله ، العلم الحافظ الحجة . ولد سنة ١٦٤ ومات سنة ٢٤١ . قال الشافعي رحمه الله : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل . رحمة الله عليه.

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال « إن العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجبت » .

قال رحمه الله تعالى (قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ، حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال إن « العيافة ، والطَّرق ، والطِّيرة من الجِبْت » قال عوف : العيافة زجر الطير ، والطرق الخط يخط في الأرض ، والجبت : قال الحسن « رنة الشيطان » اسناده جيد . ولأبي دواد والنسائي وابن حبان في صحيحه : المسند منه) .

قوله (قال أحمد) هو الامام أحمد بن محمد بن حنبل .

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغُنْدَر الهذلي البصري ، ثقة مشهور ، مات سنة ست ومائتين .

وعوف هو ابن أبي جميلة – بفتح الجيم – العبدي البصري ، المعروف بعوف الاعرابي ، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء هو بالتحتية ، ويقال حيان بن مخارق ،أبو العلاء البصري ، مقبول .

وقَطَن ، بفتحتين أبو سهل البصري صدوق .

قوله (عن أبيه) هو قبيصة – بفتح أوله – ابن مخارق – بضم الميم – أبو عبدالله الهلالي . صحابي ، نزل البصرة .

قوله (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف : العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ؛ وهو من عادات العرب ، وكثير في أشعارهم ؛ يقال : عاف يعيف عيفا ، إذا زجر وحدس وظن .

قوله (والطرق الخط يخط الأرض) كذا فسره عوف . و . ر كذلك .

وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء . وأما الطيرة فيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى .

قال عوف : العيافة زجر الطير . والطرق الخط يخط بالأرض [1]

والجبت : قال الحسن « رنة الشيطان » إسناده جيد .

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من اقتبس

قوله (من الجبت) أي السحر . قال القاضي : والجبت في الأصل الفشل الذي لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر .

قوله (قال الحسن : رنة الشيطان) قلت : ذكر ابراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بقيّ بن مَخْلَد أن إبليس رنّ أربع رنات : رنة حين لُعن ، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب . قال سعيد بن جبير : لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنّ رنة ، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة . رواه ابن أبي حاتم . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنّ إبليس رَنّة اجتمعت اليه جنوده . رواه الحافظ الضياء في المختارة : الرنين الصوت . وقد رن يرن رنيناً ، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى .

قوله (ولأبي داود وابن حبان في صحيحه : المسند منه) ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « من اقتبس شُعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود بإسناد صحيح) وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه

---

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه ، وهو ذائع بين أهل العصر ، ولبعضهم فيه تآليف وقد يتعيش به كثير من المتكهنين يغررون به البله والجهلة ؛ زاعمين أنهم يطلعون على المغيبات وهم كاذبون ؛ فان هذا العلم بل الجهل لا يقصد به الا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وقد بحثت في قواعده فوجدته كما ذكرت لك رجما بالغيب وهو من الجبت كما في الحديث ؛ فيجب على المؤمنين بالله الكفر به . ومثله ما يسمونه علم قراءة الكف ؛ وقراءة الفنجان ؛ ومناجاة حب الجن ونحوه ؛ كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن والانس ببعضهم . نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الامراض الفتاكة .

شُعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود ، وإسناده صحيح .

وللنسائي من حديث أبي هريرة « مَن عقَد عُقدة ثم نفث فيها فقد سَحر ،

قوله (من اقتبس) قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا علمته اه[1]

قوله (شعبة) أي طائفة من النجوم علم . والشعبة الطائفة . ومنه الحديث « الحياة شعبة من الايمان » أي جزء منه .

قوله (فقد اقتبس شعبة من السحر) المحرم تعلمه .

قال شيخ الاسلام رحمه تعالى : فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر ، وقال تعالى (٢٠ : ٦٩ ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

قوله (زاد ما زاد) أي كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الاثم الحاصل بزيادة الاقتباس [2] من شُعَبه ، فان ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير السحر باطل [3] .

قوله (وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « من عقَد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئاً وكل اليه »)هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي . وقد رواه النسائي مرفوعا وحسنه ابن مفلح .

---

(١) أصله مأخوذ من القبس ، وهو القليل من النار ليستدفىء به . قال موسى (لأهله : امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) .

(٢) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدي الى الكفر كادعاء علم الغيب كما في كتيب ينسب الى أبي معشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء اسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول . وقد تمدن الشياطين واخوانهم من سحرة هذا الزمان في البلاد المتمدنة ؛ فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك ، مثل اسم التنويم المغناطيسي ومناجاة الأرواح واستحضارها بأنواع من الحيل والتمازيم المتمدنة أيضاً .

(٣) علم النجوم علمان : علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها . وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به . وعلم يعرف بالعلم الروحاني ، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها في الأرض ومن عليها بالأمراض والحروب والضيق والسعة والموت والحياة ؛ والسعادة والشقاوة بين الزوجين إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا . ولهم في ذلك ما يسمونه بالطالع ، ويعملون جدولا بالحوادث التي ستحدث في العالم كله من حوادث عامة وخاصة . وهذا هو الدجل والكذب . وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم .

ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلّق شيئاً وُكِل اليه » .
وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « ألا هل أنبئكم ما العَضْه ؟

قوله (وللنسائي) هو الامام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . وروى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق ، وكان اليه المنتهى في العلم بعلل الحديث ؛ مات سنة ثلاث وثلثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى .

قوله (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر) إعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع الريق ، وهو دون التفل . والنفث فعل الساحر ، فاذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده المسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخا معه ريق . فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك ، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه باذن الله الكوني القدري لا الشرعي ؛ قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

قوله (ومن سحر فقد أشرك) نص في أن الساحر مشرك ، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله (ومن تعلّق شيئاً وكل اليه) أي من تعلق قلبه شيئاً : بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء [1] . فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟) ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك . ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً ؛ وهذا من جوامع الكلم . والله أعلم .

قال (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ألا هل

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وهذا التعلق هو روح الايمان وخلاصة التوحيد ، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه في دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك .

هي النميمة : القالّة بين الناس » رواه مسلم .

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « إن من البيان لسحراً »

أنبئكم ما العَضْه ؟ هي النميمة ، القالَة بين الناس » رواه مسلم) .

قوله (ألا هل أنبئكم) أخبركم و (العضه) بفتح المهملة وسكون المعجمة ؛ قال أبو السعادات هكذا يروى في كتب الحديث . والذي في كتب الغريب « ألا أنبئكم ما العِضَه » بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشري : أصلها « العضهة » فعلة من العضه وهو البهت . فحذفت لامه ، كما حذفت من السنَة والشّفة ، وتجمع على « عضين » ثم فسره بقوله « هي النميمة القالة بين » فأطلق عليها « العضه » لأنها لا تنفك من الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبي .

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : « يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة » . وقال أبو الخطاب في عيون المسائل : ومن السحر السعي بالنميمة والافساد بين الناس . قال في الفروع : ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، أشبه السحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله السحر ، أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر انما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطي حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة . انتهى ملخصاً .

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النميمة ؛ وهو مجمع عليه قال ابن حزم رحمه الله : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله (القالة بين الناس) قال أبو السعادات: أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس ومنه الحديث « فشت القالة بين الناس » .

قال (ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « إن من البيان لسحراً ») البيان البلاغة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان « صدق نبي الله ، فان الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق » وقال ابن عبد البر تأولته طائفة على الذم . لأن السحر

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

الثانية : تفسير العيافة والطرق .

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر .

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك .

الخامسة : أن النميمة من ذلك .

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة .

مذموم ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح . لأن الله تعالى مدح البيان . قال وقد قال عمر عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : « هذا والله السحر الحلال » انتهى . والأول أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مُجاج النحل ، تمدحه وإن تشأ قلت : ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً ، وماجاوزتَ وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله (إن من البيان لسحراً) هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل السحر ، فيجعل الحق في قالب الباطل ، والباطل في قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق . ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو الممدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم .

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الاسهاب والاطناب ، وتغطية الحق ، وتحسين الباطل . فاذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » رواه أحمد وأبو داود .

باب

(ما جاء في الكهان ونحوهم)

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال «مَن أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدّقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوما»

قوله (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

«الكاهن» هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً. وأما بعد المبعث فانهم قليل. لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب. وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الانس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة [1]، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله. وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال تعالى (٦: ١٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس. وقال أولياؤهم من الانس: ربنا استمتع بعضنا ببعض. وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إنّ ربك حكيم عليم).

قوله (روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال «من أتى عرّافاً فسأله عن شيء، فصدقه بما يقول، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»).

قوله (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي. لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

---

(١) والواقع أن ذلك من تآلف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الانسان الخبيث فيتناجيان ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحب من الأخبار التي يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الانسان الآخر. وهكذا فان لكل انسان قريناً من الشيطان كما جاء ذلك في القرآن والسنة. فيخبر شيطان الانس بما أوحى اليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله في منزله وخصوصية نفسه ما ألقاه اليه الشيطان القرين، فيظن الجهلة والمغفلون ان ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات؛ وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه. وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وان اعتقده وخدع به كثير ممن ينتسب الى ظاهر العلم والصلاح.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «مَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن النبي ﷺ [1] «من أتى عرّافا أو كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

قوله (من أتى عرافا) سيأتي بيان العراف إن شاء الله تعالى. وظاهر هذا الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك في خبره. فان في بعض روايات الصحيح «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

قوله (لم تقبل له صلاة) إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟ قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فان العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. اه ملخصاً.

وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه. قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجيء اليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء اليهم ممن ينتسب إلى العلم، فانهم غير راسخين في العلم بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال (عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود).

وفي رواية أبي داود «أو أتى امرأة — قال مسدد: امرأته حائضاً — أو أتى امرأة. قال مسدد: امرأته في دبرها — فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ» فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة.

قال (وللأربعة والحاكم — وقال صحيح على شرطهما عن النبي ﷺ من أتى عرّافا أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ).

---

(١) بياض بالأصل.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا

وعن عمران بن حصين مرفوعا «ليس منا مَن تَطير أو تُطُيِّر له ، أو

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي . وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعا .

قوله (من أتى كاهناً) قال بعضهم : لا تعارض بين هذا وبين حديث «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين . وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله (فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) قال القرطبي : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . اهـ وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر . فلا ينقل عن الملة ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال يخرج عن الملة ولا لايخرج؟وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى .

قال (ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله مرفوعا) .

أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الامام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روى عن يحيي بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق . وكان من الأئمة الحفاظ ؛ مات سنة سبع وثلاثمائة ؛ وهذا الاثر رواه البزار أيضاً ولفظه «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً[1].

قال (وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا «ليس منا من تطيّر أو تُطَيِّر له ، أو تكَهن أو تكُهِّن له ، أو سَحر أو سُحر له . ومن أتى

---

(١) وذلك لأن في الكتاب المنزل (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ، ان الله عليم خبير) وقال في سورة الأنعام (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) وقال في سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) فمن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات ، ومن كذبها كفر .

تكهن أو تُكُهِّن له ، أو سَحر أو سُحِر له . ومَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه البزار باسناد جيد .

ورواه الطبراني في الأوسط باسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى » إلى آخره .

قال البغوي : العراف الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة . ونحو ذلك

وقيل : هو الكاهن . والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه البزار باسناد جيد ، ورواه الطبراني في الأوسط باسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى كاهناً » إلى آخر) .

قوله (ليس منا) [1] فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله (من تطير) أي فعل الطيرة (أو تطير له) أي قبل قول المتطير له وتابعه كذا معنى « أو تكهن أو تكهن له » كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركاً ، كالطيرة ، أو كفراً كالكهانة والسحر ، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه .

قوله (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ، أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير . وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق ، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله (قال البغوي إلى آخره) البغوي — بفتحتين — هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعي ؛ صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان ، كان ثقة ، فقيهاً زاهداً ؛ مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

---

(١) فيه دليل على نفي الايمان الواجب ، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك ؛ وأن الكهانة كفر .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

وقال ابن عباس — في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم — « ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق »

قوله (العرّاف : الذي يدعي معرفة الأمور) ظاهره : أن العرّاف هو الذي يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرّمال ونحوهم ، كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم العراف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن العرب . وعند آخرين هو من جنس الكاهن ، وأسوأ حالا منه ، فيلحق به من جهة المعنى .

وقال الامام أحمد : العرافة طرَف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العرّاف المنجم ، والحازر الذي يدعي علم الغيب ؛ وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : من اشتهر باحسان الزجر عندهم سموه عائفا ، وعرافا .

والمقصود من هذا : معرفة أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن ، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به . وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكهان والمنجمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ ، فان هذه

علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم [1] ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً أو عرّافاً أو في معناهما ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ، إن الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي ، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ، ولا قدرة له عليها ، بخلاف من يدعي أنه ولي ويقول للناس : اعلموا أني أعلم المغيبات ؛ فان هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسبابا محرمة كاذبة في الغالب ، ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان « فيكذبون معها مائة كذبة » فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه . لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى (٥٣ : ٣٢ فلا تزكوا أنفسكم) وليس هذا من شأن الأولياء ، فان شأنهم الازراء على نفوسهم وعيبهم لها ؛ وخوفهم من ربهم ، فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوي والشطحات شيء ؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق رضي الله عنه ؛ وكان عمر رضي الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته ، وكان يمرّ بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه ، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع

---

(١) ومعنى الجاهلية : الاعراض عن العلم المنزل من الله على رسله هدى ورحمة ، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات ، وما يوحي به الشياطين ، ويحددها قول الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وقد عادت الجاهلية الى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشراً منها ، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوهما مهجورين، فوجودهما حجة عليهم فقط ، ولا يغرنك منهم عمائم ولحى وصور فما وراءها الا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شراً من عقلية من يتبعون أذناب الابل والبقر . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الايمان بالقرآن

الثانية : التصريح بأنه كفر .

الثالثة : ذكر من تُكُهِّن له .

النوم إلا قليلا خوفا من النار ثم يقوم إلى صلاته . ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور [1] فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر . فكيف يكون المدعي لذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

قوله (وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد إلى آخره) هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعا . واسناده ضعيف . ولفظه « رُبَّ مُعَلِّم حروف أبي جاد دارسٍ في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حمد بن زنجويه عنه بلفظ « رُب ناظرٍ في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق » .

---

(١) قوله تعالى (١٣ : ١٩ و ٢٠ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق – الآيات الى ٢٤) وقوله (١٣ : ٣٠ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقوله (٢٣ : ٥٧ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون – الآيات الى ٦١) وقوله (٢٥ : ٦٣ وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما – الآيات الى ٧٦) وقوله (٥١ : ١٥ ان المتقين في جنات وعيون – الآيات الى ١٩) وقوله (٥٢ : ١٧ ان المتقين في جنات ونعيم – الآيات الى ٢٨) .

هذا وفي القرآن الكريم صفات المؤمنين كثيرة جدا ؛ بل أكثر آي القرآن في وصف الايمان وأهله ؛ وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقاً كثيفاً أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن في قوم يبولون على ثيابهم وهم في غاية القذر والوسخ ، ولا يركعون لله ركعة ؛ وقد سلبوا كل نعمة الا الحيوانية ؛ وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يفتن بها أولئك الجاهلين ، ولا قوة إلا بالله .

الرابعة : ذكر من تُطير له .
الخامسة : ذكر من سحر له .
السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .
السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف .

باب

(ما جاء في النُّشْرة)

قوله (ما أرى) يجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن .

وكتابة «أبي جاد» وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف[1] ، وهو الذي جاء فيه الوعيد ، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله (وينظرون في النجوم) أي ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتي في باب التنجيم . وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى (٤٠ : ٨٣ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) .

قوله (باب ما جاء في النُّشْرة) .

بضم النون ، كما في القاموس . قال أبو السعادات : النشرة ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء ، أي يكشف ويزال .

قال الحسن : النُّشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث : «فلعل طباً أصابه ، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس» أي رقاه .

---

(١) وينسبه الدجالون المشركون إلى جعفر الصادق ؛ ولهم في ذلك كلام كثير في منتهى الكفر والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فأصلوا في هدم الاسلام كل معول .

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة ؟ فقال هي من عمل الشيطان رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

وفي البخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب : رجل به طِب أو يؤخذ عن امرأته ، أيُحَلّ عنه أو يُنْشر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الاصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه . اه

وقال ابن الجوزي : النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .

قال (عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «سئل عن النشرة فقال : هي من الشيطان» رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ، فقال : ابن مسعود يكره هذا كله») .

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه . والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر فذكره قال ابن مفلح : اسناد جيد ، وحسن الحافظ اسناده .

قوله (سئل عن النشرة) والألف واللام في (النشرة) للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هي من عمل الشيطان .

قوله (وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله) أراد أحمد رحمه الله أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً .

قوله (والبخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب «رجل به طبٌّ أو يُؤخَذُ عن امرأته أيُحَلّ عنه ، أو يُنَشَّر ؟ قال : لا بأس به : انما يريدون به الاصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه») .

قوله (عن قتادة) هو ابن دعامة ـ بكسر الدال ـ الدوسي ثقه فقيه من أحفظ التابعين . قالوا إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله (رجل به طب) بكسر الطاء . أي سحر ، يقال : طُبَّ الرجل ـ بالضم ـ ذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلا . كما يقال للديغ : سليم .

وروي عن الحسن أنه قال لا يُحلّ السحر إلا ساحر

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان (أحدهما) حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان . وعليه يُحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور (والثاني) النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز .

وقال ابن الانباري : الطب من الاضداد . يقال لعلاج الداء طب ، والسحر من الداء يقال له طب .

قوله (يؤخّذ) بفتح الواو مهموزة وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة . أي يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذة — بضم الهمزة — الكلام الذي يقوله الساحر .

قوله (أيُحل) بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول .

قوله (أو ينشر) بتشديد المعجمة .

قوله (لا بأس به) يعني أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الاصلاح ، أي إزالة السحر ، ولم ينه عما يراد به الاصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله (وروى الحسن أنه قال « لا يَحُل السحر إلا ساحر ») هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد .

والحسن هو ابن أبي الحسن واسمه : يسار — بالتحتية والمهملة — البصري الأنصاري : مولاهم . ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين . مات سنة عشر ومائة رحمه الله ، وقد قارب التسعين .

قوله « (قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان ، حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان إلى آخره) » ومما جاء في صفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال « بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر باذن الله ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال .

يصب على رأس المسحور [1] : الآية التي في سورة يونس (١٠ : ٨١ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله . إن الله لا يصلح عمل المفسدين : ٨٢ ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقوله (٧ : ١١٨ ــ ١٢٠ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر الآيات الأربع . وقوله (٢٠ : ٦٩ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

وقال ابن بطال : في كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به ، هو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت : قول العلامة ابن القيم (والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز) يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء .

والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز : والله أعلم .

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم(*) ولا غيرهما ؛ وانما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله « ص » ولم يجيء عنه « ص » شيء مما يقول ابن ابي سليم ولا ابن القيم . وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الاسرائيليين لا على هدى خير المرسلين . ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر . وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدى رسول الله « ص » والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ويتجنب المحدثات وان كانت ممن يكون فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله « ص » . .

(*) قوله (مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم) الخ . اقول اعتراض الشيخ حامد على ما ذكره الشارح عن ابن أبي سليم ووهب ابن منبه وبن القيم ليس في محله ، بل هو غلط من الشيخ حامد ، لان التداوي بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من الادوية المباحة ليس من باب البدع بل هو من باب التداوي ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام) وثبت في سنن ابي داود في كتاب الطب ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في ماء في اناء وصبه على المريض، وبهذا يعلم ان التداوي بالسدر وبالقراءة في الماء وصبه على المرضى ليس فيه محذور من جهة الشرع ، اذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحا ، والله ولي التوفيق .

باب

(ما جاء في التطير)

وقول الله تعالى (٧ : ١٣١ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون)

قوله (باب ما جاء في التطير) .

أي من النهي عنه والوعيد فيه ، مصدر تَطيّر يتطير ، و « الطِّيرة » بكسر الطاء وفتح الياء ، وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طِيرة ، كما يقال تخير خِيرة ، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما ، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر .

قال المدائني « سألت رُؤبة بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال ما ولاّك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره . والذي يجيء من امامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد » .

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته [1] ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافي كمال التوحيد الواجب .

قوله (وقول الله تعالى (٧ : ١٣١ ألا إنما طائرهم عند الله) الآية) ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية) المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً ، ومنافاتها التوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره ، واعتقاد النفع والضر في طائر ونحوه لاعلم عنده ولا قصد ، وانما تذهب وتجيء في غرورها معايشها وشئونها . فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثراً في جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر ، وتمكن الخرافات والجهل وعمى القلوب . وهذا اعتقاد المنجمين في النجوم التي سخرها الله تعالى تجري في بروجها ومداراتها المستقر لها . اعتقدوا لها تأثيراً في الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله اليهم إبراهيم عليه السلام .

الحسنة ، أي الخُصْب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره — قالوا : لنا هذه ، أي نحن الجديرون والحقيقيون به ، ونحن أهله . وإن تصبهم سيئة . أي بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى (ألا إنما طائرهم عند الله) قال ابن عباس «طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم» وفي رواية «شؤمهم عند الله ومن قبله» أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله .

قوله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي أن أكثرهم جهال لا يدرون . ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه ،

قوله (وقوله تعالى «٣٦ : ١٩ قالوا طائركم معكم — الآية») المعنى — والله أعلم — حظكم وما نابكم من شر معكم ؛ بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا . بل ببغيكم وعدوانكم. فطائر الباغي الظالم معه ، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله ؛ كما قال تعالى (٦٨ : ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٣٦ مالكم كيف تحكمون) ويحتمل أن يكون المعنى : طائركم معكم . أي راجع عليكم ، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص في الكلام . ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم[1]» ذكره ابن القيم رحمه الله .

قوله تعالى (أئن ذُكّرتم) أي من أجل أنّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام (بل أنتم قوم مسرفون) قال قتادة : أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟

ومناسبة الآيتين للترجمة : أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين . وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم ؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك . كما سيأتي في أحاديث الباب .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه .

قال » (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا عَدْوَى ولا طِيَرة ولا هامَةَ ولا صَفَر » أخرجاه . زاد مسلم « ولا نَوْء ولا غُول »)

قال أبو السعادات « العدوى » اسم من الإعداء . كالدعوى . يقال : أعداه الداء يعديه إعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء .

وقال غيره : « لا عدوى » هو اسم من الإعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفي نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال « لا يُورِد مُمرِض على مُصِح » ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث « لا يورد ممرض على مصح » وأمسك عن حديث « لا عدوى » فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يعترف به . قال أبو مسلمة — الراوي عن أبي هريرة : فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟ .

وقد روى حديث « لا عدوى » جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر بن عبدالله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ، وغيرهم ، وفي بعض روايات هذا الحديث « وفِرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد » .

وقد اختلف العلماء في ذلك . وأحسن ما قيل فيه : قول البيهقي ، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله « لا عدوى » على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وإن هذه الأمور تعدي بطبعها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال « فِرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد » وقال « لا يورد ممرض على مصح » وقال في الطاعون « من سمع به في أرض فلا يقدم عليه » وكل ذلك بتقدير الله تعالى .

ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً « لا يعدي شيء » قالها ثلاثاً ، فقال أعرابي يا رسول الله إن النُّقْبَة [1] من الجَرَب تكون بمِشْفَر البعير أو بذنبه

(1) النقبة — بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة — أول شيء يظهر من الجرب ؛ وجمعها : نقب — لأنها تنقب الجلد أي تخرقه .

في الابل العظيمة فتجرّب كلها ؟ فقال رسول الله ﷺ : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها » فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء وفي النار ، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر ، فكذلك اجتنب مقاربة المريض كالمجذوم ، والقدوم على بلد الطاعون . فان هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها . لا خالق غيره ولا مقدر غيره. وأما إذا قوي التوكل على الله والايمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي : « أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ، ثم قال كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه» وقد أخذ به الامام أحمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم . ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم ومنه مشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني على متن البحر ، قاله ابن رجب رحمه الله .

قوله (ولا طيرة) قال ابن القيم رحمه الله تعالى : يحتمل أن يكون نفيا أو نهياً أي لا تطيروا ، ولكن قوله في الحديث « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها . والنفي في هذا أبلغ من النهي . لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ « ومنا أناس يتطيرون . قال : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته ، لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأمته الأمر ، وبيّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ،

ولا غيها ذلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم ، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السماوات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ، لئلا يبقى فيهـا علقة منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ؛ قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وبادر خواطرها من قبل استمكانها . قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح . فقال رجل من القوم : خير خير . فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاوس مع صاحب له في سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير . فقال طاوس : وأي خير عند هذا ؟ لا تصحبني . اه ملخصاً .

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله « الشؤم في ثلاث : في المرأة ، والدابة ، والدار » ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه ، وانما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوما يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها ؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له . ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة . كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك في الديار والنساء والخيل . فهذا لون والطيرة الشركية لون . انتهى .

ولا هامَة ولا صفر » أخرجاه .

زاد مسلم : « ولا نوْء ، ولا غُول »

قوله (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل . كأنه يعني البومة . قال ابن الاعرابي : كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم ، يقول : نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

قوله (ولا صفر) بفتح الفاء ، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هي حيّة تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب ، وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والامام أحمد والبخاري وابن جرير .

وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : أن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ، ويقولون : إنه شهر مشؤوم ، فأبطل النبي ﷺ ذلك . قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها ، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة .

قوله (ولا نوء) النوء واحد الأنواء ، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى .

قوله (ولا غول) هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان ، وهو المراد هنا قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم ، أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبي ﷺ وأبطله .

فان قيل : ما معنى النفي وقد قال النبي ﷺ « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان [1] » .

---

(١) قال السيوطي في الجامع الصغير : رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة وهو ضعيف.

ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ ويُعْجِبني الفألُ قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمةُ الطيبة » .

أجيب عنه : بأن ذلك كان في الابتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : المنفي ليس وجود الغول ، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه ، أو يكون المعنى بقوله « لا غول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه . ويشهد له الحديث الآخر « لا غول ولكن السعالى سحرة الجن » أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل . ومنه الحديث « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أي أدفعوا شرها بذكر الله . وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها أو عدمها . ومنه حديث أبي أيوب « كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ » .

قوله (ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة) .

قوله (ويعجبني الفأل) قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال : تفاءلت بكذا وتفاولت ، على التحقيق والقلب ؛ وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً ، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فان فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء ، والتفاؤل : أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : يا سالم ، أو يكون طالب ضالّة فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته . ومنه الحديث « قيل يا رسول الله ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

قوله (قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة) بين ﷺ أن الفأل يعجبه. فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ليس في الاعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الانسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها ، كما أخبرهم ﷺ أنه حبب اليه من الدنيا النساء

ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال « ذُكرتْ الطِّيرةُ عنده رسول الله ﷺ فقال : « أحسنُها الفألُ ، ولا تَرُدُّ مسلما ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » .

والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع اليه ، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم . وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي اليهما ، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الاعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته ، وميل نفوسهم اليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك ، فاذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوي بها القلب ، واذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفا وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الايمان ومقارفة الشرك .

وقال الحليمي : وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

قوله (ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال « ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فاذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك ») .

قوله (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ التوحيد ، وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكي اختلف في نسبه ؛ فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشي ، وقال غيره : الجهني . واختلف في صحبته ، فقال الماوردي : له صحبة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، وقال المزي : لا صحبة له تصح .

قوله (فقال أحسنها الفأل) قد تقدم أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل . وروى

الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان اذا خرج لحاجته يحب أن يسمع : يا نجيح . يا راشد » وروى أبو داود عن بريدة « أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء ، وكان إذا بعث عاملا سأله عن اسمه فاذا اعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه » واسناده حسن وهذا فيه استعمال الفأل .

قال ابن القيم : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطِّيَرَة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ، ونفع أحدهما ومضرة الآخر ، ونظير هذا : منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لمافيهامن المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله (ولا ترد مسلماً) قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات الا انت) أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات ، وتدفع السيئات ، و « الحسنات » هنا النعم ، و « السيئات » المصائب ، كقوله (٤ : ٧٨ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ؛ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بانها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركا .

قوله (ولا حول ولا قوة إلا بك) استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و « الحول » التحول والانتقال من حال إلى حال ؛ و « القوة » على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته . وهذا هو التوحيد في الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الالهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والارادة ؛ وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

وعن ابن مسعود مرفوعا «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ، الطيرة شرك . وما منا إلا ، ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

ولأحمد من حديث ابن عمرو «ومَنْ رَدَّته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشر قالوا : فما كفارة ذلك ؟

قوله (وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا «الطّيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود) .

ورواه ابن ماجه وابن حبان . ولفظ أبي داود «الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك . ثلاثا» وهذا صريح في تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى .

قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية ؟

قال في شرح السنن : وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله (وما منا إلا) قال أبو القاسم الاصبهاني ، والمنذري : في الحديث إضمار . التقدير : وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك . اهـ

وقال الخلخالي : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة . وهذا من أدب الكلام .

قوله (ولكن الله يذهبه بالتوكل) أي لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله (وجعل آخره من قول ابن مسعود) قال ابن القيم : وهو من الصواب ، فان الطيرة نوع من الشرك .

قال (ولأحمد من حديث ابن عمرو من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك) .

هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، وفي إسناده ابن لهيعة [1] وبقية رجاله ثقات .

قوله (من حديث ابن عمرو) وهو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد . وقيل أبو عبد الرحمن ؛ أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء . مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف [2].

قوله (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع ، فاذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه ، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤما ، فقد دخل في الشرك . كما تقدم ؛ فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه فيكون للشيطان منه نصيب .

قوله (فما كفارة ذلك ؟) إلى آخره . فاذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه ، ولم يلتفت اليه ، كفّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والاعراض عما سواه .

وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه ؛ وأما من لا يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك ، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ، لأنه أعرض عن واجب الايمان بالله ؛ وأن الخير كله بيده ؛ فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته ، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه ؛ فلا خير إلا منه ، وهو الذي يدفع الشر عن عبده ، فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

---

(١) هو عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري قاضيها وعالمها ومسندها . قال الامام أحمد : احترقت كتبه . وهو صحيح الكتاب . ومن كتب عنه قديما فسماعه صحيح . مات سنة ١٧٤ .

(٢) واقعة الحرة وفتنة الحرة . الموقعة التي كانت من أهل الشام في أهل المدينة ، بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثا ، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله «ص» ورضي عنهم ؛ وكان ذلك سنة خمس وستين(*)

(*) قوله (وكان ذلك سنة خمس وستين) اقول الصواب سنة ثلاث وستين .

قال : أن تقول : اللهم لا خيرَ إلا خيرُك ، ولا طَيْرَ إلا طيرُك ، ولا إلهَ غيرك » .

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه « إنما الطِّيرة ما أمضاك أو رَدَّك » .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله (ألا إنما طائركم عند الله) مع قوله(طائركم معكم)

الثانية : نفي العدوى .

الثالثة : نفي الطيرة .

الرابعة : نفي الهامة .

الخامسة : نفي الصفر .

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

الثامنة : أن الواقعَ في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضرُّ ، بل يُذهبه الله بالتوكل .

قوله (وله من حديث الفضل بن عباس « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »)

هذا الحديث عند الامام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال « خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً ، فبرّح ظبي ، فمال في شقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله تطيرت . فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » وفي إسناده انقطاع . أي بين مسلمة راوية وبين الفضل ، وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصُّفَّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . وقال أبو داود : قتل بدمشق . كان عليه درع رسول الله ﷺ .

قوله (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) هذا حد الطيرة المنهي عنها : أنها ما يحمل الانسان على المضي فيما أراده ؛ ويمنعه من المضي فيه كذلك . وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ فيه نوع بشارة ؛ فيسر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده ، فان للقلب عليه نوع اعتماد . فافهم الفرق والله أعلم .

التاسعة : ذكر ما يقول مَنْ وَجده .
العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك .
الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة .

باب

(ما جاء في التنجيم)

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : « خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين .

قوله (باب ما جاء في التنجيم) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

وقال الخطابي : علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر ، وتغير الأسعار ؛ وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها ، واجتماعها وافتراقها ، يدّعون أن لها تأثيراً في السفليات ؛ وهذا منهم تحكمٌ على الغيب ، وتعاط لعلم قد استأثر الله به ؛ ولا يعلم الغيب سواه .

قوله (قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ؛ وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به) .

هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال « إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال . جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ؛ وأخطأ حظه وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به ،

وعلامات يُهتدَى بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ . وأضاع نصيبه ، وكلف ما لا عِلْمَ له به » انتهى .

وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذا الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء » انتهى[1] .

فتأمل ما أنكره هذا الامام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين. وما أزال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار ، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فمقلّ ومستكثر ، وعزّ في الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة به في الدين . فانا لله وإنا اليه راجعون .

قوله (خلق الله هذه النجوم لثلاث) قال تعالى (٦٧ : ٥ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (١٦ : ١٦ وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا ، كما روى ابن مَرْدويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا ، وزينها بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين ، وحفظا من كل شيطان رجيم » .

قوله (وعلامات) أي دلالات على الجهات (يهتدى بها) أي يهتدي بها الناس في ذلك . كما قال تعالى (٦ : ٩٧ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي لتعرفوا بها جهة قصدكم ؛ وليس المراد أنه يهتدي بها في علم الغيب ، كما يعتقده المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة « فمن تأول فيها غير ذلك » أي زعم فيها غير ما

---

(١) في قرة العيون : وقول قتادة رحمه الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به ؛ وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك لأنه ينسب الحوادث الى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى (٣٥ : ٣ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟) وقال (٢٧ : ٦٥ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون) .

ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .

فان قيل : المنجم قد يصدق ؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، ويصدق في كلمة ويكذب في مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً ، فيكون فتنة في حق مَن صدقه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (١٦ : ١٥ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون.وعلامات) فقوله « علامات معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض ، ثم استأنف فقال (وبالنجم هم يهتدون) ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه .

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم ، كقوله « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر . زاد ما زاد[١] » .

وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال « إن مما أخاف على أمتي : التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواه عبد بن حميد . وعن أبي مِحجن مرفوعا « أخاف على أمتي ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم وتكذيباً للقدر » رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعا « أخاف على أمتي بعدي خصلتين : تكذيباً بالقدر ، وإيماناً بالنجوم » رواه أبو يعلي وابن عدي والخطاب في كتاب النجوم وحسنه السيوطي أيضاً . والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

قوله (وكره قتادة تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق) .

قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة فانه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد

---

(١) رواه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس .

تعلُّم منازل القمر ، ولم يُرَخِّص ابن عُيينة فيه . ذكره حرب عنهما ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي ، واذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته . وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فانها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها ؛ مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم . انتهى [1]

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر . وروي عن ابراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به . قال ابن رجب : والمأذون في تعلمه التسيير لا علم التأثير فانه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج اليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله (ذكره حرب عنهما) هو الامام الحافظ حرب بن اسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الامام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم . وله كتاب المسائل التي سئل عنها الامام أحمد وغيره ، مات سنة ثمانين ومائتين . وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري ، الامام المعروف بابن راهويه . روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم . قال أحمد : إسحاق عندنا إمام من

---

(١) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها . وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة ؛ ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئا كثيراً جداً من العوالم العلوية ؛ حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض . وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقا ؛ لانه كعلم الحساب . أما أن ينسب الى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على الأرض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون في المستقبل فهذا هو الذي لا شك في كذبه وأنه ضلال .

وعن أبي موسى قال : قال : رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مُدْمِن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه

أئمة المسلمين . روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم . وروى هو أيضاً عن أحمد . مات سنة تسع وثلاثين ومائتين

قال (وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه) .

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال : صحيح وأقره الذهبي . وتمامه « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة : نهر يجري من فروج المومسات ، يؤذي أهل النار ريح فروجهن » .

قوله (وعن أبي موسى) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضّار — بفتح المهملة وتشديد الضاد — أبي موسى الأشعري صحابي جليل . مات سنة خمسين .

قوله (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها . وقالوا : أمِرُّوها كما جاءت ، وعن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم . وأحسن ما يقال : إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الاسلام فانه يرجع إلى مشيئة الله ، فان عذّبه فقد استوجب العذاب ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته .

قوله (مدمن الخمر) أي المداوم على شربها .

قوله (وقاطع الرحم) يعني القرابة كما قال تعالى (٤٧ : ٢٢ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) الآية .

قوله (ومصدق بالسحر) أي مطلقاً . ومنه التنجيم ؛ لما تقدم من الحديث. وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة .

قال الذهبي في الكبائر : ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه . وأشباه ذلك بكلمات مجهولة. قال : وكثير من الكبائر — بل عامتها إلا الأقل — يجهل خلق من الأمة تحريمه ، وما بلغه الزجر فيه ، ولا الوعيد عليه اهـ .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم .

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك .

الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل .

باب

(ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)

وقول الله تعالى (٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذّبون)

قوله (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء) .

أي من الوعيد ، والمراد : نسبة السُّقيا ومجيء المطر الى الأنواء . جمع « نَوْء » وهي منازل القمر . قال أبو السعادات : وهي ثمان وعشرون منزلة . ينزل القمر كل ليلة منزلة منها . ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٩ والقمر قدرناه منازل) يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق ، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه اليها ، ويقولون « مطرنا بنوء كذا وكذا » وإنما سمي نَوْءاً لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق ، أي نهض وطلع .

قال (وقوله تعالى « ٥٦ : ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) روى الامام أحمد والترمذي — وحسنه — وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « (وتجعلون رزقكم) يقول : شكركم (أنكم تكذبون) تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا : بنجم كذا وكذا » وهذا أولى ما فسرت به الآية . وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم رحمه الله : أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ :

حياتكم : التكذيب به ، يعني القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله (عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرعٌ من جرب » رواه مسلم) أبو مالك اسمه الحرث بن الحرث الشامي . صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا .

قوله (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن (ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل المبعث ، سموا ذلك لفرط جهلهم . وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة [1] .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الاسلام ، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات الى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى (٣٣ : ٣٣ ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى) فان في ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة

---

(١) كتاب مسائل الجاهلية طبع في المطبعة السلفية وهو نفيس جداً ككل كتب شيخ الاسلام التي تفيض علماً ونوراً ، رحمه الله .

قوله (الفخر بالأنساب) أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى (٤٩ : ١٣ إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (٣٤ : ٣٧ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زُلْفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضِّعْفِ بما عملوا وهم في الغُرُفات آمنون) .

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّـــة الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب ، لَيَدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنّ أهونَ على الله من الجُعلان » .

قوله (والطعن في الأنساب) أي الوقوع فيها بالعيب والتنقص . ولما عَيّر أبو ذر رضي الله عنه رجلا بأمه [1] قال له النبي ﷺ « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه . فدل على أن الطعن في الأنساب من عمـــل الجاهلية ؛ وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الاسلام رحمه الله .

قوله (والاستسقاء بالنجوم) أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الامام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أخاف على أمتي ثلاثا : استسقاء بالنجوم . وحَيْف السلطان . وتكذيباً بالقدر » .

فاذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا . فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر . فهذا شرك وكفر . وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً . أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله . كما قال تعالى (٨ : ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

---

(١) وإنما عيره بسوادها فقط . فقال له : يا ابن السوداء . فكيف بالناس اليوم وقـــد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان ؟ .

والنّياحة » .

وقال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرعٌ من جَرَب » رواه مسلم

ويكون الدين كله لله) والفتنة الشرك ، وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلا ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح في الفروع : بأنه يحرم قول « مطرنا بنوء كذا » وجزم في الانصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافا . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء ، فيكون ذلك شركا أصغر . والله أعلم .

قوله (والنياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت [١] لأنها تسخُّط بقضاء الله ، وذلك ينافي الصبر الواجب ، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله (والنائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ؛ هذا مجمع عليه في الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة باذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً . وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعا « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان .

قوله (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) قال القرطبي : السربال واحد السرابيل ، وهي الثياب والقُمُص ، يعني أنهن يُلطّخن بالقطران ، فيكون لهم كالقمص ، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وألمهن بسبب الجرب أشد . وروي عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب [٢]

---

(١) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية .

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى (١٤ : ٤٩ ، ٥٠ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . سرابيلهم من قطران)

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل . فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر »

قال (ولهما [1] عن زيد بن خالد قال « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال قال : أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي ؛ كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرنا بنوْء كذا وكذا فذلك كافر بي ؛ مؤمن بالكوكب) .

زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل . غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله (صلى لنا رسول الله ﷺ) أي بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً . وانما الصلاة لله .

قوله (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل [2] .

قوله (على إثر سماء كانت من الليل) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور ؛ وهو ما يعقب الشيء .

قوله (سماء) أي مطر . لأنه ينزل من السحاب ؛ والسماء يطلق على كل ما ارتفع .

قوله (فلما انصرف) أي من صلاته ، أي التفت إلى المأمومين ، كما يدل عليه قوله « أقبل على الناس » ويحتمل أنه أراد السلام .

قوله (هل تدرون) لفظ استفهام ومعناه التنبيه . وفي النسائي « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة ؟ » وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم .

---

(١) رواه البخاري في الصلاة في باب يستقبل الامام الناس اذا سلم ؛ وفي الاستسقاء في باب قول الله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ورواه مسلم في كتاب الايمان .

(٢) قرية على حدود الحرم ؛ وتسمى الآن الشميسي ، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله « ص » والمشركين سنة ست من الهجرة ؛ وكان هذا الصلح الفتح المبين .

فأما مَن قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مُطرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب »

قوله (قالوا الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه . وذلك يجب [1] .

قوله (أصبح من عبادي) الاضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى (٦٤ : ٢ هو الذي خلقكم : فمنكم كافر ومنكم مؤمن)

قوله (مؤمن بي وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر لأنه أشرك في الربوبية . والمشرك كافر . وان لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وانما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء .

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز . وأيضاً الباء تحتمل معاني ، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ، لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه ؛ وانما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد . فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقا لفساد المعنى [2] . وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والانصاف .

قال المصنف رحمه الله (وفيه التفطن للايمان في هذا الموضع) يشير إلى أنه الاخلاص .

قوله (فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته) فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ما وصف الله به نفسه ووصفه بـه

---

(١) وردهم هذا انما كان يصح حينما كان الرسول « ص » في حياته الدنيا حاضر المجلس فان الواجب رد العلم الى الله ثم اليه . وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا ، فلا ينبغي رد العلم إلا الى الله وحده . فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم « الله ورسوله أعلم » .

(٢) وكذلك مثلها ما يستعمله الجاهلون ، كقولهم : يا ربنا بمحمد وبينته ؛ ونحو ذلك من ألفاظ في توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية .

رسوله من صفات الذات : كالحياة والعلم ، وصفات الأفعال ؛ كالرحمة التي يرحم بها عباده . كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره ، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف .

وفي هذا الحديث : إن نِعَم الله لا يجوز أن تضاف إلا اليه وحده ، وهو الذي يحمد عليها ، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله (وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا) إلى آخره ، تقدم ما يتعلق بذلك .

قال المصنف رحمه الله (وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع) .

يشير إلى أن نسبة النعمة الى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه ، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر ؛ فيكون من كفر النعم ، لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها ، ونسبتها إلى غيره ، كما سيأتي في قوله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) .

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح ، فمنهم من ينسبه الى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إلى إيجاد واختراع ؛ ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث . فنهى الشارع عن إطلاق ذلك ، لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم . انتهى .

قوله : فمنهم من ينسبه نسبة ايجاد — يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك ، كما قال تعالى (٢٩ : ٦٣ ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر ؛ وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره . فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور .

قوله (ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : قال بعضهم : « لقد صدق نوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ فلا أقسم بمواقع

النجوم ٧٦ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ٧٧ إنه لقرآن كريم ٧٨ في كتاب مكنون ٧٩ لا يمسه إلا المطهرون ٨٠ تنزيل من رب العالمين ٨١ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وبلفظه عن ابن عباس قال « مُطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة الله . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا» . فقال : فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) .

هذا قسم من الله عز وجل . يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء . وجواب القسم (إنه لقرآن كريم) فتكون (لا) صلة لتأكيد النفي ؛ فتقدير الكلام ؛ ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . قال ابن جرير : قال بعض أهل العربية : معنى قوله (فلا أقسم) فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد فقيل : أقسم بمواقع النجوم . قال ابن عباس : يعني نجوم القرآن . فانه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا الى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا في السنين بعد[1] ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية . ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وقال مجاهد : مواقع النجوم مطالعها ومشارقها . واختاره ابن جرير . وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه – وهو القرآن – من وجوه :

أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية . فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة . وفي القرآن من الزينة الباطنة ، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين . وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والانس . والنجوم آياته المشهودة العيانية . والقرآن آياته المتلوة السمعية ؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . ذكره ابن القيم رحمه الله .

---

(١) الآية تدل على أنه ما زال في الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجماً . فكان ينزل مباشرة الى النبي « ص » ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين انه نزل الى السماء الدنيا مرة ثم كان ينزل بعد ذلك الى رسول الله « ص » منها .

وإنه لقسَمٌ لو تعلمون عظيم .
٧٧ إنّه لقرآن كريم ٧٨ في كتاب مكنون
٧٩ لا يمسُّه إلاّ المطهّرون

وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) قال ابن كثير : أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه .

وقوله (إنه لقرآن كريم) هذا هو المقسم عليه ، وهو القرآن ، أي إنه وحي الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر . بل هو قرآن كريم أي عظيم كثير الخير لانه كلام الله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فان الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم ؛ وهو من كل شيء أحسنه وأفضله . والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن . قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وقوله (في كتاب مكنون) أي في كتاب معظم محفوظ موقر ، قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون في هذا ؛ فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، وهو المذكور في قوله (٨٠ : ١٣ في صحف مكرمة ١٤ مرفوعة مطهرة ١٥ بأيدي سفرة ١٦ كرام بررة) ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله (لا يمسه إلا المطهرون) فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

قوله (لا يمسه إلا المطهرون) قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لا يمسه الا المطهرون . قال : الكتاب الذي في السماء » ، وفي رواية « لا يمسه الا المطهرون يعني الملائكة » وقال قتادة « لا يمسه عند الله الا المطهرون » . فأما في الدنيا فانه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس » واختار هذا القول كثيرون ، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه . وقال ابن زيد : زعمت قريش

٨٠ تنزيلٌ من ربِّ العالمين ٨١ أفبهذا الحديث أنتم مُدْهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون

أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى (٢٦ : ٢١ وما تنزلت به الشياطين ٢١١ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ٢١٢ إنهم عن السمع لمعزولون) قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية : «لا يجد طعمه إلا من آمن به» .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ؛ وأنزله على رسوله وحياً . لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون (لا يمسه إلا المطهرون) أي من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر معناه الطلب. قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : «ان في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر» [1] .

وقوله (تنزيل من رب العالمين) قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ؛ وليس وراءه حق نافع . وفي هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به .

قال ابن القيم رحمه الله : ونظيره (٣٢ : ١٣ ولكن حق القول مني) وقوله (١٦ : ١٠٢ قل نزّله روح القدس من ربك بالحق) هو إثبات علو الله

(١) قال الحافظ بن كثير : ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري . قال : قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الخ . قال : ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني من عمرو بن حزم وعبدالله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر . وقال الحافظ في التلخيص الحبير : وقد ضعف النووي وابن كثير في الارشاد وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعاً .

والضمير في الآية يعود على الكتاب المكنون ؛ فهي صريحة في أنهم الملائكة . والمقصود بالآية ما قال ابن زيد — الرد على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين ؛ فليس في الآية دليل ولا شبه دليل لمن يقول إن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر في بعضها .

الرابعة : أن من الكفر ما لا يُخْرِج من الملة .

الخامسة : قوله « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للايمان في هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر في هذا الموضع .

الثامنة : التفطن لقوله « لقد صدق نوء كذا وكذا » .

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها لقوله « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ »

العاشرة : وعيد النائحة .

تعالى على خلقه . فان النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله (٣٩ : ٦ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) لأنّا نقول : إن الذي أنزلها فوق سمواته . فأنزلها لنا . ر ه .

قال ابن القيم رحمه الله : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه اليهم ، وانعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويَدعهم هَمَلاً ، ويخلقهم عبثاً . لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقرّ بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله . واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به ؛ وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق . وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس . وذلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله (أفبهذا الحديث أنتم مُدْهنون) قال مجاهد : أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا اليهم ؟

٨٢ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذّبون)

باب

قول الله تعالى (٢ : ١٠٢ ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الإدهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ؛ وتثنى عليه الخناصر ؛ وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ؛ ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا اليه ؛ ولا مخاصمة إلا به ؛ ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ؛ فهو روح الوجود ؛ وحياة العالم ؛ ومدار السعادة ؛ وقائد الفلاح، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا تمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

قوله (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) تقدم الكلام عليها أول الباب ؛ والله تعالى أعلم .

قوله (باب قول الله تعالى ٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الاسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل ، وبنقصها ينقص توحيد الانسان ، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة .

قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) الآية . قال في شرح المنازل (١) : أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو

---

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة المنار .

... اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الارض لا يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة . فان أكثر أهل الارض قد اتخذوا من دون الله انداداً في الحب والتعظيم . ثم قال تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) وفي تقدير الآية قولان : أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) مباهاة ومضاهاة للحق بالانداد (والذين آمنوا أشد حباً لله) من الكفار لأوثانهم . ثم روى عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم . انتهى .

والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالانداد لله ، فان محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الانداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فان فيها قولين أيضاً ، أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله . ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم . والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الاول ويقول : إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب (٢٦ : ٩٧ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ٩٨ إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية [1] وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (٦ : ١ الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم .

---

(١) في قرة العيون : وقد وقع الشرك في الربوبية أيضا في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفا في الكون ونحو ذلك .

وقال تعالى (٣: ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وهذه تسمى آية المحنة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) إشارة الى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها، محبة المرسل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى (٥ : ٥٤ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ذكر لها أربع علامات:

إحداها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمّن «أذلة» هذا المعنى عداه باداة «على». قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وعلى الكافر كالأسد على فريسته، (أشداء على الكفار رحماء بينهم).

العلامة الثالثة [1] : الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: انهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذه علامة صحة المحبة. فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب اليه، والتوسل اليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب، ومن المعلوم قطعا انه لا يتنافس الا في قرب من تحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء فانه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب. فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الارواح وبهجة النفوس، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته؛ فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه

---

(١) لم يذكر الثانيه. ولعله اكتفى بما في كلام عطاء من الاشارة اليها بقوله: وعلى الكافرين

إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ؛ بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها . وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء . فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل في ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد .

قال أبو بكر « جرت مسألة في المحبة بمكة — أعزها الله في أيام الموسم — فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر اليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياء من أستار غيبه ، فان تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين » .

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثاني : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو أعجبها — انكسار القلب بين يديه .

وقوله (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشوْن كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهي [١] وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ؛ والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب .

قوله (وقول الله تعالى « ٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ») .

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثارها ، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : أي إن كانت هذه الأشياء (أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا) أي انتظروا مادا يحل بكم من عقابه . روى الامام أحمد وأبو داود ــ واللفظ له ــ من حديث أبي عبد الرحمن السامي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع . وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم » .

---

(١) وذلك اذا مضى ثلثا الليل كما في حديث النزول

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه ، ويوالي فيه ويعادي فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها .

قوله (وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه) أي البخاري ومسلم .

قوله (لا يؤمن أحدكم) أي الايمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب اليه من نفسه ، كما في الحديث : « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا رسول الله لأنت أحب اليّ من كل شيء الا من نفسي . فقال : والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فانك الآن أحب إليّ من نفسي ، فقال : الآن يا عمر » رواه البخاري .

فمن قال : إن المنفي هو الكمال ، فان أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرّض للعقوبة فقد صدق ؛ وان أراد أن المنفي الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ . قاله شيخ الاسلام رحمه الله .

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب ، كما قال تعالى (٢٤ : ٤٧ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا . ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك . وما أولئك بالمؤمنين) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ ، لكن كل مسلم يكون محبا بقدر ما معه من الاسلام وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمنا وإن لم يكن مؤمنا الايمان المطلق . لأن ذلك لا يحصل الا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : وعامة الناس اذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الاسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله . فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، لكن دخول حقيقة الايمان الى قلوبهم يحصل

ولهما عنه قال قال رسول الله ﷺ « ثلاثٌ مَن كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان

شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لا يصلون الى اليقين ولا الى الجهاد ، ولو شُكّكوا لشكّوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا . إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله مايقدمونه على الأهل والمال،فهؤلاءإن عوفوا من المحنة ماتوا ودخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفي هذا الحديث : أن الاعمال من الايمان . لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فانها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محبا لله فانما يحب في الله ولأجله كما يحب الايمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة اليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله ، التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز الا لله وحده .

قوله (ولهما عنه — أي البخاري ومسلم ، عن أنس رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » وفي رواية « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله الخ ») .

قوله « ثلاث » أي ثلاث خصال .

قوله (من كن فيه) أي وجدت فيه تامة .

قوله (وجد بهن حلاوة الايمان) الحلاوة هنا هي التي يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهي شيء محسوس يجده أهل الايمان في قلوبهم .

قال السيوطي رحمه الله في التوشيح « وجد حلاوة الايمان » فيه استعارة تخييلية . شبه رغبة المؤمن في الايمان بشيء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشيء ، وأضافه اليه .

وقال النووي : معنى حلاوة الايمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته . وكذلك الرسول ﷺ .

قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب في الله : أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء .

قوله (أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما) يعني بالسوي : ما يحبه الانسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها . فتكون « أحب » هنا على بابها .

وقال الخطابي : المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع كذا قال .

وأما المحبة الشركية التي قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافي محبة الله ورسوله وفي بعض الأحاديث « أحبوا الله بكل قلوبكم » فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، ويسعى في مرضاته ما استطاع ، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة ، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه ، كما قال تعالى (٤ : ٨٠ من يطع الرسول فقد أطاع الله) فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه ، فذلك علم على عدم محبته لله ورسوله ، فان محبة الرسول من لوازم محبة الله ، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه . ومن لا فلا ، كما في آية المحنة ونظائرها . والله المستعان .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان . لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له . فمن أحب شيئاً واشتهاه ؛ إذا حصل له مراده فانه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك . واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى . قال : فحلاوة الايمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله . وذلك

وأن يُحِبَّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار »

بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة وتفريغها ، ودفع ضدها . فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ، فان محبة الله ورسوله لا يكتفي فيه بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما .

قلت : ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فانه يحب من عبده أن يطيعه . والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد .

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده . فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الايمان ، كما في حديث ابن عباس الآتي .

قال : وتفريغها . أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، قال : ودفع ضدها أن يكره ضد الايمان كما يكره أن يقذف في النار ، انتهى .

قوله (أحب اليه مما سواهما)فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان :

أحدهما : أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة ، فانها وحدها لاغية . وأمر بالافراد في حديث الخطيب [1] إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم .

الثاني : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا هو الجواز .

---

(١) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عدي بن حاتم «أن خطيباً خطب عند النبي (ص) فقال : من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى . فقال له صلى الله عليه وسلم : بئس الخطيب أنت . قل : من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى » .
قال النووي : سبب الانكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والايضاح ، واجتناب الاشارات والرموز . قال ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه ، قال وانما ثنى الضمير في قوله « أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » لأنه ليس خطبة وعظ وانما هو تعليم حكم ، فكلما قل لفظه كان أقرب الى حفظه بخلاف الخطبة اه .
أقول : ولعلها حادثة حال لها ظروفها التي اقتضت أن يقول رسول الله « ص » ذلك والله أعلم.

وفي رواية « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى » إلى آخره

وعن ابن عباس « مَن أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال وَلاية الله بذلك

وجواب ثالث : وهو أن هذا وارد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح .

قوله (كما يكره أن يقذف في النار) أي يستوي عنده الأمران . وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً وإن تاب منه . والصواب : أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الاسلام ، والاسلام يمحو ما قبله ؛ وكذلك الهجرة . كما صح الحديث بذلك .

قوله (وفي رواية : لا يجد أحد) هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من صحيحه . ولفظها « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف في النار أحب اليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والاجلال والهيبة ولوازم ذلك ، قال الشاعر :

أهابك إجلالا . ومـــا بك قدرة علي ّ . ولكن ملء عين حبيبها

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « من أحبّ في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فانما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الايمان ، وإن كثرت صلاته وصومه ؛ حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئاً » رواه ابن جرير) .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله (من أحب في الله) أي أحب أهل الايمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

قوله (وأبغض في الله) أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عـــن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس اليه ؛ كما قال

ولن يجد عبدٌ طعم الايمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئاً » رواه ابن جرير

تعالى (٥٨ : ٢٢ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسوله ــ الآية) .

قوله (ووالى في الله) هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى أحب فيه ، ووالى أولياءه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره . وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، وبكمالها يكمل توحيد العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ، فمقلّ ومستكثر ومحروم .

قوله (فانما تنال ولاية الله بذلك) أي توليه لعبده . و « ولاية » بفتح الواو لا غير : أي الأخوة [١] والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال « لا يجد العبد صريح الايمان حتى يحب لله ويبغض لله . فاذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله » وفي حديث آخر « أوثق عرى الايمان الحب في الله ، والبغض في الله عز وجل » رواه الطبراني .

قوله (ولن يجد عبد طعم الايمان) إلى آخره . أي لا يحصل له ذوق الايمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه ؛ حتى يكون كذلك ، أي حتى يحب في الله ، ويبغض في الله ، ويعادي في الله ؛ ويوالي فيه .

وفي حديث أبي أمامة مرفوعا « من أحب الله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » رواه أبو داود .

قوله (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا . وذلك لا يجدي على أهله شيئاً) أي لا ينفعهم ، بل يضرهم كما قال تعالى (٤٣ : ٦٧ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (فاذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن

---

(١) لعل كلمة « الأخوة » زائدة أو مبدلة من كلمة أخرى تناسب المقام .

وقال ابن عباس في قوله تعالى (٢ : ١٠٢ وتقطعتْ بهم الأسباب) قال «المودّة»

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال .

الرابعة : نفي الايمان لا يدل على الخروج من الأسلامْ .

الخامسة : أن للايمان حلاوة قد يجدها الانسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الايمان إلا بها .

السابعة : فهم الصحابي للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة : تفسير (وتقطعت بهم الأسباب) .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديدا .

عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة ، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان . وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»[1] . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرباً اليه ، كما قال تعالى(٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال «لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم» رواه ابن ماجه .

قوله (وقال ابن عباس في قوله تعالى (٢ : ١٦٦ وتقطعت بهم الأسباب) قال «المودة») هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه .

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة . والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود . وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحا نفيسا سماه كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة ، طبع مراراً.

قوله (قال المودّة) أي التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا اليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى (٢٩ : ٢٥ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى (٢ : ١٦٦ ؛ ١٦٧ اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب — الآيتين) فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيامة فانهم اتخذوهم أولياء من دون الله . وهذا حال كل من اتخذ من دون الله واوليـــاء ، يوالي لهم ، ويعـــادي لهم ، ويرضى لهم ، ويغضب لهم ، فان اعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، اذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله . وقطع تلك الاسباب ، فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله ؛ ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه . وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها : من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة ، والتقريب والابعاد ، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريداً محضا بريئا من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشرك بينه وبين غيره، فضلا عن تقديم قول غيره عليه . فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه . وهذه هي النسبة التي بين العبد وربه ، وهي نسبة العبودية المحضة ، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه ، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرســـل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ولا سبيل اليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى (٢٥ : ٢٣ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباء منثورا لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلا . وهذا من أعظم الحسرات على العبد يـــوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعاً . وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم . انتهى ملخصاً .

العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية [1] أحب اليه من دينه .
الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر .

باب

قول الله تعالى (٣ : ١٧٥ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

قوله (باب قول الله تعالى « ٣ : ١٧٥ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ») .

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة التي يجب اخلاصها لله تعالى . قال الله تعالى (٢١ : ٢٨ وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى (٥٥ : ٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال تعالى (١٦ : ٥١ فإياي فارهبون) وقال تعالى (٥ : ٤٤ فلا تخشوا الناس واخشون) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير .

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام :

أحدها : خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له (١١ : ٥٤ إن نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) وقال تعالى (٣٩: ٣٦ ويخوفونك بالذين من دونه) وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها ، ويخوفون بها اهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا باخلاص العبادة لله ، وهذا ينافي التوحيد .

الثاني : أن يترك الانسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد . وهذا هو سبب نزول هذه

---

(١) هي الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن .

الآية . كما قال تعالى (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ١٧٤ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم١٧٥ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ــ الآية) وفي الحديث « ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس . فيقول : اياي كنت أحق أن تخشى »[1] .

الثالث : الخوف الطبيعي ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك . فهذا لا يذم . كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام (٢٨ : ٢١ فخرج منها خائفاً يترقب ــ الآية) .

ومعنى قوله (إنما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه) أي يخوفكم أولياءه (فلا تخافوهم وخافون) وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إياه . وهذا هو الاخلاص الذي أمر الله به عباده ورضيه منهم . فاذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٣٩ : ٢٦ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه ــ الآية) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم في صدوركم . فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه ، وكلما ضعف ايمانه قوي خوفه منهم . فدلت هذه الآية على أن اخلاص الخوف من كمال شروط الايمان .

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد بلفظ « لا يحقر أحدكم نفسه ؛ قالوا يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقول فيه ؛ فيقول الله يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا : كذا وكذا ؟ فيقول : خشيت الناس . فيقول : فاياي كنت أحق أن تخشى » ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) الآيات .

وقوله (٩ : ١٨ إنما يَعمُرُ مساجد الله مَن آمن بالله واليوم الآخرِ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)
وقوله (٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل

قوله (وقول الله تعالى « ٩ : ١٨ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله - الآية ») .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها الا أهل الايمان بالله واليوم الآخر ؛ الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين . لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعمله (٢٤ : ٣٩ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) أو (١٤ : ١٨ كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف)وما كان كذلك فالعدم خيرمنه، فلاتكون المساجد عامرة إلا بالايمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل في مسمى الايمان المطلق عند أهل السنة والجماعة .

قوله (ولم يخش إلا الله) قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الانسان يخشى المحاذير الدنيوية . وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه .

وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح الا لله ، كالذل والانابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قوله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : « يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل « عسى » في القرآن فهي واجبة [١] وفي الحديث« إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان قال الله تعالى : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري .

قوله (« ٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله جعل

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس « كقوله لنبيه (ص) (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وهي الشفاعة . وقال محمد بن إسحاق بن يسار « وعسى » في القرآن من الله حق » .

فتنة الناس كعذاب الله ») .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدّعون الايمان بألسنتهم ، ولم يثبت في قلوبهم : أنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم ، فارتدوا عن الاسلام . قال ابن عباس رضي الله عنهما : « يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله »

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الناس إذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه . والفتنة الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا . فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه . فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه ، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه ، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم . فلا بد من حصول الألم لكل نفس ، آمنتْ أو رغبت عن الايمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الايمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير في الألم الدائم ، والانسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتقىً حلّ بين قوم فُجّار ظَلَمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم ، فان وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالاهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم ، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم .

فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس . ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً [1] » .

---

(١) رواه الترمذي عن عائشة عن النبي (ص) وسيأتي في ص ٣٤٢ .

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم .

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الايمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له ، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم . جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به : كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالايمان .

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الايمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب . وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله . فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله . وغُبن كل الغبن إذ استجار من الرّمْضاء بالنار . وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال : إني كنت معكم ، والله اعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق.انتهى .

وفي الآية رد على المرجئة والكَرّامية ، ووجهه : أنه لم ينفع هؤلاء قولهم : آمنا بالله . مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله ، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل . فلا يصدق الايمان الشرعي على الانسان إلا باجتماع الثلاثة : التصديق بالقلب وعمله ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان . وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق . والمعصوم من عصمه الله .

قوله (عن أبي سعيد مرفوعا « إن من ضَعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذُمّهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهيه كاره ») .

هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي ، وأعله بمحمد بن مروان السدي وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفي : ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتمامه « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . .

« إن من ضَعف اليقين أن تُرضيَ الناسَ بسخط الله ، وأن تحمدَهم على رزق الله »

قوله (ان من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك ، ضد القوة ، ضعف ككرم ونصر ، ضعفاً ، وضعفة ، وضعافية ، فهو ضعيف وضعوف وضعفان ، والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعفَى ، أو الضعفُ — بالفتح — في الرأي وبالضم في البدن ، فهي ضعيفة وضعوف . « واليقين » كمال الايمان . قال ابن مسعود « اليقين الايمان كله ، والصبر نصف الايمان » رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الزهد من حديثة مرفوعا . قال :ويدخل في ذلك تحقيق الايمان بالقدر السابق ، كما في حديث ابن عباس مرفوعا « فان استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل ، فان لم تستطع فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا » وفي رواية « قلت يا رسول الله كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك »

قوله (أن ترضي الناس بسخط الله) أي تؤثر رضاهم على رضي الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب . وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك . لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب اليه بما يسخط الله . ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله . ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله ؛ ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق .

قوله (وأن تحمدهم على رزق الله) أي على ما وصل اليك من أيديهم ؛ بأن تضيفه اليهم وتحمدهم عليه . فان المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله اليك ، وإذا أراد أمراً قيّض له أسباباً . ولا ينافي هذا حديث « من لا يشكر الناس لا يشكر الله »[1] لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم ؛ لحديث «ومن صنع اليكم معروفاً فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[2]

---

(١) رواه أبو داود والترمذي — وقال : حسن صحيح — وابن حبان عن أبي هريرة ،

(٢) رواه أبو داود والنسائي باسناد صحيح . كذا في كشف الخفاء .

وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله . إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره »

فاضافة الصنيعة اليهم لكونهم صاروا سبباً في ايصال المعروف اليك ، والذي قدره وساقه هو الله وحده .

قوله (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم فلو قدره لك لساقته المقادير اليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره الى الله ؛ ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث « ان رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره » كما قال تعالى (٣٥ ٢ : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فاذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فانه إنما يحمل الانسان على ذلك إما ميل الى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة . فانك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم . وإرضاؤهم بما يسخطه انما يكون خوفا منهم ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم . فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فاذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ؛ ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفد بني تميم « أي محمد أعطني . فان حمدي زين وذمي شين ، قال النبي ﷺ ذاك الله » . ودل الحديث على أن الايمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الايمان .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه

قوله (وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه) .

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال : «كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها : أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ، ولا تكثري عليّ ، فكتبت عائشة رضي الله عنها: الى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكلّه الله الى الناس . والسلام عليك» ورواه ابو نعيم في الحلية .

قوله (من التمس) أي طلب .

قال شيخ الاسلام : وكتبت عائشة الى معاوية ؛ وروى أنها رفعته «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع . ولفظ الموقوف «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ؛ ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً» وهذا من أعظم الفقه في الدين فان من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده (٦٥ : ٢، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه قد لا يحصل ذلك ؛ لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض واذا تبين لهم العاقبة . «ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً» كالظالم الذي يعض على يديه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً . فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة . فان العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم . اهـ

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

الخامسة : علامة ضعفه . ومن ذلك هذه الثلاث .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

باب

قول الله تعالى (٥ : ٢٣ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

وقد أحسن من قال :

إذا صـــح منك الود يا غاية المنى   فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب .

وفي الحديث : عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله ، وأن العقوبة قد تكون في الدين . عياذاً بالله من ذلك . كما قال تعالى (٩ : ٧٨ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

قوله (باب قول الله تعالى « ٥ : ٢٤ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »)

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر . إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان . إذا اعتمدت عليه ، ووكّل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه . اهـ

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب

إخلاصه لله تعالى ؛ فان تقديم المعمول يفيد الحصر . أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فانه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو من أعظم منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله ؛ كما في هذه الآية ، وكما قال تعالى (١٠ : ٨٤ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، وقوله (٧٣ : ٩ ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إله إلا هو فاتخِذْه وكيلا) ، والآيات في الأمر به كثيرة جداً . قال الامام أحمد رحمه الله « التوكل عمل القلب »

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطا في الايمان فدل على انتفاء الايمان عند انتفائه ؛ وفي الآية الأخرى (١٠ : ٨٤ قال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ؛ واذا ضعف الايمان ضعف التوكل ، واذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الايمان ولا بد . والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والايمان وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والاسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان ، ولجميع أعمال الاسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الايمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل .

قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك (٢٢ : ٣١ ومَنْ يُشركْ بالله فكأنما خرَّ من السماء فتَخْطفُه الطيرُ أو تَهْوِي به الريحُ في مكانٍ سحيق) .

قال الشارح رحمه الله تعالى : قلت : لكن التوكل على الله قسمان : أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر ، أو حفظ أو رزق أو شفاعة . فهذا شرك أكبر .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة هي توكيل الانسان الانسانَ في فعل ما يقدر عليه

وقوله (٨ : ٢ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجِلتْ قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون)

نيابة عنه ، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وُكل فيه ، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب .

قال (وقول الله تعالى «٨ ٢ – ٤ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم – الآيات») .

قال ابن عباس في الآية «المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه [١] » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ووجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه : قال السدي (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال يَهِمّ بمعصية ، فيقال له : اتق الله ، فيجل قلبه [٢] رواه ابن أبي شيبة وابن جرير .

قوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الايمان ونقصانه .

قال عمير بن حبيب الصحابي : «إن الايمان يزيد وينقص ، فقيل له : وما زيادته ونقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته . واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه» . رواه ابن سعد .

وقال مجاهد «الايمان يزيد وينقص وهو قول وعمل» رواه ابن أبي حاتم .

وحكى الاجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى .

---

(١) تمامه عند ابن جرير «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . يقول : تصديقا . وعلى ربهم يتوكلون . يقول : لا يرجون غيره» .

(٢) عند ابن جرير : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية ، أحسبه قال : فينزع عنه .

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين اليه أمورهم فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا اليه ، يعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده ، والمعبود وحده ، لا شريك له . وفي الآية وصف المؤمنين حقا بثلاث مقامات من مقامات الاحسان ، وهي : الخوف ، وزيادة الايمان ، والتوكل على الله وحده . وهذه المقامات تقتضي كمال الايمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة. مثال ذلك الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى (٢٩ : ٤٥ : إن الصلاةَ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، ولَذِكرُ الله أكبرُ) .

قال وقوله (٨ : ٦٤ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ ومَنِ اتبعك من المؤمنين) قال ابن القيم رحمه الله : أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك : فلا تحتاجون معه إلى أحد ، وهذا اختيار شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ؛ فان الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى (٨ : ٦٢ وإن يريدوا أن يَخْدَعوك فإنّ حَسْبَكَ الله ؛ هو الذي أيّدك بنَصْره وبالمؤمنين) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده ؛ وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى (٣ : ١٧٣ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخْشَوْهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ونظير هذا قوله سبحانه (٩ : ٥٩ وقالوا حسبنا الله سيُؤتينا الله من فضله ورسوله ؛ إنّا إلى الله راغبون) . فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده . فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ؛ بل جعله خالص حقه ؛ كما قال (إنا الى الله راغبون) فجعل الرغبة اليه وحده ، كما قال تعالى (والى ربك فارغب) فالرغبة والتوكل والإنابة

والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى . انتهى

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة . فاذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه الى سواه وكله الله الى من التفت اليه ، كما في الحديث « مَنْ تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ اليه » .

قال (وقول الله تعالى « ٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ») .

قال ابن القيم رحمه الله وغيره : أي كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذًى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافيَ عبدِه المتوكل عليه وحسبه وواقيه . فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومَنْ فيهن ، لجعلَ الله له مخرجا وكفاه رزقه ونصره . انتهى .

وفي أثرٍ رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال « قال الله عز وجل في بعض كتبه : بعزتي إنه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فاني أجعل له من ذلك مخرجا،ومن لم يعتصم بي فاني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ثم أكِلُه إلى نفسه . كفى بي لعبدي مآلا . إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني . فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه » .

وفي الآية دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار . لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط . فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْباً له .

وعن ابن عباس قال « حَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ، قالها ابراهيم ﷺ حين أُلقِيَ في النار ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له (إنّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهمْ إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخاري والنسائي »

وفيها : تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل ، كما قال تعالى (٥ : ١١ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها . فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل ، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلا ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها . ذكره ابن القيم بمعناه .

قال (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها ابراهيم ﷺ حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) رواه البخاري .

قوله (حسبنا الله) أي كافينا . فلا نتوكل إلا عليه . قال تعالى (٣٩ : ٣٦ أليس الله بكاف عبده ؟) .

قوله (ونعم الوكيل) أي نعم الموكول اليه . كما قال تعالى (٢٢ : ٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير) ومخصوص « نعم » محذوف تقديره « هو » .

قال ابن القيم رحمه الله : هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ اليه ، وهو الذي يُؤَمِّن خوفَ الخائف ، ويُجير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته اليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه . ومن خافه واتقاه ، أمّنه مما يخاف ويحذر . ويجلب اليه ما يحتاج اليه من المنافع .

قوله (قالها ابراهيم ﷺ حين ألقي في النار) قال تعالى (٢١ : ٦٨ قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ٦٩ قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ٧٠ وأرادوا به كيْداً فجعلناهم الأخسرين) .

قوله (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

فيه مسائل :

الأولى : إن التوكل من الفرائض .

الثانية : أنه من شروط الايمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة : أنها قول ابراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد .

باب

قول الله تعالى (٧ : ٩٩ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ») وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد « بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرّة عليهم ، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكباً حتى انتهى الى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان . فرجع الى مكة بمن معه ، ومرّ به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون محمداً عني رسالة ؟ قالوا : نعم . قال : فاذا وافيتموه فاخبروه أنا قد أجمعنا السير اليه والى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل » ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد . وجاء في الحديث « اذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

قوله (باب قول الله تعالى « ٧ : ٩٩ أفأمنوا مكرَ الله ، فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القوم الخاسرون ») .

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من

أعظم الذنوب . وأنه ينافي كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد اليه سلف الأمة والأئمة .

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه ، كما قال تعالى (٧ : ٩٦ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ٩٧ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون ٩٨ أفأمنوا مكر الله ؛ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أي الهالكون . وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعَم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً .

قال الحسن رحمه الله : « من وسّع الله عليه فلم يرَ أنه يمكر به فلا رأي له » .

وقال قتادة : « بَغَتَ القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوما قطُّ إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم . فلا تغترّوا بالله » .

وفي الحديث « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج » رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال اسماعيل بن رافع : « من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة » رواه ابن أبي حاتم .

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف « يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه .

قال (وقول الله تعالى « ١٥ : ٥٦ ومن يقنطُ من رحمة ربه إلا الضالون ») القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفاً راجياً ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته ، كما قال تعالى (٣٩ : ٩ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمة ربه) وقال (٢ : ٢١٨ إن

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ «سئل عن الكبائر فقال : الشركُ بالله واليأسُ من رَوْح الله ، والأمنُ من مَكْر الله»

الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون الله رحمة والله غفور رحيم) فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان ، ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الايمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفا من الله تعالى وهرباً من عقابه ؛ وطمعاً في المغفرة ورجاء لثوابه .

والمعنى : أن الله تعالى حكى قول خليله ابراهيم عليه السلام ، لما بَشّرته الملائكة بابنه إسحاق (١٥ : ٥٤ قال أبشّرتموني على أنْ مَسّنيَ الكِبر ، فبم تبشرون ؟) لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شيء قدير ، فقالت الملائكة (بشرناك بالحق) الذي لا ريب فيه . فان الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون (فلا تكن من القانطين) أي من الآيسين . فقال عليه السلام (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فانه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم ؛ لكنه — والله أعلم — قال ذلك على وجه التعجب .

قوله (إلا الضالون) قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون . كقوله (١٢ : ٨٧ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «سئل عن الكبائر ؟ فقال : الشرك بالله ؛ واليأس من رَوْح الله ، والأمن من مكر الله »)

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر . فقال ابن معين : ثقة . ولَيّنه أبو حاتم . وقال ابن كثير : في اسناده نظر . والأشبه أن يكون موقوفا .

قوله (الشرك بالله) هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هَضْمٌ للربوبية وتَنَقُّصٌ للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى

ولقد صدق ونصح . قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقال تعالى (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

وعن ابن مسعود قال « أكبرُ الكبائر : الاشراك بالله ، والأمنُ من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأسُ من رَوْح الله » رواه عبد الرزاق .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحِجْر .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط .

قوله (واليأس من روح الله) أي قطع الرجاء الأول والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله (والأمنُ من مكر الله) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الايمان ، نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بهـا .

وأعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْرَ الكبائر في الثلاث ، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة ، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : أو نفي الايمان .

قلت : ومن برىء منه رسول الله ﷺ ، أو قال « ليس منا من فعل كذا وكذا » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار » .

قوله (وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « أكبر الكبائر الاشراك بالله . والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » رواه عبد الرزاق) .

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه .

قوله (أكبر الكبائر الاشراك بالله) أي في ربوبيته أو عبادته . وهذا بالاجماع

باب

(من الايمان بالله : الصبر على أقدار الله)

قوله (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف ، فاذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ؛ بل يرجو رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف ؛ وفي المرض الرجاء . وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره . قال : ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فاذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب . قال تعالى (٦٧ : ١٢ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وقال (١٤ : ٣٧ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) قال تعالى (٢٣ : ٦٠ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) وقال تعالى (٣٩ : ٩ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية . قدّم الحذر على الرجاء في هذه الآية .

قوله (باب من الايمان بالله الصبر على أقدار الله) .

قال الامام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعا من كتابه . وفي الحديث الصحيح « الصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم ، وللبخاري ومسلم مرفوعا « ما أعطِيَ أحد عطاء خيراً أوسع من الصبر » قال عمر رضي الله عنه : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخاري . قال عليّ رضي الله عنه: « إن الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد — ثم رفع صوته — فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما . ذكره ابن القيم رحمه الله .

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عما نهى عنه ، وصبر على ما قدّره من المصائب .

وقوله تعالى (٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه ، والله بكل شيء عليم
قال علقمة « هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلمُ أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم »

قوله (وقول الله تعالى « ٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه ») .

وأول الآية (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) أي بمشيئته وإرادته وحكمته ، كما قال في الآية الاخرى (٥٧ : ٢٢ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وقال (٢ : ١٥٤ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) .

قوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال ابن عباس في قوله (إلا باذن الله) « إلا بأمر الله » يعني عن قدره ومشيئته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) أي من صابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدًى في قلبه ، ويقيناً صادقاً . وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

قوله (والله بكل شيء عليم) تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته . وذلك يوجب الصبر والرضا .

قوله (قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم) .

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وعلقمة : هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي . ولد في حياة النبي ﷺ ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم . وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين .

قوله (هو الرجل تصيبه المصيبة) ألخ . هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان . قال : كنا عند علقمة فقرىء عليه هذه الآية (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم هذا

وفي صحيح مسلم : عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « اثنتان في الناس هُمَا بهم كفرٌ : الطعنُ في النَّسَب ،والنِّياحة على الميت »

سياق ابن جرير . وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الايمان . قال سعيد بن جبير (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يعني يسترجع . يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب وأنها من ثواب الصابرين .

قوله (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت ») .

أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به . لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الايمان يصير مؤمناً الايمان المطلق . وفرْق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله « ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة [1] وبين كفر منكّر في الاثبات .

قوله (الطعن في النّسب) أي عيبه ، يدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه .

قوله (والنياحة على الميت) أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت ، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر ، كقول النائحة : واعضداه ، واناصراه ، ونحو ذلك . وفيه دليل على أن الصبر واجب ، وأنمن الكفر ما لا ينقل عن الملة .

قوله (ولهما عن ابن مسعود مرفوعا « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ») .

هذا من نصوص الوعيد ؛ وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع في النفوس ؛ وأبلغ في الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الايمان الواجب .

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر بن عبدالله بألفاظ متقاربة .

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا «ليس مِنّا مَنْ ضَرب الخدود ، وشَقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوَى الجاهلية»

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له

قوله (من ضرب الخدود) وقال الحافظ : خُص الخد لكونه الغالب ، والا فضرْب بقية الوجه مثله .

قوله (وشق الجيوب) هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت .

قوله (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : هو ندب الميت . وقال غيره : هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم رحمه الله : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعو الى ذلك ويوالي عليه ويعادي ، فكل هذا من دعوى الجاهلية .

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة «أنَّ رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها ، والشاقّة جيبها ، والداعية بالويل والثبور» .

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ؛ وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً وليس على وجه النوح والتسخط . نص عليه أحمد رحمه الله ، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله منهما توفي رسول الله ﷺ .

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء ، لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه ابراهيم قال «تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[1] وفي الصحيحين عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته[2] ولها صبي في الموت ، فرُفع اليه ونفسه تَقَعقع كأنها شَنّ ، ففاضت عيناه، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء» .

قوله (وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إذا أراد الله بعبده

---

(١) رواه البخاري وغيره .

(٢) هي زينب كما في صحيح البخاري .

قال العزيزي : أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها ، فيستوفي ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة هي آخر الحديث . فأما قوله وقال النبي ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء » إلى آخره ، فهو أول حديث آخر ، لكن لما رواهما الترمذي باسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١٦ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ؛ والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

قوله (وقال النبي ﷺ « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء . وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذي) .

قال الترمذي : حدثنا قتيبة ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ، فذكر الحديث السابق ثم قال : وبهذا الاسناد عن النبي ﷺ أنه قال « إن عظم الجزاء ــ الحديث » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه . وروى الامام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه « إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » قال المنذري : رواته ثقات .

قوله (إن عظم الجزاء) بكسر العين وفتح الظاء فيها . ويجوز ضمها مع سكون الظاء . أي من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية .

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط ، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح ، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار . فانه حينئذ يثاب على ما تولد منها ، وعلى هذا يقال في معنى الحديث : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب .

وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم . فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذي .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن .

قوله (وإن الله اذا أحب قوماً ابتلاهم) ولهذا ورد في حديث سعد « سئل النبي ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فاذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعا ، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى ، فيحرم قصدهم والرغبة اليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة ، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى .

قوله (فمن رضي فله الرضاء) أي من الله تعالى ؛ والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى (٩٨ : ٨ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه) ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل : فاذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب في ثوابه ؛ وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل لهم والحزن في الشك والسخط .

قوله (ومن سخط) وهو بكسر الخاء ، قال أبو السعادات : السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به . أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط ؛

الثانية : أن هذا من الايمان بالله .

الثالثة : الطعن في النسب .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

باب

(ما جاء في الرياء)

أي من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضاء وهو اختيار ابن عقيل . واختار القاضي عدم الوجوب ، ورجحه شيخ الاسلام وابن القيم .

قال شيخ الاسلام : ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر . وانما جاء الثناء على أصحابه . قال : وأما ما يروى « من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربا سوائي » فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ .

قال شيخ الاسلام : وأعلى من ذلك — أي من الرضا — أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . اهـ والله أعلم .

قوله (باب ما جاء في الرياء) .

أي من النهي والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية . والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة . والسمعة لما يُسمع كالقراء والوعظ والذكر ؛ ويدخل في ذلك التحدث بما عمله .

وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠ قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحَى إليّ انما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

وعن أبي هريرة مرفوعا «قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ،

قوله (وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠ قل إنما بشر مثلكم يوحي إليّ انما إلهكم إله واحد) أي ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء ، بل ذلك كه لله وحده لا شريك له أوحاه إليّ (فمن كان يرجو لقاء ربه) أي يخافه (فليعمل عملاً صالحا ولا يشرك بعباة ربه أحداً) قوله (أحداً) نكرة في سياق النهي تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية : أي كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له ، فكما تفرد بالألهية يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة .

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله ، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه ؛ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته ؛ ويدعو الناس إلى عبادته ، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان ، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب اليه بأنواع العبادة أو بعضها ، أو شاك في التوحيد : أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم مَنْ قَبلهم ؛ لما اشتدت غُرْبَةُ الدين ونُسيَ العلم بدين المرسلين .

قوله (وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا «قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . ومن عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم) .

وعن أبي سعيد مرفوعاً «ألا أخبرُكم بما هو أخوَفُ عليكم عندي من المسيح الدّجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الشرك الخفي : يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته لما يرى من نظرِ رجل» رواه أحمد

وأما إن أحدكم أعطي دراهم غزا وإن لم يعط لم يغز فلا خير في ذلك» . وروى ابن مجاهد رحمه الله أنه قال في حج الجمّال وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تام لا ينقص من أجرهم شيء» أي لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء ؛ فان كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الامام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يُجازَى بنيته الأولى ؛ وهو مروي عن الحسن وغيره . وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ «أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ، فقال : تلك عاجل بُشرى المؤمن» رواه مسلمٌ . انتهى ملخصاً .

قلت : وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله (وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا بلى ؛ قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يَرى من نظر رجل» رواه أحمد) .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لَبيد قال : «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس ؛ إيّاكم وشِرْكَ السرائر ، قالوا يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل اليه . فذلك شِرْكُ السرائر» .

قوله (عن أبي سعيد الخدري) وتقدم .

قوله (الشرك الخفي) سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . وعن شداد بن أوس قال : «كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص ؛ وابن جرير في التهذيب ، والطبراني والحاكم وصححه

فيه مسائل :
الأولى : تفسير آية الكهف .
الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .
الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .
الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء .
الخامسة : خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء .
السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يـزيّنها لما يرى، من نظر رجل اليه .

باب

(من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا)

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، وما لي إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده ، انتهى .

ولا خلاف ان الاخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى (٦٧ : ٢ ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال « أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صوابا ؛ فالخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة » .

وفي الحديث عن الفوائد : شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال . فاذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره .

وقوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون: ١٦ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ وحبط ما صنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون)

قوله (باب من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا) .

فان قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة ، وهو ما إذا أراد الانسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء ، فهذا رياء كما تقدم بيانه ، كحال المنافقين . وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطلب المدحة منهم والاكرام . ويفارق الرياء بكونه عمل عملا صالحا ، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالا ، كما في الحديث «تعس عبدُ الدينار» أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى (١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) .

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ، ويحبط الأعمال ، وهو أعظم من الرياء ، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال (وقوله تعالى «١١ : ١٥ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ١٦ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النارُ وحَبِط ما صَنَعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون») .

قال ابن عباس رضي الله عنه : «من كان يريد الحياة الدنيا» أي ثوابها . وزينتها ، أي مالها . نوفّ ، أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد «وهم فيها لا يبخسون» لا ينقصون ، ثم نسختها (١٧ : ١٨، ١٩ من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) الآيتين . رواه النحاس في ناسخه

قوله « ثم نسختها » أي قيدتها . فلم تبق الآية على إطلاقها [1] .

وقال قتادة : « من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة » ذكره ابن جرير بسنده ، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حَيوة ابن شريح قال : حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عُقبة بن مسلم حدثه أن شُفَيّ بن ماتع الأصبحي حدثه (أنه دخل المدينة فاذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة . قال فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ؛ وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا قلت : أنشُدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقَلته وعلمته . قال : فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغة [2] ، ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه غيري أحد وغيره . ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغة أخرى ، ثم مال خارّاً على وجهه ، واشتد به طويلا . ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم ، وكلُّ أمة جاثية . فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله تبارك وتعالى للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يا رب . قال :

---

(١) من العجيب جداً دعوى النسخ (*). فانّ الآيتين في معنى واحد . وتفسير النسخ بتقييد مطلقها – يعني بالمشيئة – كذلك غير واضح ، والظاهر أنها لا تثبت رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(*) قوله (من العجيب جدا دعوى النسخ) الخ . اقول ليس في ذلك ما يتعجب منه لان معنى النسخ عند السلف اوسع من معناه عند الفقهاء لان السلف يطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام لكونهما غيرا المعنى المفهوم من النص المطلق والنص العام ، ومعلوم ان آية هود مطلقة ظاهرها ان مريد الدنيا باعماله يعطى مراده ، وآية الاسرى بينت انه لا يعطى من ذلك الا ما شاء الله وان ذلك ايضا لا يحصل الا لمن اراده الله ، فاتضح من ذلك ان طالب الدنيا باعماله قد يعطى مراده اذا شاء الله ذلك ، وقد يعمل ولا يحصل له ما اراد لان الله سبحانه لم يشأ ذلك ، وهذا واضح جدا ، والله اعلم .

(٢) نشغ بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة ؛ أي شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً وخوفاً .

فماذا عملت فيما عملت ؟ قال : كنت أقوم أثناء الليل ـآناء النهار . فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ؛ ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك . ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فما عملت فيما اتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ؛ وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جواد ؛ فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له : فبماذا قتلت؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة »(١) .

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك : العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله : من صدقة وصلاة ، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الانسان أو يتركه خالصا لله ، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب . وهذا النوع ذكره ابن عباس .

النوع الثاني : وهو أكبر من الأول وأخوف ، وهو الذي ذكره مجاهد

---

(١) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره و قال أبو عثمان الوليد : فأخبرني عقبة أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا . قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم : أنه كان سيافا لمعاوية – قال : فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : وقد فعل بهؤلاء هذا ؟ فكيف بمن بقي من الناس؟ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هلك ، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر . ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال : صدق الله ورسوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) قال المنذري ؛ورواه ابن خزيمة في صحيحه .

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «تَعِس عبدُ الدينار ، تَعِسَ عبدُ الدرهم ، تعِسَ عبدُ الخميصة ،

في الآية : أنها نزلت فيه : وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا ، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية ؛ كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عمل يكفّره كفراً يخرجه عن الاسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ؛ أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الاسلام بالكلية ؛ إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة؟ لكنهم على أعمال تخرجهم من الاسلام وتمنع قبول أعمالهم ؛ فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ؛ وكان السلف يخافون منها ؛ قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول (٥ : ٢٧ إنما يتقبل الله من المتقين) .

ثم قال : بقي أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله ، طالباً ثواب الآخرة ؛ ثم بعد ذلك عمل أعمالا قاصداً بها الدنيا ، مثل أن يحج فرضه الله ، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع ، فهو لما غلب عليه منهما . وقد قال بعضهم : القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلّص وأهل النار الخلص ، ويسكت عن صاحب الشائبتين . وهو هذا وأمثاله اهـ .

قوله (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «تَعِس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخَميصة ، تعس عبد

تعس عبدُ الخميلة ، إن أُعطي رضي ، وإن لم يُعط سخِط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتُقِش »

الخَميلة ، إن أعطي رضي ، وان لم يُعط سخط ، تعِس وانتُكِس ، واذا شيك فلا انتُقِش . طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه ، مُغبّرة قدماه ، إن كان في الحراسة ، وان كان في الساقة كان في الساقة . إن استأذن لم يؤذن له ، وان شَفع لم يشفع) .

قوله (في الصحيح) أي صحيح البخاري .

قوله (تعس) هو بكسر العين ويجوز الفتح ، أي سقط ، والمراد هنا هلك . قاله الحافظ ، وقال في موضع آخر : وهو ضد سَعد . أي شقي . قال أبو السعادات . يقال تعس يتعس إذا عثَر وانكب لوجهه . وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله (عبد الدينار) هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن .

قوله (تعس عبد الدرهم) وهومن الفضة ، قدره الفقهاء بالشعير وزناً ، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة سماه عبداً له ، لكونه هو المقصود بعمله ، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكا له في عبوديته كما هو حال الاكثر .

قوله (تعس عبد الخميصة) قال أبو السعادات : هي ثوب خزّ أو صوف معلّم ، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلّمة ، وتُجمع على خمائص . والخميلة بفتح الخاء المعجمة . وقال أبو السعادات : ذات الخمل ، ثياب لها خَمَل من أي شيء كان .

قوله (تعس وانتكس) قال الحافظ : هو بالمهملة ، أي عاوده المرض . وقال أبو السعادات : أي انقلب على رأسه . وهو دعاء عليه بالخيبة . قال الطيبي : فيه الترقي بالدعاء عليه . لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه . وإذا انتُكس انقلب على رأسه بعد أن سقط .

قو له (وإذا شيك) أي أصابته شوكة (فلا انتقش) أي فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش قاله أبو السعادات .

والمراد أن من كانت هذه حاله فانه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه في العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة . وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ، لكونه تعس وانتكس ، فلانال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه «إن أعطي رضي ، وإن مُنعَ سَخِط» كما قال تعالى (٨ : ٥٨ ومنهم من يَلمِزُكَ في الصدقات ؛ فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعْطَوا منها إذا هم يَسْخَطون) فرضاؤهم لغير الله ؛ وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رِقّ القلب وعبوديته ، فما استرقّ القلب واستعبده فهو عبده — إلى أن قال : —

وهكذا أيضاً طالب المال ، فاذ ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان، فمنها ما يحتاج اليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ؛ فهذا يطلب من الله ويرغب اليه فيه . فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً .

ومنها : ما لا يحتاج اليه العبد ، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها ؛ فاذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ «تعس عبد الدينار ؛ تعس عبد الدرهم ؛ تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة» وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله ، فان الله إذا أعطاه إياها رضي ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه

ما يسخط الله ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ويبغض الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله ، فهذا الذي استكمل الايمان . انتهى ملخصاً .

قوله (طوبى لعبد) قال أبو السعادات : « طوبى » اسم الجنة ، وقيل : هي شجرة فيها ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال « قال رجل : يا رسول الله وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » ورواه الامام أحمد : حدثنا حسن بن موسى سمعت عبدالله بن لهيعة حدثنا دَرّاج أبو السمح أن أبا الهيثم [1] حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ « إن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وله شواهد في الصحيحين وغيرهما . وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ها هنا أثراً غريباً عجيباً . قال وهب رحمه الله : «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها : زَهْرها رياط ، وورقها بُرود [2] وقضبانها عَنْبَر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، ووَحْلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة ، بينما هم في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح من حسنها ، ووبَرها كخزّ المرعِزيّ من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان . كما صرح بذلك الامامان أحمد وأبو داود . وقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد أن رسول الله (ص) قال « ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها »

(٢) الرياط : جمع ريطة – بفتح الراء المهملة – ثوب كالملاءة . قيل : كل ثوب رقيق لين . والبرد : كالعباءة(*) .

(*) قوله (والبرد كالعباءة) فيه نظر ، والصواب ان البرد لا يشبه العباءة بل هو نوع آخر ، قال في القاموس ما نصه (البرد بالضم ثوب مخطط جمعه ابراد وابرد وبرود ، واكسية يلتحف بها الواحدة بالهاء) انتهى .

وإستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال : فيركبونها ، قال : فهي أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش . خبَبًا من غير مهنة ، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها ، ولا بَرك راحلة برك صاحبتها ، حتى إن الشجرة لتتنحي عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا اليه ، فاذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والاكرام ؛ قال : فيقول تبارك وتعالى عند ذلك ، أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي ، مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري . قال فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ، ولم نقدرك حق قدرك ، فأئذن لنا بالسجود قدامك . قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة ، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة ، فسلوني ما شئتم . بأن لكل رجل منكم أمنيته . فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : ربي ؛ تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فآتني من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قصّرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد . قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم [1] التي في أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقَرّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة . على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة . في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة . في كل قبة منها جاريتان من الحور العين . على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة . وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما . ولا ريح طيب إلا قد عَبَق بهما . ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة . حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة . يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء . يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهما مثل ذلك . ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ما ظننا أن الله

---

(١) في ابن جرير « حتى يقصروهم أمانيهم » وفي ابن كثير « حتى تقصر بهم أمانيهم » .

يخلق مثلك . ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له » .

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد : « فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم ، فاذا بقباب في الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء ، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها . فلولا أنه مُسَخَّر إذاً لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض ، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالارجوان الأصفر ، مُبَوَّبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرَفها من قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان . فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ؛ تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حَكَمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعسها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظروهم ليزورهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم ؛ فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان ؛ وفيهما من كل فاكهة زوجان ؛ وحور مقصورات في الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم) وربَّنا . قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربَّنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي ، فعند ذلك قالوا (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في

أخَذَ بعِنان فرَسه في سبيل الله أشْعَثَ رأسهُ ، مُغْبَرَّةً قدماه . إن كان في الحِراسة كان في الحِراسة . وإن كان في السَّاقة كان في السَّاقة . إن استأذَنَ لم يُؤْذَنْ له . وإن شَفَعَ لم يُشَفَّعْ »

الصحيحين [1] .

وقال خالد بن مَعدان « إن في الجنة شجرة يقال لها لوبى ، ضُروع كلها ، ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سَقْط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن اربعين سنة » رواه ابن أبي حاتم .

قوله (أخذ بعنان فرسه في سبيل الله) أي في جهاد المشركين .

قوله (أشعث) مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل ، و(رأسه) مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر .

قوله (مغبرة قدماه) هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله (إن كان في الحراسة كان في الحراسة) هو بكسر الحاء أي حمسا الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قوله (كان في الحراسة) أي غير مقصر فيها ولا غافل ، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله (وإن كان في الساقة كان في الساقة) أي في مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه في مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلا أو نهاراً ، رغبة في ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته .

قال ابن الجوزي رحمه الله : وهو خامل الذكر لا يقصد السمو .

وقال الخلخالي : المعنى ائتماره بما أمر ، وإقامته حيث أقيم . لا يفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة . انتهى . وفيه فضل الحراسة في سبيل الله .

---

(1) قال هذا الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة الرعد (١٣ : ٢٩ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وقال فيه ابن كثير : انه سياق غريب وأثر عجيب اه . وظاهر عليه صبغة الاسرائيليات الملفقة . وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفة التي تمجها الفطر السليمة وقد فتن الناس بهذه الاسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الانسان الدنيا بعمل الآخرة .

الثانية : تفسير آية هود .

الثالثة : تسمية الانسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أعطيَ رضيَ ، وإن لم يعط سخط .

الخامسة : قوله « تعِسَ وانتكس » .

السادسة : قوله « وإذا شيك فلا انتقش » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

قوله (ان استأذن لم يؤذن له) أي ان استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة . لأنه ليس من طلابها . وانما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه .

قوله (وان شفع) بفتح أوله وثانيه (لم يشفّع) بفتح الفاء مشدددة . يعني لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الامراء ونحوهم .

وروى الامام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا « رُبَّ أشعثَ مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه » .

وروى الامام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان رضي الله عنه – وهو يخطب على منبره « إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ . لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم . سمعت رسول الله ﷺ يقول : حرسُ ليلة في سبيل الله أفضل من الف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن المبارك قال عبدالله بن محمد قاضي نصيبين حدثني محمد بن ابراهيم بن أبي سُكينة أنه أملى عليه عبدالله بن المبارك هذه الأبيات بطَرَسوس وواعده الخروج . وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

باب

(من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله) .

وقال ابن عباس : « يُوشِكُ أن تنزلَ عليكم حجارة من السماء ، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ »

أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا	رَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينـا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبّار خيل الليل في	أنف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننـا :	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت: نعم قال لي : اكتب هذا الحديث ، وأملى عليّ الفضيلُ بن عياض : حدثنـا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة « أن رجلا قال : يا رسول الله علمني عملا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله ، فقال : هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبي ﷺ : فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله ، أما علمت أن فرس المجاهد ليَسْتَنّ في طِوَله فيكتب له بذلك حسنات ؟[1] » .

قوله : (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله) .

لقول الله تعالى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما

---

(١) روى البخاري حديث سؤال الرجل هذا عن أبي هريرة . وفيه : فقال أبو هريرة : إن فرس المجاهد ليستن يمرح في طوله فيكتب له حسنات» والطول : الحبل . والاستنان : العدو ، وروى مسلم مثله قريباً منه في فضل الجهاد في سبيل الله .

يشركون) وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه .

قوله (وقال ابن عباس رضي الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ »)

قوله (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة أي يقرب ويسرع .

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال له « إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ، ويريان ان افراد الحج أفضل » أو ما هو معنى هذا ؛ وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول « إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة اشواط فقد حلّ من عمرته شاء أم أبى » لحديث سُراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة ويُحلّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة « يا رسول الله ألِعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل للابد » والحديث في الصحيحين ، وحينئذ فلا عذر لمن استفتي أن ينظر في مذاهب العلماء واما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى (٤ : ٥٩ فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدي لأحللت [1] » هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها . ولفظه في حديث جابر « إفعلوا ما أمرتكم به فلولا أني سقتُ الهدْي لفعلت مثل الذي أمرتكم » في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء — الحديث » .

---

(١) قال ذلك حين امرهم في حجة الوداع أن يفسخوا بحجهم الى العمرة ، ليكونوا متمتعين . ووجدوا في أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم الى منى ، وقصر المدة التي يقيمونها في مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا : نذهب الى منى ومذاكيرنا تقطر منياً » انظر زاد المعاد في حجة الرسول ص .

وقال الامام أحمد «عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحتَه ، ويذهبون إلى

وقال الامام مالك رحمه الله تعالى (ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه . إلا صاحب هذا القبر ﷺ » .

وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير .

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع فمن أصاب منهم فلــه اجران ، ومن أخطأ فله أجر ، كما في الحديث [1] ، لكن إذا استبان لهــم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم . وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث ، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد . وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده بالتُّلقي والسماع ؛ ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين . ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها ، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا في كل مذهب ؛ وذكروا حجج المجتهدين . فسهل الأمر على طالب العلم . وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده ، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من يبلغه الدليل فلم يأخذ به — تقليداً لامامه — فانه يجب الانكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل .

وقال الامام احمد : حدثنا احمد بن عمر البزاز ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ » .

وعلى هذا فيجب الانكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائناً من كان ، ونصوص الأئمة على هذا ؛ وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسـائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع اليه من كتاب ولا سنة ؛ فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله : لا إنكار في مسائل الاجتهاد . وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك واحمد . وذلك مجمع عليه ، كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى .

---

(١) « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا أخطأ فله أجر » .

قوله : « وقال الامام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك » .

هذا الكلام من الامام احمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب . قال الفضل عن احمد « نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أو تصيبهم فتنة — الآية) فذكر من قوله : الفتنة الشرك — إلى قوله — فيهلك » . ثم جعل يتلو هذه الآية « ٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وقال أبو طالب عن احمد وقيل له « إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره ، فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الاسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره ، قال الله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الكفر . قال الله تعالى (٢ : ٢١٧ والفتنة أكبر من القتل) فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي » ذكر ذلك عنه شيخ الاسلام رحمه الله تعالى .

قوله (عرفوا الاسناد) أي إسناد الحديث وصحته ، فاذا صح إسنادالحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء .

وسفيان : هو الثوري الامام الزاهد العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة . كالتمهيد لابن عبد البر . والاستذكار له ، وكتاب الاشراف على مذاهب الاشراف لابن المنذر . والمحلى لابن حزم ، والمغني لأبي محمد عبدالله بن احمد بن قدامة الحنبلي . وغير هؤلاء .

فقول الامام أحمد رحمه الله : « عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته الخ »

أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أتدري ما الفتنة ؟ الفتنه الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

إنكار منه لذلك . وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافراً . وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه ، فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد . والاجتهاد قد انقطع [1] ويقول : هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه ، ويمنع قوله بدليل ، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك : أن ينتهي اليه ويعمل به ، وإن خالفه من خالفه ، كما قال تعالى (٧ : ٣ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى (٢٩ : ٥١ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقد تقدم حكاية الاجماع على ذلك ، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم ، وقد حكى أيضا ابو عمر ابن عبد البر وغيره الاجماع على ذلك .

قلت : ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة ، لجهلهم بالكتاب والسنة ، ورغبتهم عنهما ، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فانهم في الحقيقة قد خالفوهم ، واتبعوا غير سبيلهم . كما قدمنا من قول مالك والشافعي واحمد ، ولكن في كلام احمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم وانما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول امام من الأئمة ، وذلك انما ينشأ عن الاعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والاقبال على كتب من تأخروا والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم (٩ : ٣ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) كما سيأتي بيان

---

(١) في قرة العيون : وقد أخطأوا في ذلك .. وقد استدل الامام أحمد رحمه الله بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » أن الاجتهاد لا ينقطع .

ذلك في حديث عدي بن حاتم ، فيجب على من نصح نفسه اذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة ، فان كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب الى مذهبه لا بد أن يذكر دليله ، والحق في المسألة واحد ، والأئمة مثابون على اجتهادهم ؛ فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً الى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون ، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه ، والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر وفي السنة كذلك ، كما أخرج ابو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ « أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً الى اليمن قال : كيف تقضي اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله تعالى ، قال : فان لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : فان لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله » وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن — بمعناه » .

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ؛ وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء .

قال أبوحنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولي لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ . وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال اتركوا قولي لقول الصحابة .

وقال الربيع سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت .

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ .

عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم. وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)فقلت له: إنا لسنا نعبدهم.

وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لمقلد بعد هذا . ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى[١]

قوله (لعله إذا رد بعض قوله) أي قول الرسول ﷺ (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب ، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره) فاذا كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك ، أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم أن افضاءه الى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية ، فإفضاؤه الى الكفر انما هو لما يقترن بـه من الاستخفاف في حق الأمر ، كما فعل ابليس لعنه الله تعالى اهـ .

و قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة » قال : « يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه » .

قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت « عن » لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين .

قوله (أو يصيبهم) في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ .

قوله (عن عدي بن حاتم رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم – الآية) فقلت : « انا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله

---

(١) في قرة العيون : فعل من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به متبعاً للدليل مع من كان معه . وبالله التوفيق .

قال أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحللون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت لى . قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي انكرها عدي .

الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية : وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين . وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه) .

هذا الحديث قد روي من طرق ؛ فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي

قوله (عن عدي بن حاتم) أي الطائي المشهور . وحاتم هو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج ــ بفتح الحاء ــ المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة . فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة .

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقوله تعالى في آخر الآية : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ونظير ذلك قوله تعالى : (٦ : ١٢١ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن اطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم ، لعدم عتبارهم الدليل إذا خالف المقلّد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره ، أو يحرم ؛ فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة . ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوهوا

بذم من يعمل بالدليل ؛ ولا ريب أن هذا من غربة الاسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل :

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه . ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا . وقد قال تعالى (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين) .

وعن زياد بن حُدَير قال : قال : لي عمر رضي الله عنه : « هل تعرف ما يهدمُ الاسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلّة العالم ؛ وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمي .

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

باب (قول الله تعالى : (٤ : ٦٠ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك — الآيات) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب السنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ؛ وهو المراد بالطاغوت ههنا .

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت ، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ؛ فان التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله

ﷺ ومن كان يحكم بهما ، فمن تحاكم الى غيرهما فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها . وكذلك من عبد شيئاً دون الله فانما عبد الطاغوت ؛ فان كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة الى الشيطان الذي أمره بها ، كما قال تعالى : (١٠ : ٢٨ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ٢٩ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كُنّا عن عبادتكم لغافلين ٣٠ هنالك تَبْلُو كلُّ نفس ما أسلفت ورُدوا الى الله مولاهم بالحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) وكقوله: (٣٤ : ٤٠ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم ؛ بل كانوا يعبدون الجنَ أكثرهم بهم مؤمنون) وان كان ممن يدعو الى عبادة نفسه أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناما على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ؛ ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنا من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله ، فهو الذي دعا الى كل باطل وزّينه لمن فعله ؛ وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فالتوحيد : هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى (٦٠ : ٤ قد كانت لكم أُسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الامام مالك رحمه الله « الطاغوت ما عُبِد من دون الله » .

وكذلك من دعا الى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه ، وجعل لله شريكا في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله : (وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) وقوله تعالى : (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا

٦١ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يصدون عنك صدوداً ٦٢ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) .

يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بان حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ؛ أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده فقد خلع رِبْقة الاسلام والايمان من عنقه . وإن زعم أنه مؤمن، فان الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم في زعمهم الايمان لما في ضمن قوله : « يزعمون » من نفي ايمانهم ، فان « يزعمون » إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها ، يحقق هذا قوله : « وقد أمروا أن يكفروا به » لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما في آية البقرة فاذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً والتوحيد هو أساس الايمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه . كما أن ذلك بين في قوله تعالى : (٢ : ٢٥٦ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ــ الآية) وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم الى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه : ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله ؛ وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد . فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

ففي هذه الآية أربعة أمور . الأول : أنه من إرادة الشيطان : الثاني : انه ضلال . الثالث : تأكيده بالمصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدله على أنه كلام رب العالمين ، أوحاه إلى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الامين . صلوات الله وسلامه .

قوله (وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه ، وان زعم أنه مؤمن فانه في غاية البعد عن الايمان .

وقوله (٢ : ١١ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحـــن مصلحون)

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله (ويصدون) لازم وهو بمعنى يعرضون . لأن مصدره «صدوداً» فما أكثر من اتصف بهذا الوصف ، خصوصاً ممن يدعي العلم . فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطىء كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده ، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله ، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا .

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الاعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع . والله المستعان .

قوله : (٢ : ١١ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحـــن مصلحون) قال أبو العالية في الآية : يعني لا تعصوا في الأرض . لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى : (١٢ : ٧٠ — ٧٢ ثم أذّن مؤذن : أيتُها العيرُ إنكم لسارقون — إلى قوله — قالوا تالله لقد علمتم ما قد جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد في الأرض .

وفي الآية : التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى . وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة ؛

وقوله (٧ : ٥٦ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً . إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومنّ عليه بقوة داعي الايمان ، وأعطاه عقلا كاملا عند ورود الشهوات ، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم .

قوله (٧ : ٥٦ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) قال أبو بكر بن عياش في الآية : إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد ، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا الى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء الى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء الى طاعة الله ، فان عبادة غير الله والدعوة الى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك بـه ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ ، هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ . فاذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة الى غير الله ورسوله . اه

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى (٤ : ١٥ ومن يشاقق

الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

قوله (وقول الله تعالى « ٥ : ٥٠ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ») .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه . فصارت في بنيه شرعا يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير [1] .

قوله : (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) إستفهام إنكار ، أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى . وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك ؛ أي ومن أعدل من الله حكما لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده القادر على كل شيء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ؟ .

وفي الآية ؛ التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسوله ؛ فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ؛ وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

---

(١) ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم اليها في الدماء والفروج والأموال ، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع الى الحكم بما أنزل الله . ولا ينفعه أي اسم تسمى به ، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها .

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب الحجة باسناد صحيح .

قوله : (عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووي : حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة باسناد صحيح) .

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصْر بن ابراهيم المقدسي الشافعي في كتاب « الحجة على تارك الحجة » باسناد صحيح كما قاله المصنف رحمه الله عن النووي . ورواه الطبراني وأبو بكر ابن عاصم ، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار ، وشاهده في القرآن قوله تعالى (٤ : ٦٥ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم — الآية) وقوله : (٣٣ : ٣٦ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله : (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) ونحوه هذه الآيات .

قوله : (لا يؤمن أحدكم) أي لا يكون من أهل كمال الايمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون في درجة أهل الاساءة والمعاصي من أهل الاسلام .

قوله : (حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . « الهوى » بالقصر ، أي ما يهواه وتحبه نفسه وتميل اليه ، فان كان الذي تحبه وتميل اليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه الى ما يخالفه . فهذه صفة أهل الايمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الايمان كماله الواجب ، كما في حديث أبي هريرة « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1] يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الايمان الواجب وينزل عنه في درجة الاسلام وينقص إيمانه ، فلا يطلق عليه الايمان إلا بقيد المعصية ، أو الفسوق ، فيقال : مؤمن عاص ، أو يقال : مؤمن بايمانه فاسق بمعصيته ؛ فيكون معه مطلق الايمان الذي لا يصح

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

إسلامه إلا به[1] . كما قال تعالى : (٥ : ٩٢ فتحرير مؤمنة) والأدلة عن ما عليه سلف الأمة وأئمتها : أن الايمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية : من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر ، فمن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٤٣ وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة ، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس « آمركم بالايمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله الحديث ، وهو في الصحيحين والسنن . والدليل على أن الايمان يزيد قوله تعالى (٧٤ : ٣١ ويزداد الذين آمنوا إيمانا) الآية . وقوله (٩ : ١٢٤ وأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً — الآية) خلافا لمن قال : إن الايمان هو القول ، وهم المرجئة ، ومن قال : من الايمان هو التصديق كالأشاعرة . ومن المعلوم عقلا وشرعا أن نية الحق تصديق ، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة ولله الحمد والمنة . قال الله تعالى (٢ : ١٧٧ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا) أي فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة . وشاهده في كلام العرب قولهم : حملة صادقة . وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهاً ، فقال تعالى (٢٥ : ٤٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال بعض المفسرين : لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الانسان لا يكون مؤمنا كامل الايمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها . فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه ، وقد ورد

---

(١) في قرة العيون : وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر . وهذا هو الذي يذهب اليه أهل السنة والجماعة خلافا للخوارج والمعتزلة ، فان الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلون لا يطلقون عليه الايمان ويقولون بتخليده في النار ، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة . وقد قال تعالى (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب اليه أهل السنة . فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير » .

القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع ،وذم سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى (٤٧ : ٢٨ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ، فان زادت المحبة حتى أتى بما ندب اليه منه كان ذلك فضلا. وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فان زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلا . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، فيرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فان عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع الى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت . فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين بأتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى (٢٨ : ٥٠ فان لم يستجيبوا لك فأعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله ؟) وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء ، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجبُ فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموما ، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الايمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله [1] فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموما ، وبهذا يكون الدين كله لله . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب . فتجب التوبة من ذلك : انتهى ملخصاً .

---

(١) لما روى البخاري وغيره « ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . وأن يكره أن يعود الى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » .

وقال الشعبي « كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد — لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود ، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة . فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما اليه فنزلت (ألم تر إلى الذين يزعمون) الآية

وقيل : نزلت في رجلين اختصما فقال « أحدهما نترافع الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ثم ترافعا الى عمر ، فذكر له أحدهما القصة ، فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم : أكذلك ؟ قال نعم : فضربه بالسيف فقتله » .

ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الايمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم .

قوله (وقال الشعبي) هو عامر بن شُراحيل الكوفي ، عالم أهل زمانه ، وكان حافظاً علامة ذا فنون . كان يقول : « ما كتبت سوداء في بيضاء[1] » وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة . قاله الذهبي .

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . ويكون أشد عداوة منهم لأهل الايمان . كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين . وحرصهم على إطفاء نور الاسلام والايمان : ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم ؛ وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه ، قال تعالى (٦٦ ٩ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم — الآية) وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق ، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له والاظهار لعداوته فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر : سمعت جابراً يقول : قال رسول الله ﷺ « من لكعب بن الأشرف ؟ فانه قد آذى الله ورسوله، قال محمد بن مسلمة : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال نعم قال : أئذن لي فلأقل ،

---

(١) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة .

قال : قل ، فأتاه فقال له ، وذكر ما بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنّانا . فلما سمعه قال : وأيضاً والله لتملُّنّه ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره ، قال : وقد أردتُ أن تُسلفني سلفاً ، قال : فما ترهنني ؟ قال : ما تريد . قال : ترهنني نساءكم ؟ قال : أنت أجمل العرب ، أنرهنك نساءنا ؟ قال : ترهنوني أولادكم ؟ قال : يُسبُّ ابن أحدنا فيقال : رُهن في وَسْقين من تمر . ولكن نرهنك اللأمة — يعني السلاح — قال : فنعم . وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس بن جبر وعباد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلا فنزل اليهم — قال سفيان قال غير عمرو : قالت له امرأته : إني أسمع صوتا كأنه صوت دم ، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة [1] إن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلا لأجاب ، قال محمد : إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه ، فاذا استمكنت منه فدونكم ، قال : فلما نزل وهو متوشح . فقالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم ، تحتي فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لي أن أشم منه ؟ قال : نعم . فشم ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لي أن أعود ؟ قال : فاستمكن من رأسه . ثم قال : دونكم قال : فقتلوه » .

وفي قصة عمر : بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما في الصحيحين وغيرهما : أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فانه قال « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » فصلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) قال النووي : هكذا هو في جميع النسخ . قال القاضي رحمه الله : قال لنا شيخنا القاضي الشهيد : صوابه أن يقال : انما هو محمد ورضيعه أبو نائلة . وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعاً لمحمد بن مسلمة . ووقع في صحيح البخاري « ورضيعي » أبو نائلة » .

باب

من جحد شيئاً من الأسماء والصفات : وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) .

قوله (باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ــ وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠ وهل يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي ؛ لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) .

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم «الرحمن» عناداً ؛ وقال تعالى (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى) «والرحمن» اسمه وصفته ، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه ؛ وهي من صفات الكمال ، فاذا كان المشركون جحدوا اسما من اسمائه تعالى ، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك ، فان جَهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى . وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلةوالأشاعرة وغيرهم . فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكائيّ الامام حكاه عنـــ هم بل حكاه قبله الطبراني

فان هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على صل باطل أصّلوه من عند أنفسهم ؛ فقالوا : هذه الصفات هي صفـــات الأجسام . فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما ، هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهـــوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ؛ فشبهوا أولا وعطلوا ثانياً . وشبهوه

وفي صحيح البخاري قال علي « حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله ؟ » .

ثالثاً بكل ناقص ومعدوم ، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته . وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ، فانهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، فان الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتا لا تشبه للذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله لا تشبه صفاته صفات خلقه ؛ فانهم منوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا . فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين .

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت : كالامام احمد رحمه الله تعالى في رده المشهور ، وكتاب السنة لابنه عبدالله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكناني في رده على بشر المريسي ، وكتاب السنة لأبي عبدالله المروزي ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد . وهو بشر المريسي ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي ؛ وكتاب السنة لأبي بكر الخلال ، وأبي عثمان الصابوني الشافعي ، وشيخ الاسلام الانصاري؛ وأبي عمر بن عبد البر النمري ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم ؛ وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبدالله ابن احمد بن قدامة ، وشيخ الاسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى . فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم

قوله (وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله) .

« علي » هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ، وأحد الخلفاء

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس « أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات — استنكاراً لذلك — فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رِقة عند مُحكمه ، ويهلكون عند متشابهه » انتهى .

الراشدين . وسبب هذا القول — والله أعلم — ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث ، وكثرة القصاص وأهل الوعظ . فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل [1] ؛ فربما استنكرها بعض الناس وردها . وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح ، فيقع بعض المفاسد لذلك ، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملا ، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب ، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته ، وكثرة خوضهم وجدلهم .

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته ، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي : كالمنعش ، والمرعش ؛ والتبصرة لما في ذلك من الاعراض عما هو أوجب وأنفع ، وفيها ما الله به وأعلم مما لا ينبغي اعتقاده . والمعصوم من عصمه الله .

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهي القصاص عن القصص ، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك ؛ ويقول « لا يقص إلا أمير أو مأمور » وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملا ونية وقصداً ، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) وقد كان هؤلاء القصاص لعدم تحريهم الصدق سبباً في وضع كثير من الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكرها أئمة الجرح والتعديل ، وحذروا الناس منها . ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمسانيد . فلا ينبغي لاحد اليوم أن ينسب الى النبي صلى الله عليه وسلم حديثا الا بذكر من خرجه ، وخير وأولى : أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف ، اذا كان في غير الصحيحين .

قوله (وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس «أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك ، فقال : ما فَرَق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه») .

قوله (وروى عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعاني المحدث محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري . وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً .

ومعمر — بفتح الميمين وسكون العين — أبو عروة بن أبي عَمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري يروى عنه كثيراً .

قوله (عن ابن طاوس) هو عبدالله بن طاوس اليماني . قال معمر : كان من أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عُيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله (عن أبيه) هو طاوس بن كَيْسان الجَنَدي بفتح الجيم والنون — الامام العلم ، قيل : اسمه ذكوان ، قاله ابن الجوزي .

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم ، قال في تهذيب الكمال : عن الوليد الموقري عن الزهري قال «قدمت على عبدالملك بن مروان فقال : من أين قدمت يا زهري ؟ قال قلت : من مكة ، قال : ومن خلّفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قال قلت : بالديانة والرواية . قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا . قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء ، قال : إنه لينبغي ذلك . قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت من الموالي ، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل . قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مِهْران ، قال : فمن العرب أم من الموالي ، قال قلت : من الموالي . قال فمن يسود أهل خراسان ؟ قال قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال قلت :

من الموالي . قال فمن يسود أهل البصرة ؟ قال قلت : الحسن البصري ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي . قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال قلت : ابراهيم النخعي ، قال : فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت : من العرب قال : ويلك يا زهري فرجت عني ، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . قال قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دين : من حفظه ساد ومن ضيعه سقط » .

قوله (عن ابن عباس) قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعا له النبي ﷺ وقال « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » وروى عنه أصحابه أئمة التفسير : كمجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله (ما فرق هؤلاء) يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس ، فاذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرَق أي خوف ، فاذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الايمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين[1] قال الذهبي : حدث وكيع عن اسرائيل بحديث « إذا جلس الرب على الكرسي » فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع . وقال « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبدالله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية . وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الايمان به ، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الايمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى (٣ : ٧ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخَر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا ،

---

(١) قال الشيخ رحمه الله في قرة عيون الموحدين : وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في صحيح مسلم وغيره . فقتل من دعاتهم غيلان . قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر . ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية ، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة . اه

وما يذّكر إلا أولو الألباب) فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله عنهما تركوا ما وجب عليهم من الايمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن ؟ وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله فيحمله على غير معناه ، كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ؛ فان الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ؛ والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ؛ ورد المتشابه إلى المحكم . وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان ؛ فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه .

(ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه)

قال في الدر المنثور : أخرج الحاكم — وصححه — عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » .

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى (٣ : ٧ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه — الآية) قال : طلب القوم التأويل ، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ؛ وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (آيات محكمات) قال « منهن قوله تعالى (٦ : ١٥١ — ١٥٣ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى ثلاث آيات ، ومنهن (١٧ : ٢٣ — ٣٩ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى آخر الآيات » .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر « الرحمن » أنكروا ذلك . فأنزل الله فيهم (وهُمْ يَكْفُرُون بالرحمن) .

فيه مسائل :

الاولى : عدم الايمان بجحد شيء من الأسماء والصفات

الثانية : تفسير آية الرَّعْد .

الثالثة : تركُ التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العِلّة أنه يُفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه .

مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم « المحكمات الناسخات التي يعمل بهن . والمتشابهات المنسوخات » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أسحق بن سويد أن يحيى بن يَعْمُر وأبا فاختة تراجعا هذا الآية (هُنّ أمُّ الكتاب) فقال أبو فاختة « هن فواتح السور . منها يستخرج القرآن « الم ذلك الكتاب » منها استخرجت البقرة و « الم الله لا إله إلا هو » منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى : هن اللاتي فيهن الفرائض ، والأمر والنهي والحلال والحرام . والحدود وعماد الدين [1] » .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « المحكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ؛ ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه « وأخر متشابهات » في الصدق ، لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان « إنما قال (هن أم الكتاب) لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن (وأخر متشابهات) يعني فيما بلغنا « الم » و « المص » و « المر » .

---

(١) تمام الأثر عند ابن جرير « وضرب لذلك مثلا . فقال : أم القرى مكة . وأم خراسان مرو . وأم المسافرين : الذي يجعلون اليه أمرهم . ويعنى بهم في سفرهم . قال فذاك أمهم » .

قلت : وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله (ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم (١٣ : ٣٠ وهم يكفرون بالرحمن) روى ابن جرير عن قتادة : (وهم يكفرون بالرحمن) ذكر لنا أن نبي الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال مشركوا قريش [1] : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله فقال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله دعنا نقاتلهم . فقال لا اكتبوا كما يريدون : إني محمد بن عبدالله فلما كتب الكاتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم . فقال أصحابه . دعنا نقاتلهم . قال : لا . ولكن اكتبوا كما يريدون » وروى أيضاً عن مجاهد قال قوله (١٣ : ٣٠ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) قال « هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية ، كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا : لا تكتب الرحمن ، لا ندري ما الرحمن ؟ لا نكتب الا باسمك اللهم قال الله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) الآية .

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً : يا رحمن يا رحيم . فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى . فأنزل الله (١٧ : ١١٠ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) الآية .

---

(١) الذي كان يقول ذلك . هو سهيل بن عمرو الذي ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

باب

قوله تعالى (١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)

قال مجاهد ما معناه «هو قول الرجل : هذا مالي ورثته عن آبائي»

وقال عون بن عبدالله «يقولون لولا فلان لم يكن كذا»

وقال ابن قتيبة «يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا»

قوله (باب قول الله تعالى «١٦ : ٨٣ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون»).

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء في معناها. وقال ابن جرير : فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة . فذكر عن سفيان عن السدي (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال «محمد ﷺ» وقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ، ولكنهم ينكرون ذلك . فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وأخرج عن مجاهد «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، قال : هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره ، بأن تقول : هذا كان لآبائنا فورثونا إياه» وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من : رزقكم ؟ أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم ثم ينكرونه بقولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر [١] النحوي اللغوي ، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة ، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته . توفي سنة ست وسبعين ومائتين .

وقال آخرون : ما ذكره المصنف (عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي) أبو عبدالله الكوفي الزاهد عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري ، وثقه احمد وابن معين قال البخاري : مات بعد

---

(١) لعله قاضي الدينور ، فانه لم يتول القضاء الا فيها .

وقال أبو العباس بعد حديث زَيْد بن خالد الذي فيه أن الله تعالى قال « أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر – الحديث » وقد تقدم – : وهذا كثير في الكتاب والسنة يَذُمّ سبحانه مَنْ يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .
قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة والملاح حاذقا ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

العشرين ومائة (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال « انكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا » واختار ابن جرير القول الاول ، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها . وهو الصواب والله أعلم .

قوله (قال مجاهد) هو شيخ التفسير : الامام الرباني ، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول عرضت المصحف على ابن عباس مرات ، أقفه عند كل آية وأسأله : فيم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟ توفي سنة اثنتين ومائة . وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله .

قوله (وقال أبو العباس) هو شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الامام الجليل رحمه الله – بعد حديث زيد بن خالد – وقد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء . قال : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا . ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير . اهـ

وكلام شيخ الاسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها ، وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمه الله : وفيه اجتماع الضدين في القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب .

باب

قول الله تعالى (٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

قوله (باب قول الله تعالى « ٢ : ٢٢ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »).

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله ؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ؛ ويشفع لهم . وهذه الآية في سياق قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو العالية : لا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك واسماعيل بن أبي خالد .

وقال ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أي لا تشركوا بالله شيئاً من الانداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول اليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه . وكذلك قال قتادة . وعن قتادة ومجاهد (لا تجعلوا لله أنداداً) قال أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله . وقال ابن زيد : الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له . وعن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أنداداً) أشباهاً . وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد في التوراة والانجيل . وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة ، وهو ما في مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن . وأنه كاد أن يبطىء بها . فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر

بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي . إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي . قال : فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً : فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده . فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة فان الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت . فاذا صليتم فلا تلتفتوا . وآمركم بالصيام ؛ فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك . وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة : فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله كثيراً : فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله . قال : وقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله ، فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي [1] جهنم . قالوا يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ فقال : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين عباد الله » .

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه في هذه الآية قوله « إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود

---

(١) الجثا : بضم الميم وفتح الثاء المثلثة مقصوراً — جمع جثو بضم الجيم — وهو الشيء المجموع قال ابن الاثير : ويروى هذه الكلمة « جثي » بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء — جمع جاث : وهو الذي يجلس على ركبتيه .

قال ابن عباس في الآية « الأنداد هو الشركُ ، أخفى من دَبيبِ النملِ على صَفاة سوداء في ظُلمة الليل . وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلانة . وحياتي ، وتقول : لولاَ كُليبة هذا لأتانا اللصوص . ولولا البطُّ في الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلانا . هذا كلُّه به شركٌ » رواه ابن أبي حاتم

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

الصانع ، وهي دالة على ذلك بطريق الاولى . والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جداً . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل في نبـات الارض وانظر ... إلى آثار مـا صنـع المليك

عيون مـن لُجين ناظرات ... بأحداق هي الذهب السبيك

على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس لــه شريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً ، كيف يعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد ؟

وفي كل شيء لــه آيــة ... تدل على أنــه واحـد

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذه لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلانا . هذا كله به شرك » . رواه ابن أبي حاتم) بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك : فتنبه لهذه الأمور . فانها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر . وهـذا من ابن عباس رضي الله عنهمـا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى .

قوله (وعن عمر بن لخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من

«من حلفَ بغير الله فقد كفر ، أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم .

وقال ابن مسعود: «لأن أحلفَ بالله كاذبا أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»

حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[1] رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم)

قوله (فقد كفر أو أشرك) يحتمل أن يكون شكا من الراوي ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك . ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر . كما هو من الشرك الاصغر . وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ .

قوله (وقال ابن مسعود «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا») .

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر . وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك ، فاذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار ؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به ، والرغبة اليه ، وإنزال حوائجه به ؛ كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها : من تعظيم القبور ، واتخاذها أوثانا ، والبناء عليها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه ، والاقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال . وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل اليه . قال الله تعالى (٧ : ٣٧ فمن أظلم

---

(١) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه : انما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذي يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه ان كان كاذبا . ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذبا غير مبالين . فاذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدن له السر والتصرف تكمكموا وصدقوا وان كان في ذلك ذهاب بعض ما يحرصون عليه من منفعة ، يضحون بها خوفا من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم . ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادي باعتقاد العامة في أوليائهم . فيحكون أن رجلا سرق سمكة مملحة ، وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شيء . فاستحلفه باحمد البدوي . فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها . وذلك منهم اعتقاد أن البدوي أغير وأعز وأقدر من الله . قبحهم الله وأخزاهم .

وعن حُذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تقولوا

ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب . حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا. وقد قال تعالى (٧٢ :١٨ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) وقال تعالى (٧٢ : ٢٠ – ٢١ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ . فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله حتى قال قائلهم :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـــه — سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي — فضلا ، وإلا فقل : يا زلة القدم

فــان من جودك الدنيــا وضرتها — ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر الى هذا الجهل العظيم حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله ، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه ﷺ بقوله « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبــد فقولوا عبد الله ورسوله » رواه مالك وغيره [١] ، وقد قال تعالى (٦ : ٥٠ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) .

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله . وهذا الذي يقوله هذا الشاعر [٢] هو الذي في نفوس كثير خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة . ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات فانا لله وإنا اليه راجعون .

قوله (وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « لا تقولوا ما شاء الله

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس عن عمر في باب قول الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم) من كتاب أحاديث الأنبياء وفي كتاب الحدود في باب رجم الحبلى في الزنا اذا أحصنت . قال الحافظ في الفتح (ج ٦ ص ٣١٤) تقول : أطريت فلا نا . مدحته فأفرطت في مدحه .

(١) هو الأبو صيري في قصيدته المشهورة بالبردة ؛ التي هي عند الناس بمنزلة القرآن وربما عظمها بعضهم أكثر . فانه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن .

ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح .

وجاء عن ابراهيم النخعي « أنه يكره أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول: بالله ثم بك . قال ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا اللهُ وفلانٌ »

فيه مسائل :

الاولى : تفسير آية البقرة في الأنداد .

الثانية : أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقا فهو أكبر من اليمين الغموس .

الخامسة : الفرق بين الواو وثُمَّ في اللفظ .

وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ، ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح) .

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه ، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع . فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً . وتسوية المخلوق بالخالق شرك ؛ إن كان في الأصغر – مثل هذا – فهو أصغر ، وإن كان في الأكبر فهو أكبر . كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة (٢١ : ٩٧ تالله إن كنا لفي ضلال مبين ٩٨ إذ نسويكم برب العالمين) بخلاف المعطوف بثم . فان المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة . فلا محذور لكونه صار تابعاً .

قوله (وعن ابراهيم النخعي « أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان . لا تقولوا لولا الله وفلان) .

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك . هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء . وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر . فلا يقال في حقهم شيء من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه ، والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً

باب

(ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تحلفوا بآبائكم . من حُلف له بالله فليُصَدِّق . ومن حُلِف له بالله فليَرْضَ . ومن لم يرضَ فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن .

من ذلك ؛ أو رغب اليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر ، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسراً وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله :

أخي ، لن تنال العلم إلا بستـــة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيـــان
ذكاء وحرص ، واجتهاد وبلغـــة ... وإرشاد أستاذ ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ؛ وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى (٤ : ١١٣ وعلمناك ما لم تكن تعلم . وكان فضل الله عليك عظيما) .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال :

والجهـــل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن ، أو من سنة ... وطبيب ذاك العـــالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ، ما لها ... من رابع ، والحق ذو تبيـــان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكـــذلك الأسمـــاء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعـــاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيـــان

قوله (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

(عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض . ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن) .

قوله (لا تحلفوا بآبائكم) تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموما .

فيه مسائل :

الاولى : النهي عن الحلف بالآباء .

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض .

قوله (من حلف بالله فليصدق) هذا مما أوجبه الله على عباده وحضهم عليه في كتابه . قال تعالى (٩ : ١١٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال (٣٣ : ٣٥ والصادقين والصادقات) وقال (٤٧ : ٢١ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى (٢ : ١٧٧ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وقوله (من حُلف له فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله) أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضا . وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك . فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه . كما في الأثر عن عمر رضي الله عنه «ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملا» .

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم انه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد ؛ كما في الحديث[1] وهو من مكارم الأخلاق .

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه وحقوق عباده ، وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع

---

(١) رواه الترمذي — وقال : حسن صحيح — وابن حبان ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي (ص) قال «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وان الله ليبغض الفاحش البذيء» ورواه أبو داود مختصراً .

باب
قول «ما شاء الله وشئتَ»

عن قُتَيلة «أن يهودياً أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : إنكم تشركون . تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : وربِّ الكعبة . وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه .

عليهم . فان فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه وترك ما يجب تركه من ذلك ، دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم .

قوله (باب قول ما شاء الله وشئت) .

(عن قُتَيلة «أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون . تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه) .

قوله (عن قتيلة) بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة ، لها حديث في سنن النسائي ، وهو المذكور في الباب . ورواه عنها عبدالله بن يسار الجعفي .

وفيه : قبول الحق ممن جاء به كائنا من كان . وفيه : بيان النهي عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل . ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه . وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله .ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة : فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع . فميِّز أيها

وله أيضاً عن ابن عباس « أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتني لله نداً ، بل ما شاء الله وحده »

المكلف بين ما يشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

قوله (إنكم تشركون . تقولون ما شاء الله وشئت) والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ؛ ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى (٨١ : ٢٨ لمن شاء منكم أن يستقيم ٢٩ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله (٧٦ : ٢٩ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ٣٠ وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما) .

وفي هذه الآيات والأحاديث : الرد على القدرية والمعتزلة ، نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتي ما يبطل قولهم في « باب ما جاء في منكري القدر »إن شاء الله تعالى ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه ، من أفعال العباد وأقوالهم . فالكل بمشيئة الله وارادته . فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه . وما خالفه كرهه من العبد . كما قال تعالى (٣٩ ٧ إن تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر — الآية) وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك . فان النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله « إنكم تشركون » .

قوله (وله أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما [1] « أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت ، قال : أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده ») .
هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك ، لوجود التسوية في العطف بالواو .

وقوله (أجعلتني لله نداً) فيه بيان أن من سوّى العبد بالله ولو في الشرك

---

(١) قال ابن كثير : ج ١ ص ١٠٤ وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح — عن يزيد ابن الأصم عن ابن عباس — وساقه . رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه . وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد . والله أعلم .

ولابن ماجه : عن الطُّفيل أخي عائشة لأمها قال « رأيتُ كأني أتيت على نفرٍ من اليهود قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عُزير ابنُ الله . قالوا : وانكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون : المسيحُ

الأصغر فقد جعله نداً لله شاء أم أبى ، خلافاً لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عباده ، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه . ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

قوله[1] (ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال «رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود ؛ فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود، قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون عزير بن الله : قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله؛ قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله وحده ») .

قوله (عن الطفيل أخي عائشة لأمها) هو الطفيل بن عبدالله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها ، صحابي له حديث عند ابن ماجه ، وهو ما ذكره المصنف في الباب .

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها . فنهاهم أن يقولوا ما شاء الله وشاء محمد . وأمرهم أن يقولوا « ما شاء الله وحده » .

---

(١) قال ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ١٠٤) وقال حماد بن سلمة : حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها — وساقه — ثم قال : — هكذا رواه ابن مردويه في تفسير الآية . وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه .

ابن الله . قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحتُ أخبرت بها من أخبرت ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم ، قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ فإن طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها . فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ماشاء الله وحده » .

وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا « ما شاء الله وحده » . ولا ريب أن هذا أكمل في الاخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا « ثم شاء فلان » لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد في كل وجه . فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والاخلاص .

قوله (كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها) ورد في بعض الطرق « أنه كان يمنعه الحياء منهم » [1] وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغا ، فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين واتم له به النعمة ، وبلّغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وفيه معنى قوله ﷺ « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » [2] .

---

(١) لعل النبي كان يمنعه (ص) أنه لم يكن الله أوحى اليه فيها شيئاً . فلما أوحى اليه بلغه أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي (*) ، فهذا ما لا يليق برسول الله (ص) والله أعلم .

(*) قوله (اما الحياء في تبليغ الاوامر والنواهي) الخ . اقول هذا كلام جيد ، والجواب عن الرواية التي ذكرها الشارح وهي قوله (ورد في بعض الطرق انه كان يمنعه الحياء منهم) ان يقال ان صحت هذه الرواية فمعنى ذلك انه كان عليه الصلاة والسلام يستحي منهم ان ينهاهم عن شيء لم يوحي اليه ان ينهي عنه ، وان كان هو يستحسن تركه ، فلما جاءه الوحي بالنهي عنه بسبب الرؤيا المذكورة نهاهم عن ذلك ، كما امرهم صلى الله عليه وسلم بالتماس ليلة القدر في السبع الاواخر من رمضان لما تواطئت رؤياهم على انها في السبع الاواخر وكان ذلك سببا لشرعية مزيد الاجتهاد في السبع المذكورة .

(٢) هذا الحديث انما يخبر به النبي (ص) عما كان يرى قبل النبوة (**) وهو يتحنث في غار حراء من الرؤيا التي كانت تجيء مثل فلق الصبح . وذلك في الدور الذي كان يعده الله فيه لتلقي=

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .

الثانية : فهم الانسان إذا كان له هوى .

الثالثة : قوله ﷺ « أجعلتني لله نداً » فكيف بمن قال : « ما لي من ألوذ به سواك » والبيتين بعده . -

الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله « يمنعني كذا وكذا » .

الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي .

السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام .

قلت : : وإن كانت رؤيا منام فهي وحي يثبت بها ما يثبت بالوحي أمراً ونهياً . والله أعلم .

=الوحي . وكان ذلك الدور ستة أشهر . وهي بالنسبة الى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً منها . والله أعلم .

(**) قوله (هذا الحديث انما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عما كان يرى قبل النبوة) الخ . يريد الشيخ حامد رحمه الله بهذا الكلام ان قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الرؤيا الصالحة انها جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة ، انه خبر عما قد وقع ومضى ، وليس الامر كذلك بل الروايات الواردة في هذا الباب تدل على ان مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، الخبر عن جنس الرؤيا في الماضي والمستقبل وانها تفيد وتحصل بها البشرى وان فائدتها جزء من اجزاء النبوة المتضمنة الاخبار عن المغيبات ، ولهذا اختلفت الفاظ الروايات في ذلك ففي بعضها جزء من خمسة واربعين جزءاً ، وفي بعضها جزء من ستة واربعين جزءاً وفي بعضها جزء من سبعين جزءاً من النبوة ، وفي بعضها غير ذلك ولو كان المراد ما قاله الشيخ حامد لم تتنوع العبارات عنها ، ووجه التنوع والله اعلم أن الرؤيا الصالحة في حد ذاتها تختلف بحسب صلاح الرائي وما يكتنف رؤياه من القرائن والشواهد ، الدالة على صدق الرؤيا وقد نص العلماء على ما ذكرناه قال النووي رحمه الله في شرح مسلم ما نصه (قال القاضي اشار الطبري الى ان هذا الاختلاف راجع الى اختلاف حال الرائي فالمرء من الصالح تكون رؤياه جزء من ستة واربعين جزءاً والفاسق جزء من سبعين جزءاً ، وقيل المراد ان الخفي منها جزء من سبعين والجلي جزء من ستة واربعين) ثم نقل عن الخطابي عن بعض أهل العلم نحو ما قاله الشيخ حامد ، ثم نقل عن المازري ما نصه (وقيل المراد ان المنامات شبها مما حصل له وميز به من النبوة بجزء من ستة واربعين) انتهى والله أعلم .

باب

« من سَبَّ الدهرَ فقد آذَى الله »

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤ وقالوا ما هي إلا حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيْـا وما يُهْلِكُنا إلا الدَّهْر وما لهم بذلك من عِلْم إنْ هُمْ إلا يَظنُّون)

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ ، أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ » .

قوله (باب من سب الدهر فقد آذى الله) .

وقول الله تعالى (« ٤٥ : ٢٤ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ») .

قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقولـه الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة . وتقول الفلاسفةالدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ؛ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا (وما يهلكنا إلا الدهر) قال الله تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أي يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان ابن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ؛ يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر . أقلب الليل والنهار [1] » . وفي رواية « لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر » وفي رواية « لا يقل ابن آدم : يا خيبة الدهر . فإني أنا الدهر . أرسل الليل والنهار ؛ فإذا شئت قبضتهما [2] » اهـ .

---

(١) في ابن كثير « أقلب ليله ونهاره » .

(٢) هذه الرواية ليست في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا . وهي في تفسير البغوي .

قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون اليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ؛ فاذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر . اه باختصار .

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق [1] . قال « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا ، فقال الله في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . ويسبون الدهر . فقال الله عز وجل « يؤذيني ابن آدم ؛ يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

وكذا رواه ابن ابي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به .

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله عز وجل : استقرضت عبدي فلم يعطني ، ويسبني عبدي ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر » .

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما إنما سبوا الله سبحانه . لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون اليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل في تفسيره — وهو المراد — والله أعلم .

---

(١) أي من طريق سفيان بن عيينه عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي « ص » قال « كان أهل الجاهلية إلخ » .

وفي رواية « لا تسبوا الدهر . فان الله هو الدهر »

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن سب الدهر .

الثانية : تسميته أذى الله .

الثالثة : التأمل في قوله « فان الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه .

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث. اه .

وقد بين معناه في الحديث بقوله « أُقلِّبُ الليلَ والنهار » وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهي قوله « بيدي الأمر » .

قوله (وفي رواية « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر ») .

معنى هذه الرواية : هو ما صرح به في الحديث من قوله « وأنا الدهر ؛ أقلب الليل والنهار » يعني أن ما يجري فيه من خير وشر بارادة الله وتدبيره ، بعلم منه تعالى وحكمة ، لا يشاركه في ذلك غيره . ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده؛ والرجوع اليه بالتوبة والانابة . كما قال تعالى (٧ : ١٦٨ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يذكرون) وقال تعالى (٢١ : ٣٥ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ونسبة الفعل الى الدهر ومسبته كثيرة ، كما في أشعار المولدين ؛ كابن المعتز والمتنبي وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى (١٢ : ٤٨ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد — الآية) وقال بعض الشعراء :

إن الليالي من الزمان مهولة ... تُطوَى وتنشر بينها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنسِي طيبها ... ذِكر النوى ، فكأنها أيام

ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوي أسىً ، فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

باب

(التسمي بقاضي القضاة ونحوه)

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن أخنعُ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله »

قوله (باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه) .

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب . لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه .

قوله (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ؛ لا مالك إلا الله » [1] .

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى . فهو ملك الاملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه ، مالك الملك ذو الجلال والاكرام . وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها الى المعير . وهو الله تعالى ، ينزع المَلِكَ من مُلكِه تارة وينزع المُلْكَ منه تارة [1] فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه . وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه ؛ ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى ، وما تكتبه الحفظة عليهم . فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر . كما ورد في

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي . قال العزيزي في الشرح الكبير : وفي الباب غيره أيضاً . وفي قرة العيون : لأن هذا اللفظ انما يصدق على الله فهو ملك الأملاك لأنه هو الملك في الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى(٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير) الآية . فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا ، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذي ترجم به المصنف ؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله ، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق ، لأن كل لفظ يقتضي التعظيم والكمال لايكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره .

(١) قال تعالى (٣ : ٢٦ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ؛ وتعز من تشاء وتذل من تشاء) .

الحديث « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله »

قوله (قال سفيان) يعني ابن عيينة (مثل شاهنشاه[1] عند العجم عبارة

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٢ ص ٤٣) في حوادث سنة ٤٢٩ : وفي رمضان منها لقب جلال الدولة – السلجوقي – شاهنشاه الأعظم ؛ ملك الملوك بأمر الخليفة القائم لله . وخطب له بذلك على المنابر ، فنفرت العامة من ذلك ، ورموا الخطباء بالآجر ، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك . واستفتوا القضاة والفقهاء في ذلك ؛ فأفتى أبو عبد الله الصيمري – الشافعي – أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية . وقد قال الله تعالى (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال (وكان وراءهم ملك) وإذا كان في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض . وليس في ذلك ما يوجب النكير ؛ والمماثلة بين الخالق والمخلوقين

وكتب القاضي أبو الطيب الطبري « ان إطلاق (ملك الملوك) جائز . ويكون معناه ملك ملوك الأرض . واذا جاز أن يقال : كافي الكفاة ، وقاضي القضاة ؛ جاز أن يقال ملك الملوك ، واذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك ملوك الأرض زالت الشبهة . ومنه قولهم : اللهم أصلح الملك ، فيصرف الكلام الى المخلوقين » .

وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك :

وأما الماوردي صاحب الحاوي الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً . والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزي والشيخ أبو منصور بن الصلاح في أدب المفتي أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه ، مع صحبته للملك جلال الدولة ، وكثرة تردداه عليه ووجاهته عنده ، وأنه امتنع من الحضور في مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة في يوم عيد : فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهاً ، فلما واجهه قال له جلال الدولة : قد علمت أنه انما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي ووجاهتك عندي : دينك واتباعك الحق وأن الحق آثر عندك من كل أحد ؛ ولو حابيت أحداً من الناس لحابيتني ، وقد زادك ذلك عندي صحبة ومحبة وعلو مكانة

قال ابن كثير والذي حمل القاضي الماوردي على ذلك المنع هو اتباع السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه . قال الامام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي « ص » أنه قال (أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك) قال الزهري سألت عمرو الشيباني عن « أخنع اسم » قال « أوضع » وقد رواه البخاري عن علي بن المديني عن ابن عيينة . وأخرجه مسلم من طريق همام عن أبي هريرة عن النبي « ص » قال « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله عز وجل » وقال الامام أحمد حدثني محمد بن جعفر حدثنا عوف عن خلاس عن أبي هريرة قال قال رسول الله « ص » « اشتد غضب الله على من قتله نبي واشتد غضب الله على رجل تسمى ملك الأملاك ، لا ملك الا الله عز وجل » اه

وقال العزيزي في الشرح الكبير أي سمى نفسه ؛ أو سماه غيره فرضي به وأقره ونحوه ... في

عن ملك الأملاك . ولهذا مثل به سفيان لأنه عبارة عنه بلغة العجم .

=معناه شاه شاهان ، والعجم تقدم المضاف اليه على المضاف ، وألحق به ملك شاه . قيل واذا امتنع التسمي بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبار والرحمن أولى .

قال القرطبي : وحاصل الحديث ان من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالاله الحق لما ثبت في الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق الا الله ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى فعوقب على ذلك من الاذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق ؛ والمالك من له الملك ؛ والملك أمدح ، والمالك أخص . وكلاهما واجب لله تعالى .

وقال الطيبي : قوله « لا مالك الا الله » استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية ، فنفى جنس الملاك بالكلية ، لأن المالك الحقيقي ليس الا هو ؛ ومالكية الغير مستردة الى مالك الملوك ، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ، لأن وصف المالكية مختص بالله عز وجل لا يتجاوزه ، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه . فمن تعدى طوره فله الخزي في الدنيا والعار ؛ وفي الآخرة الالقاء في النار اه .

ومن العجائب التي لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية — الشاعر المشهور كان له ابنتان سمى إحداهما الله ، وسمى الاخرى الرحمن . وهذا من أعظم القبائح ؛ وأشد الجرائم والفضائح . وقيل انه تاب .

وألحق بعض المتأخرين بملك الاملاك : حاكم الحكام . وقد شدد الزمخشري النكير عليه فقال في تفسير قوله تعالى (وأنت أحكم الحاكمين) رب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين . فاعتبر واستعبر اه . واعترضه ابن المنير بأن خبر « أقضاكم علي » يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم في زمنه « قاضي القضاة » ورد عليه وشنع العلم العراقي منتصراً الزمخشري . ومن النوادر : أن العز بن جماعة رأى أباه في النوم ، فسأله عن حاله فقال : ما كان علي أضر من هذا الاسم . فنهى الموثقين أن يكتبوا له في الاسجال : قاضي القضاة . بل قاضي المسلمين .

وقال ابن القيم : وتحرم التسمية بسيد الناس ؛ وسيدة الكل ، كما تحرم بسيد ولد آدم ، فان ذا ليس لأحد الا الرسول « ص » اه .

قال أبو طاهر — غفر الله لهما — ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس في بعض البلدان الاسلامية : كصاحب العزة ؛ وصاحب الجلالة ، ونحو ذلك ، وكل هذه الالقاب انما شاعت في الناس من وقت دخول الاعاجم وتمكن دولتهم في البلاد الاسلامية ، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله والناس ، بل لعله كان لهم ضد ذلك ؛ فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الاسماء والألقاب ما يلقي في نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع . ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يدعون بعضهم بعضاً بأسمائهم أو بوظائفهم ، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والاجلال لعلمائهم وأمرائهم ، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والاحسان التي جملهم الله بها . نسأل الله أن يعيد الناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل .

وفي رواية « أغيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه »

قوله « أخنع » يعني أوضع

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن التسمي بملك الأملاك .

قوله (وفي رواية « أغيظ رجل على الله وأخبثه ») .

قوله (أغيظ) من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغيضاً إلى الله مغضوبا عليه [1] . والله اعلم .

قوله (وأخبثه) وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم ، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضعه عند الله يوم القيامة . فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم ، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم ، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله (أخنع : يعني أوضع) [2] هذا هو معنى « أخنع » فيفيد ما ذكرنا في معنى « أغيظ » أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله .

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم . كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال « خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس ؛ فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » وأخرجه الترمذي أيضاً ، وقال حسن . وعن أبي امامة رضي الله عنه قال « خرج علينا رسول الله ﷺ متكئا على عصا ، فقمنا اليه . فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضا » رواه أبو داود .

---

(١) ويؤيده « اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك » أخرجه الطبراني .

(٢) « أخنع » بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة أي أدخلها في الخنوع ؛ وهو الذل والضعة والهوان ، ذكره الزمخشري . وفي رواية « أخنى » من الخنا بمعنى الفحش في القول ويحتمل أن يكون من قولهم : أخنى عليه الدهر أي أهلكه . وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ « أنخع » بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك . قال ابن بطال : واذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلا يوم القيامة أي أشدهم ذلا وصغاراً . وفي قرة العيون : وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ؛ والله اعلم .

الثانية إن ما في معناه مثله كما قال سفيان

الثالثة التفطن للتغليظ في هذا ونحوه ، مع القطع بأنْ القلبَ لم يقصد معناه

الرابعة . التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه .

باب

(احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبي شريح « أنه كان يُكْنَى أبا الحكم . فقال له النبي صلى الله عليه

قوله (أغيظ رجل) هذا من الصفات التي تُمَرُّ كما جاءت ، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك واثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم ، والباب كله واحد . وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة . وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم ؛ والله المستعان .

قوله (باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك) .

(عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم . فقال له النبي ﷺ « إن الله هو الحكم واليه الحكم ، فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قلت شريح ومسلم وعبدالله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره) .

قوله (عن أبي شريح) قال في خلاصة التذهيب : هو أبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو [1] أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث ، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن

---

(١) وبهامش الخلاصة : وقيل : عمرو بن خويلد وقيل هانيء بن عمرو ، وقيل خويلد ابن شريح بن عمرو ، كذا في الكنى من كتاب ابن الملقن وجامع الأصول

وسلم : إن الله هو الحَكَم . وإليه الحُكْمُ .

جبير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح : اسمه هانيء بن يزيد الكندي قاله الحافظ ، وقيل : الحارث الضبابي قاله المزّي .

قوله (يكنى) الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك واللقب ما ليس كذلك[1] كزين العابدين ونحوه .

وقول النبي ﷺ (إن الله هو الحكم واليه الحكم) فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة ، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله ؛ وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ؛ فانها لا تجتمع على ضلالة ، فان العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء يسر له ذلك بفضله ومنّه عليه وإحسانه اليه ، فما أجلّها من عطية ، فنسأل الله من فضله .

قوله (وإليه الحكم في الدنيا والآخرة) كما قال تعالى (٤٢ : ١٠ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال (٤ : ٥٩ فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه ، والحكم إلى رسوله هو الحكم اليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته[2] .

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه الى اليمن « بِمَ تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال : فان لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله » فمعاذ من أجَلّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكما في

---

(١) في كتب العربية : اللقب . ما أشعر بمدح أو ذم ، كزين العابدين ونحوه .

(٢) يعني رد الحكم الى الله : رد الحكم الى كتابه ، ورد الحكم الى الرسول (ص) رد الحكم إليه في حياته ، ثم رده الى سنته بعد وفاته (ص) .

فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم ، فرضيَ كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟ قال : شُريح ، ومسلم، وعبدالله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ﷺ ، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله ، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات [1] .

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه (٤ : ٤٠ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يُضاعفها ويؤتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً) والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

قوله (فان قومي اذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين فقال : ما أحسن هذا) . فالمعنى — والله اعلم — أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرّ للعدل بينهم ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين صار عندهم مرضياً وهذا هو الصلح : لأن مداره على الرضى لا على الالزام. ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد الى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة . كما قد يقع اليوم كثيراً ، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا الى حكم رسوله. وإنما المعتمد عندهم ماحكموا به بأهوائهم وآرائهم [2]

---

(١) وبخلاف الصنف الآخر : الذين يمنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متوناً وشروحاً مهما كانت معقدة وطويلة ، ثم يقدمونها في العبادات والأحكام بين يدي الله ورسوله ، فانا لله وانا اليه راجعون . ماذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتها .

(٢) في قرة العيون : وأما ما يحكم به الجهلة من الاعراب ، ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهي الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله الى ما يخالفه، كما قال تعالى (٥ : ٤٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون) وهذا كثير ، فمن—

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكُنْية .

باب

(من هزّل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)

وقول الله تعالى (٩ : ٦٥ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟)

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب الموافق لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان .

وقول رسول الله ﷺ (فما لك من الولد ؟ قال : شريح، ومسلم ؛ وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح) فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالباً . وجاء هذا المعنى في غير ما حديث والله أعلم .

قوله (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) أي فقد كفر

قوله (وقول الله تعالى «٩ : ٦٥ ولئن سألتهن ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ») .

=الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه ، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون بــه ، وهذا كفر اذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس اليه اذا اختلفوا . اهـ .

والنص الصريح في ابطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الاسلام ، ولذلك كنوه «بأبي الحكم» فأنكرها عليه النبي (ص) وغيرها ، ولفظ «الحكم» بفتحتين لا ينهى عنه في الاسلام لقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وذلك لانه يحكم بما شرعه الله من صلح واصلاح ، وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل

عن ابن عمر ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسْلَم وقتادة – دخل حديثُ بعضهم في بعض – أنه قال رجل في غزْوة تبوك «ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرْغَبُ بطوناً ولا أكذب ألسُناً ، ولا أجبنُ عند اللقاء ؛ يعني رسولَ الله ﷺ واصحابه القراء . فقال له عَوْفُ بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ . فذهب عوف الى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحلَ وركبَ ناقته . فقال يا رسول الله ، إنما كُنّا نخوض ونتحدثُ حديثَ الركب نقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بِنِسْعَة ناقةِ رسول الله ﷺ وإن الحجارة تَنْكبُ رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب .

قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو مَعْشَر المدني عن محمد بن كعب القُرظي وغيره «قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قُرّائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطوناً [1] ؛ وأكذبنا ألسناً ، وأجبننا عند اللقاء ، فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركبَ ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب ؛ ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق ، فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعفُ عن طائفة منكم نعذّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)وإن رجليه ليسفعان[2] الحجارة ، وما يلتفت اليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ[3] ، وقال عبدالله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبدالله بن عمر قال «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء . فقال

---

(١) في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير «ما أرى قراءنا هؤلاء الا أرغبنا بطوناً» .

(٢) سفع الطائر ضريبته – كمنع – لطمها بجناحيه ، وسفع فلان فلانا لطمه وضربه ، والمعنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك .

(٣) النسعة – بكسر النون وسكون المهملة ، سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره (٠) .

(٠) قوله (النسعة بكسر النون وسكون المهملة سير مضفور يجعل زمانا للبعير وغيره) اقول في قوله يجعل زماماً للبعير نظر والصواب ان النسعة حبل يشد به الرحل ولا يطلق على الزمام قال في القاموس (النسع بالكسر سير ينسج عريضاً على هيئة اعنة النعال ، يشد به الرحال والقطعة منه نسعة ، وسمي نسعا لطوله انتهى المقصود :

فيقول له رسول الله ﷺ (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ما يلتفت إليه وما يزيده عليه »

رجل في المجلس : كذبتَ ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبدالله بن عمر : وأنا رأيته متعلقا بحِقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبه الحجارة ، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله ﷺ يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) » . وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو هذا .

وقال إبن إسحاق « وقد كان جماعة من المنافقين منهم وَديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخْشِيُّ بن حِمْيَر ، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق الى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مُقَرّنين في الجبال ؛ إرجافا وترهيباً للمؤمنين . فقال مخشي بن حمير : والله لوددت أني أقاضي على أن يُضْرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة ، وأنا نتلفت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر : أدرك القوم فانهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فان أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا وكذا ، فانطلق اليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون اليه . فقال وديعة بن ثابت — ورسول الله واقف على راحلته — فجعل يقول وهو آخذ بحقها : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال مخشي بن حمير : يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي ، فكان الذي عناه أي بقوله تعالى (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) في هذه الآية : مخشي بن حمير فسُمِّي عبدَ الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر » .

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية : « كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم اني أسمع آية أنا أعنى بها تَقْشَعِرُّ منها الجلود ، وتَجِلُ منها القلوب . اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسّلتَ ، أنا كفنت ، أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيرُه » .

فيه مسائل :

الأولى : وهي العظيمة — أن مَنْ هزَلَ بهذا إنه كافر .

الثانية : أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان .

الثالثة : الفرقُ بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله .

الرابعة : الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على اعداء الله

الخامسة : أن من الاعتذارِ ما لا ينبغي أن يُقبلَ .

وقوله (لا تعتذروا فقد كفرتم بعد إيمانكم) أي بهذه المقاله التي استهزأتم بها (إن نعفُ عن طائفة منكم) أي مخشي بن حمير (نعذِّب طائفة) أي لا يعفي عن جميعكم ؛ ولا بد من عذاب بعضكم (إنهم كانوا مجرمين) أي بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى .

قال شيخ الاسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم (قد كفرتم بعد إيمانكم) وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم : لا يصح لأن الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ فانهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الايمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ؛ وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك . ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين .

وقال رحمه الله في موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ؛ بل إنما كنا نخوض ونلعب . وبين أن لاستهزاء بآيات الله كفر . ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام ؛ ولو كان الايمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام ؛ والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه . كقوله تعالى (٢٤ : ٤٧ — ٥٢ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك — إلى قوله — إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) فنفى الايمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا . فبين أن هذا من لوازم الايمان ، انتهى .

باب

قول الله تعالى (٤١ : ٥٠ ولئن أذقناه رحمةً منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمةً ولئن رددتُ إلى ربّي إن لي عنده للحُسْنَى . فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنُذيقنّهم من عذابٍ غليظ)

قال مجاهد « هذا بعملي وأنا محقوق به »

وقال ابن عباس « يريد من عندي »

وقوله (قال إنما أوتيته على علم عندي) قال قتادة « على علم مني بوجوه المكاسب »

وفيه : بيان أن الانسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به [1] . وأشدها خطراً إرادات القلوب . فهي كالبحر الذي لا ساحل له . ويفيد الخوف من النفاق الأكبر . فان الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبي مُليكة « أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه » . نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة .

قوله (باب قول الله تعالى « ٤١ : ٥٠ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ») الآية .

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي .

قوله (قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يريد من عندي . وقوله « قال إنما أُوتيته على علم عندي » قال قتادة « على علم مني

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله ؛ وعدم احترامهم لأجله (•)

(•) قوله (ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم واهله وعدم احترامهم لاجله) اقول هذا القول فيه اجمال ، والصواب التفصيل فان كان الاستهزاء بالعلم الشرعي او بالعلماء لاجله فلا شك ان ذلك ردة عن الاسلام ، لانه تنقص لما عظمه الله واستخفاف به ، وفي ضمن ذلك احتقاره والتكذيب به ، اما ان كان الاستهزاء بالعلماء يرجع الى امر آخر كالملابس او حرص بعضهم على الدنيا او اعتيادهم خلاف ما عليه الناس من العوائد التي لا تعلق لها بالشرع او لما يشبه ذلك فهذا واشباهه لا يكون ردة عن الاسلام لانه لا يرجع الى الدين وانما يرجع الى امور اخرى والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال آخرون «على علم من الله أني له أهل» وهذا معنى قول مجاهد «وأتيته على شرف»

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن ثلاثة من بني إسرائيل:

بوجوه المكاسب» وقال آخرون «على علم من الله أني له أهل» وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف).

وليس فيما ذكروه اختلاف وانما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى (٣٩ : ٤٩ وإذا خوّلناه نعمة منا قال: إنما أوتيته على علم، بل هي فتنة) يخبر أن الانسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب اليه ويدعوه، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى و (قال إنما أوتيته على علم) أي لما يعلم الله من استحقاق له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا[1]. قال تعالى (بل هي فتنة) أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك (بل هي فتنة)[2] أي اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. كما قال تعالى مخبرا عن قارون اذ (٢٨ : ٧٦ قال له قومه لا تفرح، إن الله لا يحب الفرحين ٧٧ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله اليك. ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين ٧٨ قال: إنما أوتيته على علم عندي، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) وقال تعالى (٢٦ : ١٣٨ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) اهـ.

قوله (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة — الحديث[3].

---

(١) في تفسير ابن كثير زيادة: قال قتادة «على علم عندي: على خير عندي».

(٢) في ابن كثير «مع علمنا بذلك فهي فتنة».

(٣) وقد حذفناه من الشرح منعاً للتكرار.

أبرصَ ، وأقرعَ ، وأعمى . فأراد الله أن يَبْتَليَهم ، فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرصَ ، فقال : أيُّ شيء أحبُّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن ، وجلد حسن ، ويَذْهبُ عني الذي قَذَّرني الناسُ به . قال : فمسحه فذهب عنه قَذَرُه ، فأعْطِيَ لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأيُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطيَ ناقة عُشَراء ، وقال : بارك الله لك فيها . قال فأتى الأقرعَ ، فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به . فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً . فقال : أيُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : البقر أو الإبل . فأعطي بقرة حاملا . قال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى ، فقال: أيُّ شيء أحب إليك ؟ قال : أن يردَّ الله إليَّ بصَري فأبصر به الناس . فمسحه ، فردَّ الله اليه بصره . قال : فأيُّ المال أحب اليك ؟ قال : الغنم . فأعطيَ شاة والداً . فأنْتِجَ هذان ووَلَّد هذا . فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته . فقال : رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتبَلَّغ به في سفري ، فقال الحقوق كثيرة . فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص

(أخرجاه) أي البخاري ومسلم . والناقة العشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هي الحامل .

قوله (أفنتج) وفي رواية (فنتج) معناه تولي نتاجها ، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة .

قوله (ولّد هذا) هو بتشديد اللام . أي تولى ولادتها . وهو بمعنى (أنتج) في الناقة ، فالمولّد والناتج والقابلة بمعنى واحد ؛ لكن هذا للحيوان . وذلك لغيره

وقوله (انقطعت بي الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة : هي الأسباب

قوله (لا اجهدك) معناه : لا اشق عليك في رد شيء تأخذ ،او تطلب من مالي . ذكره النووي .

وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر : فان الأولَين جحدا نعمة الله . فما أقرا لله بنعمة ، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيها . فحلّ عليهما السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها . وأدى حق الله فيها . فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى

يَكْذُرُكَ الناس فقيرا ، فأعطاك الله عز وجل المال ، فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنتَ . وأتى الأقرعَ في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا . فقال إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنتَ . قال : وأتى الأعمى في صورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل . قد انقطعت بي الحبال في سفري . فلا بلاغ لي اليومَ إلا بالله ثم بك . أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاةً أتبلّغُ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري ، فخذ ما شئتَ ودَعْ ما شئتَ ، فوالله لا أجْهَدُكَ اليومَ بشيء أخذته لله . فقال : أمْسِكْ مالك ، فإنما ابتُلِيتم ، فقد رضيَ الله عنك وسَخِطَ على صاحبيك » أخرجاه

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى (ليقولنّ هذا لي) .

بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها . وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يجب .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله [1] : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له ، والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضا ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقرّ بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه ، لم يشكره أيضا ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضي به وعنه ، واستعملها في محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد في الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له .

قوله (قذرني الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم .

---

(١) في مدارج السالكين ج ٢ ص ١٣٥ — ١٤٤ .

الثالثة : ما معنى قوله (إنما أوتيته على علم عندي) .

الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة .

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٩٠ فلما آتاهم صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون)

قوله (باب قول الله «٧ : ١٩٠ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون ») .

قال الامام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سَمُرة عن النبي ﷺ قال « لما ولدت حوّاء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سمّيه عبد الحارث فانه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر ابن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد، ولم يخرجاه . ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا [1]

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن ابراهيم هذا هو البصري . وقد وثقه ابن معين . ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به . ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا . فالله أعلم .

الثاني : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، وليس مرفوعاً . كما قال ابن جرير .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا . فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما دل عنه — ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن ، بمثل ما روى ابن جرير عنه ثم قال : هذه أسانيد صحيحة عن الحسن : أنه فسر الآية بذلك ؛ وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية . ولو —

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال « كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن آدم » . وحدثنا بشر بن معاذ قال حدثني يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول « هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا » » وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير في تفسيره : وأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال « كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم لله وتسميهم عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله (هو الذي خلقكم من نفس واحدة — الآية) وقال العوفي عن ابن عباس : « فأتاهما الشيطان فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون ، أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل ، إنه لَغويٌّ مبين ؛ وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا ، فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون) » .

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه ابن أبي حاتم . وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدي وجماعة من الخلف ؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة . قال العماد ابن كثير :

—كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله (ص) لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه وورعه . فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ؛ ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتي بيانه ان شاء الله ، الا أننا برئنا من عهده المرفوع . والله أعلم اه . وقال الامام أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل وهذا الذي نسبوه الى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ؛ لم يصح سندها قط وانما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها اه .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبَّد لغيرِ الله . كعبد عمرو وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ،

وكأن أصله – والله أعلم – مأخوذ من أهل الكتاب [1] .

قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله (قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب) .

ابن حزم : هو عالم الاندلس ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري . صاحب التصانيف ، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا هو جد رسول الله ﷺ . وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله ، لأنه شرك في الربوبية والإلهية . لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدهم لعبادته وحده ، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بد ، كما قال تعالى (١٩ : ٩٣ إنْ كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) فهذه هي العبودية العامة .

---

(١) قال ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وانما المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال (فتعالى الله عما يشركون) .

فائدة : قال شيخنا العلامة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ – أطال الله حياته لنفع المسلمين – أما قوله تعالى في آخر الآية (فتعالى الله عما يشركون) فليس المراد به آدم وحواء ، لأن الكلام قد تم قبله ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، وانما المراد به المشركون ؛ وما ساقه الشارح رحمه الله في قوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) هو القول المعتمد الذي يدل عليه ظاهر القرآن اهـ .

وأما العبودية الخاصة فانها تختص بأهل الاخلاص والطاعة ، كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده ؟) ونحوها .

قوله (حاشى عبد المطلب) هذا استثناء من العموم المستفاد من « كل » وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها ، لأن أصله من عبودية الرق ؛ وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ؛ وكان ابن أخيه « شيبة » هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج ، لأن هاشما تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب في أخواله ؛ وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته [1] فقدم به مكة وهو رديفه ، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الاسم وركبه ؛ فصار لا يذكر ولا يدعى إلابه [2] ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . وقد قال النبي ﷺ « أنا ابن عبد المطلب [3] وقد صار معظما في قريش والعرب ، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته ؛ وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده. و « عبدالله » والد رسول الله ﷺ أحد بني عبد المطلب ، وتوفي في حياة أبيه. قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب الدرة السنية في مولد خير البرية : كان سن أبيه عبدالله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاما ؛ ثم ذهب الى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله فمات بها عند أخواله بني عدي بن النجار ، والنبي ﷺ حملٌ على الصحيح . انتهى

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن زيد الخزرجي النجاري على هاشم أن تلد عنده بالمدينة . فولدت له شيبة . ومات هاشم في الشام فبقي شيبة بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه المطلب اليه وأحضره الى مكة .

(٢) واسمه العلم : شيبة الحمد .

(٣) روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب – وسأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال « لكن رسول الله لم يفر . كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا ؛ فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام . ولقد رأيت رسول الله « ص » على بغلته البيضاء وأن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول : أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب اللهم نزل نصرك » وكنا اذا حمي البأس اتقينا برسول الله . وان الشجاع الذي يحاذي به » .

وعن ابن عباس في الآية « قال لما تغشاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس . فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتُطيعُنني أو لأجعلنّ لــه قرنَي أيّلٍ . فيخرج من بطنك فيَشقه . ولأفعلنّ ولأفعلنّ ، يُخوّفهما . سمياه عبد الحارث . فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت ، فأتاهما . فقال مثل قوله . فأبيا أن يطيعاه . فخرج ميتاً . ثم حملت فأتاهما . فذكر لهما فأدركهما حُبُّ الولد ، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما) » رواه ابن أبي حاتم .

وله بسند صحيح عن قتادة قال « شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته »

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله (لئن آتيتنا صالحا) قال « أشفقا أن لا يكون إنساناً » وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

قلت : وصار النبي ﷺ لما اوضعته أمه في كفالة جده عبد المطلب . قال الحافظ الذهبي : وتوفي أبوه عبدالله وللنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل . توفي بالمدينة ، وكان قد قدمها ليمتار تمراً ، وقيل : بل مرّ بها راجعاً من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة. قال الواقدي : وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم ؛ وقيل : ابن أربع سنين . فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ؛ فكان في كفالته إلى أن توفي جده ؛ وللنبي ﷺ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب اه .

قوله (وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية) قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى .

قوله (وله بسند صحيح عن قتادة قال « شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته ») قال شيخنا رحمه الله : إن هذا الشرك في مجرد تسمية ، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس . وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله . وهذا معنى قول قتادة : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم معبد لغير الله [١] .

الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها .

الرابعة : إن هبةَ الله للرجل البنتَ التنوية من النعم .

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذَرُوا الذين يُلْحِدُونَ في أسمائه) الآية

قوله (باب قول الله تعالى « ٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه ») الآية [٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان ابن عيينة . ورواه البخاري عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه . وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله . وزاد بعد قولـه « يحب الوتر — : هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق البارىء ، المصور ، القهار ، الغفار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ،

---

(١) كتسمية عبد علي وعبد الحسين وغلام الحسين ، وعبد النبي وعبد الرسول .

(٢) في قرة عيون الموحدين : أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا ، والأعمال الصالحة .

القوي ، المتين ، الولي الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفوّ ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث . والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه . وانما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن : كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي والله أعلم .

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره . ثم قال : ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين . بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال « ما أصاب أحداً قط هَمٌّ ولا حزَن فقال : اللهم أني عبدك بن عبدك ، بن أمتك ، ناصيتي بيدك . ماضٍ فيّ حكمك . عدلٌ فيّ قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك . سميت به نفسك . أو أنزلته في كتابك . أو علمته أحداً من خلقك . أو استأثرت به في علم الغيب عندك . أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري . وجلاء حزني . وذهاب هَمّي وغمي . إلا أذهب الله همه وحزنه . وأبدله مكانه فرحا . فقيل : يا رسول الله : ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى . ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعال (وذروا الذين يلحدون في أسمائه (قال « إلحاد الملحدين : أن دعوا اللات في أسماء الله » وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قال : « اشتقوا اللاّت من الله . واشتقوا العزّى من العزيز » .

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس « (يلحدون في أسمائه) يشركون »
وعنه سمُّوا اللاتَ من الإله ، والعُزّى من العزيز
وعن الأعمش « يدخلون فيها ما ليس منها »

وقال قتادة « يلحدون : يشركون » وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس « الالحاد التكذيب » .

وأصل الالحاد في كلام العرب : العدول عن القصد . والميل والجـور والانحراف . ومنه اللحد في القبر . لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .
قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

حقيقة الالحاد فيها الميل بالاشـ ـراك والتعطيـل والنكـران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده ودلت على كماله جل وعلا .

وقال رحمه الله : فالالحاد إما بجحدها وإنكارها . وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات . وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد . فانهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها . حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلا وشرعا وعرفا . وبكل اسم مذموم عقلا وشرعا وعرفا . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، انتهى .

قلت : والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة . متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتا بلا تمثيل . وتنزيهاً بلا تعطيل . كما قال تعالى (٤٢: ١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وان الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. يحتذي حذوه ومثاله.فكما انه يجب العلم بأن الله ذاتا حقيقة لا تشبة شيئاً من ذوات المخلوقين ، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى (٤ : ١٥١ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً :

(فائدة جليلة)

ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات وموجود .

الثاني : ما يرجع إلى صفاته ونعوته ؛ كالعليم والقدير ، والسميع والبصير

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله . كالخالق والرازق .

الرابع : التنزيه المحض . ولا بد من تضمنه ثبوتا ؛ إذ لا كمال في العدم المحض ، كالقدوس والسلام .

الخامس : — ولم يذكره أكثر الناس — وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد العظيم الصمد . فان المجيد من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ؛ ولفظه يدل على هذا . فانه موضوع للسعة والزيادة والكثرة ، فمنه « استمجد المرخ والعفار [1] » وأمجد الناقة ، علفها . ومنه (رب العرش المجيد) صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوامه . فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه ، كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل اليه بأسمائه وصفاته . وهو من أقرب الوسائل وأحبها اليه . ومنه الحديث الذي في الترمذي « ألظوا بياذا الجلال والاكرام » ومنه « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام » فهذا سؤال له وتوسل اليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان . فهو توسل اليه بأسمائه وصفاته . وما أحق ذلك بالاجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر . وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن . فان « الغني »

---

(١) المرخ — شجر سريع الوري والاشتعال . والعفار — كسحاب — شجر يتخذ منه الزناد ، والمراد : كثرت النار ؛ ويضرب المثل للكثرة .

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

الرابعة : ترك من عارض من الجاهلين الملحدين .

الخامسة : تفسير الالحاد فيها .

السادسة : وعيد من ألحد .

باب

لا يقال « السلام على الله »

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان .

صفة كمال و « الحمد » كذلك ، واجتماع « الغني » مع « الحمد » كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله فانه أشرف المعارف .

قوله (باب لا يقال : السلام على الله) .

قوله (في الصحيح عن ابن مسعود ـ الخ) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال « كنا اذا جلسنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان ـ الحديث » وفي آخره ذكر التشهد الاخير . رواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود . وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله « فان الله هو السلام ومنه السلام » وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثا ويقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام » وفي الحديث « إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى » وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة . كما قال تعالى (٣٦ : ٥٨ سلامٌ قولا من رب رحيم) .

فقال النبي ﷺ لا تقولوا السلامُ على الله . فان الله هو السلام »

ومعنى قوله « إن الله هو السلام » إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر . وهو من ألفاظ الدعاء . يتضمن الانشاء والإخبار ، فجهة الخبر فيه لا تناقض الجهة الانشائية. وهو معنى السلام المطلوب عند التحية . وفيه قولان مشهوران :

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل . ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ونحو ذلك . فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم « السلام » دون غيره من الأسماء .

الثاني : أن السلام مصدر بمعنى السلامة . وهو المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يأتي مُنَكَّراً ، فيقول المسلّم « سلام عليكم » ولو كان اسما من أسماء الله لم يستعمل كذلك . ومن حجتهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وانما المقصود منه الايذان بالسلامة خبراً ودعاء .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق في مجموع القولين : فكل منهما بعض الحق ، والصواب في مجموعهما . وانما يتبين ذلك بقاعدة . وهي : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب ، المناسب لحصوله ، حتى إن الداعي متشفع الى الله تعالى متوسل به اليه . فاذا قال : رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور . فقد سأله أمرين وتوسل اليه باسمين من أسمائه ، مقتضيين لحصول مطلوبه . وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيراً : ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني انك أنت الغفور الرحيم » فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل ، أتى في طلبها بصيغة أسم من أسماء الله تعالى وهو « السلام » الذي تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما : ذكر الله ، والثاني : طلب السلامة وهو مقصود المسلم . فقد تضمن « سلام عليكم » اسماً من أسماء الله وطلب

فيه مسائل :

الاولى : تفسير السلام .

الثانية : انه تحية .

الثالثة : انها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة في ذلك .

الخامسة : تعليمهم التحية التي تصلح لله .

باب

قول « اللهم اغفر لي إن شئت »

السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولهم : سلمك الله ، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط « رب سلم سلم » ومنه سلم الشيء لفلان ، أي خلص له وحده . قال تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَماً لرجل) أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السِّلم ضد الحرب : لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بني فيه على المفاعلة ، فقيل : المسالمة مثل المشاركة . ومنه : القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب . وحقيقته : الذي قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته . وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته . ومنه أخذ الاسلام ، فانه من هذه المادة ، لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك ؛ فسلم لربه وخلص له ، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به .

قوله (باب قول : اللهم اغفر لي ان شئت) .

يعني أن ذلك لا يجوز لورود النهي عنه في حديث الباب .

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقلْ أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت . اللهم ارحمني إن شئت . ليَعْزِم المسألة فإن الله لا مُكْرِه له »

قوله (في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت ، اللهم ارحمني ان شئت . ليَعْزِم المسألة فان الله لا مُكره له ») بخلاف العبد ، فانه قد يعطي السائل مسألته . لحاجته اليه ، أو لخوفه أو رجائه ، فيعطيه مسألته وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلّق حصول حاجته على مشيئة المسؤول ؛ مخافة أن يعطيه وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فانه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال جوده وكرمه ، وكلهم فقير اليه ، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين ، وعطاؤه كلام . وفي الحديث « يَمينُ الله مَلأى لا يَغيضها نفقة ، سَحّاء الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فانه لم يَغِضْ ما في يمينه ، وفي يده الأخرى القِسْطُ يخفضه ويرفعه [1] » يعطي تعالى لحكمه ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير . فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة ، فانه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة ولا عن عظم مسألة . وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم في عين الصغير صغارهـا ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة الى ما في نفوس أرباب الدنيا ، والا فان العبد يعطي تارة ويمنع أكثر ، ويعطي كرهاً ، والبخل عليه أغلب . وبالنسبة الى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر ، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم . فنعمه على الجنين في بطن أمه دارّة ، يربيه أحسن تربية ، فاذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدّه ، يتقلب في نعم الله مدة حياته ، فان كانت حياته على

---

(١) رواه البخاري في عدة مواضع من الجامع ومسلم عن أبي هريرة وفيه زيادة « وكان عرشه على الماء » بعد « خلق السموات والارض » وفي تفسير سورة هود من البخاري أول الحديث « أنفق أنفق عليك ، وقال « يد الله ملأى – الحديث » قال الحافظ في الفتح : وترد رواية « يمين الله » على من فسر اليد هنا بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن اهـ . ومعنى « يغيضها » ينقصها ، يقال : غاض الماء اذا نقص ؛ ومعنى « سحاء » أي دائمة الصب والعطاء الكبير .

ولمسلم « وليُعْظِم الرغبة فان الله لا يتعاظمه شيء أعطاه

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الاستثناء في الدعاء .

الثانية : بيان العلة في ذلك .

الثالثة : قوله « ليعزم المسألة » .

الرابعة : إعظام الرغبة .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر .

باب

(لا يقول : عبدي وأمتي)

الايمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه اذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها الا الله ، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين . وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وان كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وارادته واحسانه الى عبده ، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها ، فهو الذي شاءها وقدّرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله . فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن . قال تعالى (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وقد يمنع سبحانه عبده اذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع ، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين .

وقوله (ولمسلم : وليعظم الرغبة) أي في سؤاله ربّه حاجته ؛ فانه يعطي العظائم كرما وجوداً واحساناً . فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه ، أي ليس شيء عنده بعظيم ، وان عظم في نفس المخلوق . لأن سائل المخلوق لا يسأله الا ما يهون عليه بذله بخلاف رب العالمين . فان عطاءه كلام (٣٦ : ٨٢ إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إله غيره ولا رب سواه .

قوله (باب لا يقول : عبدي وأمتي) .

ذكر الحديث الذي في الصحيح (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا يقلْ أحَدُكم أطعِم رَبّك وَضِّىء رَبَّك ، وليقلْ سيِّدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبديَ وأمتي ، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي »

فيه مسائل :

الأولى : النهيُ عن قول : عبدي وأمتي .

الثانية : لا يقول العبد : رَبّي . ولا يقال له : أطعِمْ رَبَّك .

الثالثة : تعليم الأول قول : فتاي . وفتاتي . وغلامي .

الله ﷺ قال « لا يقولنّ أحدكم : أطعم رَبّك . وضِّىء ربك . وليقل : سيدي ومولاي . ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي . وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي ») .

هذه الألفاظ المنهي عنها . وإن كانت تطلق لغة . فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ . لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم . فاذا أطلق على غيره شاركه في الاسم . فينهي عنه لذلك . وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له . فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهي عنه حسما لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق . وتحقيقاً للتوحيد . وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ . وهذا من أحسن مقاصد الشريعة . لما فيه من تعظيم الرب تعالى ؛ وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله « سيدي ومولاي » وكذا قوله « ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي » لأن العبيد عبيد الله . والإماء إماء الله . قال الله تعالى (١٩ : ٩٣ إن كلُّ من في السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا) ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى وأدباً وبعداً عن الشرك وتحقيقاً للتوحيد ، وأرشدهم الى أن يقولوا « فتاي وفتاتي وغلامي » وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد . فقد بلّغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع ؛ ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين . فلا خير إلا دلّهم عليه ؛ خصوصاً في تحقيق التوحيد . ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظا وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

الرابعة : تعليم الثاني قول : سيدي ومولاي.

الخامسة : التنبيه للمراد . وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ .

باب

(لا يُرَدُّ مَنْ سألَ بالله)

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مَنْ سألَ بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومَنْ صنع

قوله (باب لا يردُّ من سأل بالله) .

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله . لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبا ؛ وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته ، وان كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته .

ومقام الانفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح . فالأول محمود في الكتاب والسنة . والثاني مذموم فيهما . وقد حث الله تعالى عباده على الانفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه.. قال الله تعالى (٢ : ٢٦٧ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غني حميد ٢٦٨ الشيطان يَعِدُكم الفقرَ ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) وقال تعالى (٥٥ : ٧ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وذلك الانفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى (٢ ، ١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ـــ الآية) فذكره بعد ذكر أصول الايمان

وقبل ذكر الصلاة . ذلك — والله أعلم — لتعدي نفعه . وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده . وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم . قال تعالى (٣٣ : ٣٥ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهن والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) .

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء . نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلا وآجلا . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضي الله عنهم بالايثار ، فقال تعالى (٥٩ : ٩ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) والايثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة ، وقد قال تعالى (٧٦ : ٨ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ٩ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) .

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغّب ، وبالله التوفيق .

قوله (من دعاكم فأجيبوه) هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض : إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين .

قوله (ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه) ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف . فأن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث ، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ، وبعض اللئام يكافيء على الاحسان بالاساءة ، كما يقع كثيراً من بعضهم . نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، بخلاف حال أهل التقوى والايمان فانهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه . كما قال تعالى (٢٣ : ٩٦ — ٩٨ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (٤١

قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

فيه مسائل :

الأولى : إعاذة من استعاذ بالله .

الثانية : إعطاء من سأل الله .

الثالثة : إجابة الدعوة .

الرابعة : المكافأة على الصنيعة .

الخامسة : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : حتى ترون أنكم قد كافأتموه .

باب

(لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود .

---

٣٤ ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم ٣٥ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍّ عظيم) وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة .

قوله (فان لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له) أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف : فيدعو له على حسب معروفه .

قوله (تُروا – بضم التاء تظنوا – أنكم قد كافأتموه) ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا . ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر « حتى تعلموا » فتعين الثاني للتصريح به . وفيه « من سألكم بالله فأجيبوه » أي إلى ما سأل . فيكون بمعنى : أعطوه ، وعند أبي داود في رواية أبي نُهيك عن ابن عباس « من سألكم بوجه الله فاعطوه » وفي رواية عبيدالله القواريري لهذا الحديث « ومن سألكم بالله » كما في حديث ابن عمر .

قوله (باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) .

ذكر فيه حديث جابر – رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » .

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة . فدعا النبي ﷺ بالدعاء المأثور « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يك بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي » وفي آخره « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن يحل عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله »(١) والحديث المروي في الأذكار « اللهم أنت أحق من ذكر وأحق من عبد — وفي آخره — أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض » وفي حديث آخر « أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة من شر السامة واللامة ، ومن شر ما خلقت ، أي رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ، ومن شر الدنيا والآخرة » وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح « اللهم اني أسألك الجنة وما يقرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب اليها من قول وعمل » بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا ، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة . فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله . وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث . كما لا يخفى . والله أعلم .

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى . فانه صفة كمال : وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات . كسلبهم جميع الصفات أو بعضها . فوقعوا في أعظم مما فروا منه . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا . وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفا : الايمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ في سنته على ما يليق بجلال

(١) رواه ابن إسحاق والطبراني عن عبد الله بن جعفر .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .

الثانية : إثباتُ صفةِ الوجه .

باب

(ما جاء في اللوّ)

وقول الله تعالى (٣ : ١٥٤ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا ها هنا)

الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ ، وينفون عنه مشابهة المخلوق . فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ؛ فمن نفاها فقد سلبه الكمال .

قوله (باب ما جاء في اللوّ) .

أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة ، كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الاشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر ، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره . والايمان بالقدر أصل من أصول الايمان الستة. وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على «لوّ» وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفاً كنظائرها ، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً شديداً بأعباء الخلافة كاهله

وقوله (وقول الله عز وجل «٣ : ١٥٤ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا») .

قاله بعض المنافقين يوم أحد ، لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم .

قال ابن إسحاق : فحدثني يحيي بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عبدالله بن الزبير قال : قال الزبير «لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم . فما منا رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ما أسمعه إلا كالحُلم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا . فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل

(يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا) لقول معتب » رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي هذا قدر مقدّر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناصَ منه .

وقوله (٣ : ١٦٩ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتِلوا — الآية) .

قال العماد ابن كثير (الذين قالوا لاخوانهم ، وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا) أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أي اذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ؛ فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبدالله : « نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبيّ وأصحابه » يعني أنه هو الذي قال ذلك . وأخرج البيهقي عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل يسقط سيفي وآخذه ويسقط وآخذه . قال : والطائفة الأخرى — المنافقون — ليس لها همّ إلا أنفسهم ، أجبن قوم ؛ وأرعبه ، وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل » .

قوله (قد أهمتهم أنفسهم) يعني لا يغشاهم النعاس عن القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) .

قال شيخ الاسلام رحمه الله : لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبيّ في غزوة أحد قال : فلما انخذل يوم أُحد وقال « يَدَعُ رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان ؟ » أو كما قال .. انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك . فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل . فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الاسلام ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحنة . وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « احرص على ما ينفعُك واستعن بالله ولا تَعجِزَن

اذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق كثير منهم . ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين،وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً،لكنه إيمان لا يثبت على المحنة ؛ ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا آمنا ، فقيل لهم (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الايمان في قلوبكم) أي الايمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً ، فان هذا هو الايمان اذا أطلق في كتاب الله تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الايمان في القلوب ، انتهى .

قوله : وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا ما فيه عبرة .

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو ؛ من إعانتهم العدو على المسلمين ، والطعن في الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ؛ وبذل الجهد في إطفاء نور الاسلام ، وذهاب أهله ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان .

قوله (في الصحيح) أي صحيح مسلم (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « احرص — الحديث ») .

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث ، وتمامه : عن النبي ﷺ أنه قال « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك » أي في معاشك ومعادك . والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ؛ ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه . ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك ؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا اذا نفعه الله به . فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سنة ، والتوكل على الله توحيد . فاذا جمع بينهما تم له مراده باذن الله .

وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان »

قوله (ولا تعجزن) النون نون التأكيد الخفيفة . نهاه ﷺ عن العجز وذمه ، والعجز مذموم شرعا وعقلا ؛ وفي الحديث « الكيّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ؛ والعاجز من أتبعَ نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني[1] » فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا . ولكن يقول : قدّر الله وما شاء فعل ، أي هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر ، والرضى به ، واحتساب الثواب عليه .

قوله (فان « لو » تفتح عمل الشيطان) أي لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر ،وذلك ينافي الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والايمان بالقدر فرض ، قال تعالى (٥٧ : ٢٢ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ؛ إن ذلك على الله يسير ٢٣ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) .

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » وقال الامام أحمد « ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن » .

قال شيخ الاسلام رحمه الله — وذكر حديث الباب بتمامه — ثم قال في معناه : لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع عن مقدور ؛ ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضي الوجوب ، وإلا فالاستحباب ؛ ونهى عن العجز وقال « إن الله يلوم على العجز »والعاجز ضد (الذين هم ينتصرون)فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة ؛ وذلك لأن الانسان بين أمرين : أمر أُمر بفعله ، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز ، وأمرٌ أصيب به من غير فعله. فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ؛ ولهذا قال بعض العقلاء — ابن المقفع أو غيره — الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا

---

(١) رواه أحمد والترمذي — وحسنه — والحاكم ؛ وقال : صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بان فيه ابن أبي مريم وهو واه . وهذا من حديث شداد بن أوس . وهو عندهم بدون كلمة « الأماني » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .

الثانية : النهي الصريح عن قول « لو » إذا أصابك شيء .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن .

الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع ، مع الاستعانة بالله .

السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز .

تجزع منه . وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به ، وأحبه له . فان الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة . وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين : فالأفعال مثل قوله تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) ومثل قوله تعالى (١٧ : ٧ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) ومثل قوله تعالى (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومثل قوله تعالى (٢ : ٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم .

والقسم الثاني : ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب . كما قال تعالى (٤ : ٧٩ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والآية قبلها . فالحسنة في هاتين الآيتين : النعم ، والسيئة : المصائب ، هذا هو الثاني من القسمين .

وأظن شيخ الاسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم .

ثم قال رحمه الله : فان الانسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها . فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلم . قال تعالى (٦٤ : ١١ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ولهذا قال آدم لموسى : « أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين

سنة ؟ فحج آدم موسى «لأن موسى قال له: « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة »[1]»
فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً . وأما كونه
لأجل الذنب – كما يظنه طوائف من الناس – فليس مراداً بالحديث ، فان
آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب . والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له.
ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس ، انتهى .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : "فتضمن هذا الحديث أصولاً" عظيمة من
أصول الايمان . أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة .
الثاني : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها ، فهو القوي ويحب
المؤمن القوي ، وهو وتر ويحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب
العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين
وصابر يحب الصابرين ، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الانسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده ،
والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع . فاذا صادف ما ينتفع به الحريص
كان حرصه محموداً وكماله كله في مجموع هذين الأمرين : أن يكون حريصاً
وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فان حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما
ينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك . فالخير كله في
الحرص على ما ينفع .

ولما كان حرص الانسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره
أن يستعين بالله ليجتمع له مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) فان حرصه على ما
ينفعه عبادة لله تعالى . ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده وأن يستعين به .
فالحريص على ما ينفعه ، المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل وقوع
المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة
بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها اليه .

فان فاته ما لم يقدر له فله حالتان : عجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ،
فيلقيه العجز إلى « لو » ولا فائدة من « لو » ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز
والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن
افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية . وهي النظر إلى القدر وملاحظته

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب .

باب

(باب النهي عن سب الريح)

عن أبَيّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أُمِرتْ به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » صححه الترمذي .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن سب الريح .

الثانية : الإرشاد الى الكلام النافع اذا رأى الانسان ما يكره .

الثالثة : الإرشاد الى أنها مأمورة .

الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشر .

وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور ، وإن انتفت امتنع وجوده ؛ ولهذا قال « فان غلبك أمر فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين : حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً ، بل هو أشد اليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه ؛ وبالله التوفيق .

قوله (باب النهي عن سب الريح) .

عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال « لا تسبوا الريح . فاذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به . صححه الترمذي) .

لأنها أي الريح — إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره . لأنه هو الذي أوجدها وأمرها ، فمسبتها مسبة للفاعل ، وهو الله سبحانه . كما تقدم

باب

قول الله تعالى (٣ : ١٥٤ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمرَ كلَّهُ لله ؛ يُخفُون في أنفسهم ما لا يُبدُون لك . يقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا ههُنا ، قل لو كنتم في بُيوتِكم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعهم ، ولِيَبْتلِيَ الله ما في صُدوركم وليُمحِّصَ ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور)

وقوله (٤٨ : ٦ الظانين بالله ظنَّ السوء عليهم دائرة السوء)

في النهي عن سب الدهر وهذا يشبهه ؛ ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده ؛ فنهى ﷺ أهل الايمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال « إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به » يعني إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا « اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ؛ وخير ما أمرت به . ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » ففي هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ؛ وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والايمان ، خلافا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرِموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الايمان .

قوله (باب قول الله تعالى « ٣ : ١٥٤ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ؛ يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله — الآية ») .

وهذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد (ثم أنزل عليكم من بعد الغَمِّ أمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طائفةً منكم) يعني أهـل الايمان والثبات والتوكل الصادق ؛ وهم الجازمون بان الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله ، ولهذا قال (وطائفة قد أهمَّتهم أنفُسهم) يعني لا يغشاهم النُّعاس من الجزع والقلق والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية كما قال تعالى (٤٨ : ١٢ بل ظننتم أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ؛ وزيِّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السَّوء وكنتم قوماً بوراً ») وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة .

قال ابن القيم في الآية الأولى : فسَّر هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله ، وان أمره سيضمحلُ ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَر الله وحكمته ففسر بانكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله وأن يظهره الله على الدين كله . وهذا هو ظنُّ السَّوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح . وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها الحق ، أو أنكر أن يكونَ ما جرَى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قَدَرُه لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زَعَم أن ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة ،

وأن الاسلام قد باد وأهله . وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور القظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة . عن ابن جريج قال : قيل لعبدالله بن أبي : « قُتل بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا من الأمور من شيء ؟ » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ماتضمنته وقعة أحد[1]:
وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل ، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه . ففسر بانكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول (٤٨ :٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء . عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا) وانما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية — وهو المنسوب إلى أهل الجهل — وظن غير الحق ، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والالهية ، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه ؛ وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هو الغالبون . فمن ظن به أنه لا

---

(١) زاد المعاد (ج ٢ ص ١٠٣ – ١٠٦) وقد بسط القول في ذلك أيضاً في اغاثة اللهفان .

فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار .

وأكثر الناس يظنون بالله ظَنَّ السّوء فيما يختصُّ بهم . وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَفَ الله واسماءه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده ، فَلْيَعْتَنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا ولْيَتُبْ إلى الله ولْيَسْتَغْفِره من ظنه بربه ظَنَّ السوء . ولو فَتّشتَ مَنْ فَتّشْتَ لرأيت عنده تَعَنُّتاً على القَدَر وملامَةً له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا . فمُستَقِلٌ ومستكثر وفَتّشْ نفسك ، هل أنتَ سالم ؟

فان تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ وإلا فـإني لا إخالُكَ ناجيـاً

ينصر رسله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه يُديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ؛ يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً . فقد ظن بالله ظن السوء؛ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته ، فان حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يُذل حزبَه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائـه المشركين به العادلين به . فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله . وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره . فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته . وكذلك من أنكر أن يكون قَدَّر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمته وغاية مطلوبه هي أحب اليه من فواتها . وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية اليها ، لا يخرج تقديرها عن الحكمة ، لافضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلا (٤٨ : ٢٧ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسمائه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده . فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء . ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية :- فسير آية الفتح .

ويسوى بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر والنهي ، لا يرسل اليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هَمَلًا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء ؛ ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها باحسانه والمسيء باساءته ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء . ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله ، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده ،وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم في أسفل سافلين . وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء ؛ ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز اليه رموزاً بعيدة ، وأشار اليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي [1] أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم في

---

(١) يقال : كلمة محجية : مخالفة المعنى للفظ . وهي إما من معنى الناحية ، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها ، أو من معنى الفطنة وهي الأحجية والأحجوة . قال صاحب المثل السائر : وأما اللغز والأحجية فانهما شيء واحد ، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً . ولا يفهم منه غرضه . انتهى من هامش الأصل نقلا عن سر الليال .

معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه . بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل ؛ بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان . فقد ظن به ظن السوء ، فانه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرته العجز ، وإن قال إنه قادر ولم يبين ، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم ؛ بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد . فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء .

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله . وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فانما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين والحيارى هو الهدى والحق فهذا أسوأ الظن بالله .

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون في مُلكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه ؛ فقد ظن بالله ظن السوء .

ومن ظن أنه كان معطلا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً ؛ فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات ، ولا عدد السموات ولا النجوم ، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً ؛ ولا قال ، ولا يقول ، ولا له أمر ولا نهي يقوم به ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين ، والى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، وأن من قال : سبحان ربي الأسفل كان كمن قال : سبحان ربي الأعلى . فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

الثالثة : الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر .
الرابعة : أنه لايسلم من ذلك الامن عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان . ويحب الفساد كما يحب الايمان والبر والطاعة والاصلاح . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ؛ ولا يغضب ولا يسخط . ولا يوالي ولا يعادي ، ولا يقرُب من أحد من خلقه ؛ ولا يقرب منه أحد . وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين . فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوي بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه ، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة ، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين ، واستنفد ساعات عمره في مساخطة ومعاداة رسله ودينه ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكا ؛ أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم اليه ، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم اليه ، ويتوصلون بهم اليه ، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم ؛ فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب اليه ، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الارادة فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة وتضرع اليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله ، فقد ظن به ظن السوء . وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك في دعائه ، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله .

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه ، فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم — إلا من شاء الله — يظنون بالله غير الحق وظن السوء ، فان غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ؛ وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه . ولسان حاله يقول : ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ونفسه تشهد عليه بذلك ؛ وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده . ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً (وتعتباً) على القدر وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به ، وانه كان ينبغي أن يكونَ كذا وكذا . فمستقل ومستكثر ؛ وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟

فان تَنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة   وإلا فاني لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وليَتُبْ إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ؛ وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم . فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين الغني الحميد ، الذي له الغنى التام . والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل ، واسماؤه كلها حسنى .

فلا تظنن بربك ظنّ سوء   فان الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيراً   فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل : يا نفس مأوى كل سوء   أترجو الخير من ميت بخيل
وظُنّ بنفسك السو أى تجدها   كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير   فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن   من الرحمن فاشكر للدليل.اهـ

باب

(ما جاء في منكري القدر)

قوله (الظانين بالله ظن السوء) قال ابن جرير في تفسيره (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الايمان بك على أعدائك، ولن يُظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء . يعني دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء في قراءة ذلك : فقرأته عامة قراء الكوفة (دائرة السوء) بفتح السين . وقرأ بعض قراء البصرة (دائرة السوء) بالضم . وكان القراء يقول : الفتح أفشى في السين . وقلّ ما تقول العرب (دائرة السوء) بضم السين .

وقوله (وغضب الله عليهم ولعنهم) يعني ونالهم الله بغضب منه ولعنهم . يقول : وأبعدهم فأقصاهم من رحمته (وأعد لهم جهنم) يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيرا) يقول : وساءت جهنم منزلا يصير اليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أي يتهمون الله في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى (عليهم دائرة السوء) وذكر في معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى :

قوله(قال ابن القيم رحمه الله تعالى)الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره .

قوله (باب ما جاء في منكري القدر) أي من الوعيد الشديد ونحو ذلك .

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رضي عنهما عن النبي ﷺ قال « القدَرية مجوس هذه الأمة . إن مرضوا فلا

وقال ابن عمر « والذي نفس ابن عمر بيده ، لو كانَ لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قَبِله الله منه ، حتى يُؤمِنَ بالقَدَر . ثم استدل بقول النبي ﷺ « الايمانُ أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليــوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه » رواه مسلم .

تعودوهم . وان ماتوا فلا تشهدوهم [1] » .

وعن عمر مولى غُفرة عن رجلٍ من الأنصار عن حذيفة — وهو ابن اليمان — رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لكل أمة مجوس . ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدَر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلاتعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال [2] » .

قوله (وقول ابن عمر : والذي نفسي بيده الخ) حديث ابن عمر أخرجه مسلم وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن يحيي بن يعمر قال « كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فأنطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين ، أو معتمرين . فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ؟ فوفق الله تعالى لنا عبدالله بن عمر داخلا في المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ، ويتقفّرون العلم [3] يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف . فقال : إذا لقيتَ أولئك فأخبرْهم أني منهم بريء ، وأنهم مني برآء . والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله

---

(١) قال في عون المعبود (ج ٤ ص ٣٠٧) قال الخطابي : إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين ، وهما النور والظلمة . يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة . وكذلك القدرية يضيفون الخير الى الله ، والشر الى غيره . اه وقال المنذري هذا منقطع . أبو حازم — سلمة بن دينار — لم يسمع من ابن عمر . وقد روى هذا الحديث من : طرق عن ابن عمر ؛ ليس فيها شيء يثبت . اه .

(٢) قال المنذري : عمر مولى غفرة — بضم الغين وسكون الفاء — لا يحتج بحديثه . ورجل من الانصار مجهول . وقد روي من طرق أخرى عن حذيفة . ولا يثبت .

(٣) يقال : اقتفرت الأثر ، أي تتبعته وقفوته . فمعنى يتقفرون العلم أي يتطلبونه .

وعن عُبادة بن الصَّامت أنه قال لابنه « يا بُنَيّ إنك لن تَجِدَ طَعْمَ الايمان حتى تَعْلَمَ أنَّ ما أصابَك لم يَكُنْ ليُخْطِئَك ، وأما أخطأك لم يكن ليُصيبَك سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أولَ ما خَلَقَ الله القَلَمَ ، فقال له اكتبْ . فقال: رَبِّ وماذا أكتبُ ؟ قال اكتبْ مقادير كُلِّ شيءٍ حتى تقوم الساعة . يا بُنَيَّ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : من ماتَ على غير هذا فليس مني .

الله منه . حتى يؤمن بالقدر . ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام . قال رسول الله ﷺ : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا . قال : صدقتَ . فعجبنا لـه يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان ؛ قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؛ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرني عن أماراتها قال : أن تَلِد الأمةَ رَبَّتها وأن تَرى الحُفاة العُراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : فانطلق . فلبثت ثلاثاً ، وفي رواية : ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

ففي هذا الحديث أن الايمان بالقدر من أصول الايمان الستة المذكورة ، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلا من أصول الدين وجحده ؛ فيشبه من قال الله فيهم (٢ : ٨٥ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ـ الآية) .

قوله (وعن عُبادة) قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد . وحديثه هذا

وفي رواية لأحمد « إن أوّلَ ما خلقَ اللهُ تعالى القلم . فقال له : اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وفي رواية لابنِ وهب قال رسول الله ﷺ « فمن لم يؤمن بالقدر خيْرِه وشره أحرَقَه الله بالنار »

رواه أبو داود ورواه الامام احمد بكماله [1] قال : حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب ابن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة ثنى أبي قال « دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني . قال : يا بنيّ إنك لن تجد طعم الايمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . يا بنيّ ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار » ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح وغريب .

وفي هذا الحديث ونحوه : بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى(٦٥ : ١٢ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) [2] .

وقد قال الامام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر قال « القدر قدرة الرحمن » واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله .

والمعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء . ونفاة القدر قد جحدوا كمال

---

(١) المسند (ج٥ ص ٣١٧) وهو عند أبي داود أخصر مما عند احمد ومن طريق جعفر بن مسافر الهذلي أخبرنا يحيي بن حسان أخبرنا الوليد بن رباح عن ابراهيم بن أبي جميلة عن أبي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه الحديث . وسكت عنه المنذري .

(٢) في قرة العيون : والآيات في إثبات القدر كثيرة ، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم ، كما في الآية .

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال « أتيت أبيّ بن كعب فقلت . في نفسي شيء من القدَر . فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي ، فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مُتّ على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبدالله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ » حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه .

قدرة الله تعالى فضلوا عن سواء السبيل . وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فان أقروا به خصموا وان جحدوه كفروا .

قوله (وفي المسند وسنن ابي داود عن ابن الديلمي) وهو ابو بسر - بالسين المهملة ، وبالباء المضمومة . ويقال : أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الاول . واسمه عبدالله بن فيرْوز . ولفظ أبي داود قال « لو ان الله عذب اهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيتُ عبدَالله بن مسعود فقال مثل ذلك ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت زيد بن ثابت ، قال : فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك[1] وأخرجه ابن ماجه .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله : عن سفيان عن منصور عن رِبعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذي عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن ربعي عن علي فذكره .

---

(١) قال في عون المعبود (ج ٤ ص ٣٦٢) فيصير الحديث مرفوعا . قال المنذري : وفي اسناده ابو سفيان الشيباني وثقه ابن معين وغيره وتكلم فيه احمد وغيره .

فيه مسائل :

الأولى : بيان فرض الإيمان بالقدر .

الثانية : بيان كيفية الايمان .

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الرابعة : الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

الخامسة : ذِكر أول ما خلق الله .

السادسة : أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة .

السابعة : براءته ﷺ ممن لم يؤمن به .

الثامنة : عادةُ السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء .

التاسعة : إن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته . وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط .

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبدالله بن وهب وغيره عن أبي هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة – زاد ابن وهب – : وكان عرشه على الماء » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الايمان بالقدر وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصي في النار . وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي .

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا . و هذا لازم لهم على مذهبهم هذا ، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار [1] .

---

(١) في قرة العيون : وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع . وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدس » .

باب

(ما جاء في المصورين)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى « ومن أظلمُ ممن ذهب يخلقُ كخلقي فليخلقوا ذَرّةً أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » أخرجاه .

ولهما عن عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أشدُّ الناسِ عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله »

ولهما عن ابن عباس سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « كل مُصوِّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفْسٌ يعذب بها في جهنم »

ولهما عنه مرفوعا « من صور صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ »

قوله (باب ما جاء في المصورين) أي من عظيم العقوبة الله لهم وعذابه .

وقد ذكر النبي ﷺ العلة : وهي المضاهاة بخلق الله ، لأن الله تعالى لـه الخلق والأمر ، فهو رب كل شيء ومليكه ، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة ، كما قال تعالى (٣٢ : ٧ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ٨ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ٩ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئاً لخلق الله . فصار ما صوره عذابا له يوم القيامة . وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . فكان أشد الناس عذابا ، لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فاذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه ، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه . فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن

ولمسلم عن أبي الهيّاج قال « قال لي عليّ : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألاّ تدعَ صورةً إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته »

لا يستحقه من خلقه ؛ وجعله شريكا له فيما اختص به تعالى وتقدس ؛ هو أعظم ذنب عُصي الله تعالى به . ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه ، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى . فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم . وأهلك من جهد التوحيد ، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب (٤ : ٤٨ و ١١٦ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٢٢ : ٤١ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) .

قوله (ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي – حيان بن حصين – قال : قال لي علي رضي الله عنه) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قوله (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفا إلا سويته [1]) .

فيه تصريح بأن النبي ﷺ بعث علياً لذلك . أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله . وأما تسوية القبور فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله . فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته . ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور ؛ وعظمت الفتنة بأرباب القبور،وصارت محطا لرحال العابدين المعظمين لها . فصرفوا لها جلّ العبادة : من الدعاء والاستعانة والاستغاثة؛ والتضرع لها، والذبح لها ، والنذور ؛ وغير ذلك من كل شرك محظور .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله [2] : ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر

---

(١) في قرة العيون : فهذا ما صح عن النبي (ص) من انكار هذه الأمور وازالتها (٢ : ٥٩ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثاناً ؛ وزعموه ديناً وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات ، تعظيماً للأموات وغلواً ، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده .

(٢) في إغاثة اللهفان الجزء الأول .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد في المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله . لقوله « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » .

الثالثة : التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله « فليخلقوا ذرة أو حبة أوشعيرة »

الرابعة : التصريح بأنهم أشدّ الناس عذابا .

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم .

السادسة : أنه يكلّف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت .

الناس اليوم . رأى أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها واليها . ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي — فذكر حديث الباب — وحديث ثمامة بن شُفَيّ وهو عند مسلم أيضاً قال « كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم بدردس ، فتُوُفيّ صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوّي ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه . كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه ، وأن يبنى عليه » ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود في سننه . عن جابر أن رسول الله ﷺ « نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها » قال الترمذي: حديث حسن صحيح . وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها . كما روى ابو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ « نهى أن يجصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو

يزاد عليه ، وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار [1] . قال ابراهيم النخعي : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم .

والمقصود : أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها . وهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء من أصحاب احمد وغيرهم بتحريمه .

قال ابو محمد المقدسي : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله. ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبي ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذّر ما صنعوا » متفق عليه . ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب اليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً . ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الاسلام ، ودخول في دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده ، من النهي عما تقدم ذكره في القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره .

فمنها : تعظيمها الموقع في الافتتان بها . ومنها : اتخاذها أعياداً . ومنها السفر اليها . ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها ، وعُبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة

---

(١) اختصر المؤلف كلام ابن القيم هنا وحذف منه ما يأتي :
« ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر . وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبري آجراً . وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة أن لا يضربوا على قبره فسطاطاً . وكره الامام احمد أن يضرب على القبر فسطاطاً » اه اغاثة اللهفان « ج ١ ص ١٠٣ » .

المساجد ، والربل عندهم لقيِّمها ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها . ومنها : النذر لها ولسدنتها . ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج ، وينصر المظلوم ، ويجار الخائف إلى غير ذلك . ومنها : الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها . ومنها : الشرك الأكبر الذي يفعل عندها .

ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم . فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ، ويكرهونه غاية الكراهية ، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم . ويوم القيامة يتبرأون منهم ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ و ١٨ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً) قال الله تعالى للمشركين (فقد كذبوكم بما تقولون) وقال تعالى (٥ : ١١٦ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق — الآية) وقال تعالى (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

ومنها [1] : إماتة السنن وإحياء البدع .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فان عُبّاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

---

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتي : ومنها مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها . ومنها محادة الله ورسوله ، ومناقضة ما شرعه فيها . ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والاثم العظيم .

ومنها [1] : أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة ، والاحسان إلى المزور بالدعاء له ، والترحم عليه ، والاستغفار له . وسؤال العافية له ؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت . فقلّب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين . وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت . ودعاءه والدعاء به . وسؤاله حوائجهم ، واستنزال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء . ونحو ذلك . فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت . وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة . فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هُجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولا وفعلا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « زوروا القبور ، فانها تذكّر الموت »[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه أحمد والترمذي وحسنه [3] .

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته ، وعلمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار

(١) زاد في الاغاثة : ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ، ودين الله الذي بعث به رسوله بضد ذلك . ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد .

(٢) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث علي عند الامام أحمد « إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فانها تذكر الآخرة » .

(٣) حذف المؤلف رحمه الله حديث ابن مسعود « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور فانها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة » رواه ابن ماجه . وحديث أبي سعيد « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فان فيها عبرة » رواه الامام أحمد .

القبر ثم دعا [1] ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر ، فان الدعاء عبادة . وفي الترمذي وغيره « الدعاء هو العبادة » فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ ، من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم .
وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم» وإسناده جيد ورواته ثقات مشير . قوله : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً » أي لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن [2] في تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار الله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك ، ولكن ما لجرح بميت إيلام .

فمن المفاسد : اتخاذها أعياداً والصلاة اليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها،والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم . فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم ، بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يبدىء ولا يعيد،ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ! ! فتراهم حول القبر

---

(1) قال ابن القيم : فقال سلمة بن وردان « رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسند ظهره الى جدار القبر ثم يدعو » .

(2) الذي في نسخ اغاثة اللهفان التي بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله « ثم ان في تعظيم القبور الخ » فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا .

رُكعاً وسجداً يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً .

فلغير الله — بل للشيطان — ما يُراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويُسأل من تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإغناء ذوي الفاقات ، ومعافاة ذوي العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين . ثم أخذوا في التقبيل والاستلام . أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التي يعلم الله أنها لم تُعفر كذلك بين يديه في السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقرباتهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنيء بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ولا بحجك كل عام .

هذا — ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، ويدور في الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم . وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور ، سد الذريعة إلى هذا المحظور . وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول اليه ، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشر والضلال في معصيته ومخالفته . اهـ كلامه رحمه الله تعالى [1] .

---

(١) اختصره المؤلف رحمه الله تعالى ؛ وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدنا من نسخ إغاثة اللهفان . والله يرحم الجميع ويغفر لنا ولهم .

باب

(ما جاء في كثرة الحلف)

وقول الله تعالى (٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم)

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلف منْفَقَةٌ للسِّلْعة ممحقة للكسب » أخرجاه

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال :

قوله (باب ما جاء في كثرة الحلف) أي من النهي عنه والوعيد .

(وقول الله تعالى « ٥ : ٨٩ واحفظوا أيمانكم ») .

قال ابن جرير لا تتركوها بغير تكفير . وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا . وقال آخرون : احفظوا إيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا . والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فان القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

(عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب » أخرجاه) .

أي البخاري ومسلم . وأخرجه أبو داود والنسائي . والمعنى : أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا ؛ أو أنه اشتراها بكذا وكذا ؛ وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب وحلف طمعاً في الزيادة ، فيكون قد عصى الله تعالى ؛ فيعاقب بمحق البركة؛ فاذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً . وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

قوله (وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبراني بسند صحيح) .

وسلمان لعله سلمان الفارسي أبو عبدالله ، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة ، وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما . قال النبي ﷺ «سلمان منا أهل البيت . إن الله يحب من أصحابي أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلمان ، والمقداد» أخرجه الترمذي وابن ماجه . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها . توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه . قال أبو عبيدة سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة . ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي .

قوله (ثلاثة لا يكلمهم الله[1]) نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه . وأن الكلام صفة من صفات كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه . وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى (٣٦ : ٨٢ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً . وذلك في القرآن كثير .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : فاذا قالوا لنا يعني النفاة : فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ؛ فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله تعالى منزه عن ذلك – ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك : مما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين

---

(١) في قرة العيون : هذا وعيد شديد في حقهم . لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الايمان ويكلمونه في عرصات القيامة . والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه . وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام .

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشَيْمِط زانٍ وعائلٌ مستكبرٌ ورجل جعل (الله) بضاعته لا يشتّري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبراني بسند صحيح .

يقولون : لم يزل الله متكلما إذا شاء ، كما قال ابن المبارك واحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة ، اهـ .

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى : قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم .

قوله (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم ، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات .

قوله (أشيمط زان) صغره تحقيرا له [1] وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا : محبة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله . وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ، فان قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ، ولومها على المعصية فينتهي ويراجع .

وكذا العائل المستكبر ليس اه ما يدعوه إلى الكبر ، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و « العائل » الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعي اليه يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن في قلبه ، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق اللئيم الذي هو من أكبر المعاصي .

قوله (ورجل جعل الله بضاعته) بنصب الاسم الشريف ، أي الحلف به ، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه . وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة ، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي اليها . نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه .

---

(١) تصغير أشمط ، وهو الذي بشعره شمط أي شيب .

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتي قرني ثم الذين يَلُونهم ، ثم الذين يلونهم – قال عمران « فلا أدري : أذكرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ؟ – ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستَشهدون

قوله (وفي الصحيح) أي صحيح مسلم . وأخرجه أبو داود والترمذي ، ورواه البخاري بلفظ « خيركم »[1] .

قوله (عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم – قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً – ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهن السمَن) .

قوله (خير أمتي قرني) لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والايمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهله . وقلّ الشر فيها وأهله واعتز فيها الاسلام والايمان ، وكثر فيها العلم والعلماء (ثم الذين يلونهم) فضلّوا على من بعدهم لظهور الاسلام فيهم وكثرة الداعي اليه والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل ؛ كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة ، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب .

قوله (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا) هذا شك من راوي الحديث عمران ابن حصين رضي الله عنه . والمشهور في الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ، لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون والاسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين ، وكثرة الأهواء .

فقال « ثم ان بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون » لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق ، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم .

---

(٢) بل رواه باللفظين ، فرواية « خير أمتي أهل قرني » في فضائل الصحابة . ورواية « خيركم » في عدة مواضع منه .

ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال « خير الناس قرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تَسْبِق شهادةُ أحدهم يَمينَه ويمينُه شهادته »

وقال ابراهيم « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار »

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الايمان .

الثانية : الاخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة .

قوله (ويخونون ولا يؤتمنون) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم (وينذرون ولا يوفون) أي لا يؤدون ما وجب عليهم ؛ فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله (ويظهر فيهم السمن) لرغبتهم في الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها . وفي حديث أنس « لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف [1]

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا في ذلك نظما ونثراً فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله (وفيه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته [2] ») .

---

(١) في قرة العيون : فحدث التفرق والاختلاف في الدين أوحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها وظهرت دولة القرامطة وظهر فيهم الكفر والالحاد في شرائع الدين ومذهبهم معروف وظهر فيهم من البدع ما يطول عده وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفا نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

(٢) في قرة العيون : في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي .

الخامسة : ذمّ الذين يحلفون ولا يستحلفون .

السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث .

السابعة : ان الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

باب

(ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه)

وقوله (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا)

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد ، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملا وأداء ، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر . والله المستعان . فاذا كان هذا قد وقع في صدر الاسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف . فكان الناس على حذر .

قوله (قال ابراهيم — هو النخعي — كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار) وذلك لكثرة علم التابعين ، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به . وفي هذا رغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله (باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله وقول الله تعالى (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا — الآية) .

قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة . ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وقوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وبين قوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أي لا تتركوها

وعن بُريدة قال « كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سريّة أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً فقال : اغزوا بسم الله ، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله

بلا تكفير . وبين قوله ﷺ في الصحيحين « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها — وفي رواية — وكفّرت عن يميني » لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في الآية : يعني الحلف أي حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الامام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الاسلام ؛ وإنما حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدة » وكذا رواه مسلم ، ومعناه أن الاسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه؛ فان في التمسك بالاسلام كفاية عما كانوا فيه .

وقوله تعالى (إن الله يعلم ما تفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

قوله (عن بُريدة) هو ابن الحُصيب الأسلمي . وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله في المفهم .

قوله (قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه تأمير الامراء ووصيتهم .

قال الحربي : السرية الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها . والجيش ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه .

قوله (ومن معه من المسلمين خيراً) أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً : من الرفق بهم ، والاحسان اليهم ، وخفض الجناح لهم ؛ وترك التعاظم عليهم .

قوله (اغزوا باسم الله) هذا أي اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له . قلت : فتكون الباء في « بسم الله » هنا للاستعانة والتوكل على الله

اغزوا ولا تَغُلّوا ولا تَغدِروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الاسلام . فان أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، واخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين .

قوله (قاتلوا من كفر بالله) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم . وقد خصص منهم من له عهد والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلاً به « ولا تقتلوا وليداً » وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان لأنه لا يكون منهم قتال غالباً . وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

قلت : وكذلك الذراري والاولاد .

قوله (ولا تَغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر نقض العهد . والتمثيل هنا التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به . ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر . وفي كراهية المثلة .

قوله (واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال أو خصال) الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد .

قوله (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم) قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و « ما » زائدة . ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم . كما تقول : جئتك إلى كذا وفي كذا . فيعدى إلى الثاني بحرف جر .

قلت : فيكون في ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثاني : على نزع الخافض .

قوله (ثم ادعهم إلى الاسلام) كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم « ثم ادعهم » بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها . كما روى في غير كتاب مسلم . كمصنف أبي داود ، وكتاب الأموال لأبي عبيد . لان ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله (ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين) يعني المدينة . وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الاسلام . وهذا

فان ابوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فان هم أبوا فأسألهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم . فان هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم .

يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم [1]

قوله (فان أبوا أن يتحولوا) يعني أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفيء شيئاً . وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب . فلم ير لهم من الفيء شيئا . وانما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده ؛ ومصرف كل مال في أهله . وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين ، وجوّزا صرفهما للضعيف .

قوله (فان هم أبوا فاسألهم الجزية) فيه حجة لمالك وأصحابه والاوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما. وهو قول الامام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت : لان النبي ﷺ أخذها منهم . وقال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية : فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الورق . وهل ينقص منهـا الضعيف أو لا ؟ قولان . قال الشافعي : فيه دينار على الغني والفقير . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، والكوفيون : على الغني ثمانية وأربعون درهماً والوسط أربعة وعشرون درهماً . والفقير اثنا عشر درهما . وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله .

---

(١) في قرة العيون : وكذلك اذا ظهرت المعاصي في بلدة . نص عليه الفقهاء في كتبهم اه يعني اذا غلبت المعاصي وأهلها ولم يقدر ولا يجد سبيلا للانكار عليهم . أما اذا وجد السبيل لاقامة الحجة . فان بقاءه يكون واجباً لتبليغ الدين خصوصاً اذا كان يدعو الى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع ويجد من يسمع له ويصغي اليه وينتفع بدعوته . والله الموفق .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فانكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهوَنُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حُكم الله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على حكمك . فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ » رواه مسلم .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : الارشاد إلى أقل الامرين خطراً .

الثالثة : قوله « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله :

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجـ	وس، فان هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهماً افرضن	وأربعـة من بعـد عشرين زد
لأوسطهم حالا ومن كان موسـراً	ثمانية مـع أربعين لتنقـد
وتسقط عن صبيانهـم ونسائهـم	وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعـد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلـم	ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لاممن نأى بداره ، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله (وإذا حاصرت أهل حصن) الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : ان المصيب في مسائل الاجتهاد واحد . وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكما معيناً في المجتهدات فمن . وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطىء .

قوله (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمـة نبيه : الحديث) الذمة العهد ، وتخفر تنقض يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته أجرته ، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء

الرابعة : قوله « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله « استعن بالله وقاتلهم » .

السادسة : الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء .

السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا .

باب

(ما جاء في الإقسام على الله)

عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : مَن ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له وأحبطتُ عملك » رواه مسلم

بالعهد ، كجملة الاعراب : فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى . والله أعلم .

قوله (وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال [1] ، ذكر فيه أن مذهب مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال ، قال وهو أن مالكاً قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة . فيجوز أن تلتمس غرتهم وهذا الذي صار اليه مالك هو الصحيح لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية وإنما يقاتلون للدين فاذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلا لهم إلى الانقياد الى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عتواً وبغضاً . والله أعلم .

قوله (باب ما جاء في الإقسام على الله) .

ذكر المصنف فيه حديث (جندب بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان . قال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له وأحبطتَ عملك » رواه مسلم) .

---

(١) ليس في نسخ المتن التي بأيدينا قول نافع هذا فليحرر .

وفي حديث أبي هريرة «أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»

قوله (يتألى) أي يحلف . والألية بالتشديد الحلف . وصح من حديث أبي هريرة قال البغوي في شرح السنة — وساق بالسند الى عكرمة بن عمار — قال « دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال : يا يمامي ، تعال ، وما أعرفه ؛ قال: لا تقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبدا ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله اذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه ، قال : فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر ، كأنه يقول مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال فيقول : خلني وربي ، قال: فوجده يوما على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلني وربي ، أبعثت علي رقيبا ، فقال والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدا . قال : فبعث الله إليهما ملكا ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي ؟ قال : لا يا رب ، قال اذهبوا به الى النار . قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» ورواه أبو داود في سننه ، وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول « كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة . فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ؛ فوجده يوما على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ قال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ؛ فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالما ؛ أو كنت على ما في يدي قادرا ؟ فقال للمذنب : إذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قوله (وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد) يشير إلى قوله في هذا الحديث «أحدهما مجتهد في العبادة» وفي هذا الأحاديث بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما في حديث معاذ «قلت يا رسول الله ،

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألي على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » الخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور اليه .

باب

(لا يُستشفع بالله على خلقه)

عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه « قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله نُهِكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهَلكتِ الأموال ، فاستسق

وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكُبّ الناس في النار على وجوههم — أو قال على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم »[1] والله أعلم .

قوله (باب لا يستشفع بالله على خلقه) .

وذكر الحديث[2] وسياق ابي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه .

(عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال « أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فانا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله ﷺ : ويحك ، أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه اصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح . وفي قرة العيون : وفيه معنى قوله (ص) « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه الى يوم يلقاه » .

(٢) يعني أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسبا له الى أبي داود ولكنه اختصره .

لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبي ﷺ : سبحان الله ، سبحان الله فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك . إنه لا يُستشفع بالله على أحد » رواه أبو داود [1] .

عظم من ذلك ، ويحك ، أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا — وقال بأصابعه مثل القبة عليه — وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » قال ابن بشار في حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » .

قال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود باسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد ابن اسحاق بن يسار [2] .

قوله (ويحك [3] إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) فانه تعالى رب كل شيء ومليكه ، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، ولا رأد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع اليه ، ولهذا أنكر على الاعرابي .

قوله (وسبح الله كثيراً وعظمه) لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده إن شأن الله أعظم من ذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء

---

(١) في قرة العيون : هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحا أو حسنا وسكت عليه اه . أقول : بل تكلم أبو داود على سنده ، فخطأ بعض رواته في سياقه وصوب من قال : انه روى كتابة من نسخة وهب بن جرير لا تحديثا ، وأن مداره فيها على محمد ابن اسحاق عنعنة لا سماعا .

(٢) يشير بذلك الى ضعف الحديث لأن محمد بن اسحاق مدلس . وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له في عون المعبود (ج ٤ ص ٣٧٠ .)

(٣) في قرة العيون : ويحك كلمة تقال للزجر . قوله « أتدري ما الله ؟ » فيه إشارة الى قلة علمه بعظمة الله وجلاله .

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال « نستشفع بالله عليك » .

الثانية : تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فانهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة ــ بعد كلام سبق فيما يُعرّف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته . قال بعد ذلك :

والثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته . ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، ويرى الملائكة حافّين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها ؛ فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ؛ وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها : من جبر كسير . واغناء فقير ؛ وشفاء مريض ؛ وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، وردّ آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف ، واعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل ، والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ؛ ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين ؛ سجدة الا يرفع رأسه منها الى

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبيه على تفسير سبحان الله .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء .

يوم المزيد . فهذا سفر القلب ، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه ، فيا له من سفر ما أبركه وأروحه ، وأعظم ثمرته وربحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته . سفر هو حياة الأرواح . ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب ، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . اهـ كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد به استجلاب دعائه ، وليس خاصاً به ﷺ بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ؛ كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة « لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك »[1] وأما الميت فانما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك . وهذا هو الذي يشرع في حق الميت ، وأما دعاؤه فلم يشرع ؛ بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه ؛ كما قال تعالى (٣٥ : ١٣ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ١٤ . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم . ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم) فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة أي ينكره ويعادي من فعله . كما في آية الأحقاف (٤٦ : ٦ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر . والصحابة رضي الله عنهم . لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته ، حتى في أوقات الجدب ؛ كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فأمره أن

---

(١) رواه أبو داود واحمد في المسند (ج ١ ص٢٩ و ج ٢ ص ٥٩) عن عبدالله بن عمر « أن عمر استأذن النبي « ص » في العمرة ، فأذن له . فقال « يا أخي أشركنا في صالح دعائك ؛ ولا تنسنا » قال عبد الرزاق في حديثه . فقال عمر « ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس » لقوله : يا أخي .

باب

(ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد ، وسدّه طرق الشرك)

عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله عنه [1] قال « انطلقتُ في وفد بني عامر

يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه [2] فلو جازان يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ . وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت ، لأن المقصود من الحي دعاءه اذا كان حاضراً . فانهم في الحقيقة انما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع اليه ، وهم كذلك يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع الى ما لا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة اليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم . فمن تمسك بكتاب الله نجا ؛ ومن تركه واعتمدعلى عقله هلك . وبالله التوفيق .

(قوله : باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك) .

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل

---

(١) رواه البخاري . وقد حصل ذلك في عام الرمادة سنة ثمان عشرة ، ودام القحط تسعة أشهر . قال الحافظ في الفتح (ج ٢ ص ٣٣٩) وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقعت فيه . فأخرج باسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة ؛ وقد توجه القوم اليك بي لمكاني من نبيك . وهذه أيدينا إليك بالذنوب ؛ ونواصينا اليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث » فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الارض وعاش الناس .

(٢) قال في أسد الغابة : عبدالله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش .. العامري ثم الكعبي ثم من بني الحريش وهو بطن من بني عامر بن صعصعة . له صحبة . سكن البصرة — ثم ساق بسنده الى مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه أنه قال « قدمت على رسول الله (ص) في رهط من بني عامر ؛ فقالوا يا رسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا ؛ وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت ، فقال : قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان » وقولهم « أنت الجفنة الغراء » كانت العرب تدعو السيد المطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها ، فسمي باسمها ، و (الغراء) البيضاء أي انها مملوءة بالشحم والدهن ؛ قاله أبو السعادات في النهاية .

إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى » قلنا : وأفضلنا فضلا ، وأعظمنا طولا . فقال : قولوا بقولكم او بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد .

معها التوحيد أو ينقص [1] وكذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وتقدم . وقوله « إنه لا يستغاث بي وانما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك . ونهى عن التمادح وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح انسانا « ويلك قطعت عنق صاحبك — الحديث » أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه « أن رجلا أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له : قطعت عنق صاحبك — ثلاثا » وقال « إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود .

وفي هذا الحديث « نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا وقال : السيد الله تبارك وتعالى » ونهاهم أن يقولوا « وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا » وقال « لا يستجرينكم الشيطان » .

وكذلك قوله في حديث أنس « أن ناساً قالوا : يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا » الخ . كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو . وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه — ولو بما هو فيه — من عمل الشيطان لما تفضي محبة المدح اليه من تعاظم الممدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد فان العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه ، وذلك غاية الذل في غاية المحبة ؛ وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ؛ وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والارادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً ، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأساً ، والنهي عنه صيانة لهذا المقام ، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت

---

(١) في قرة العيون : وقد اشتمل هذا الكتاب — على اختصاره — على أكثر ذلك والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه ؛ يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه بابا بابا .

وعن أنس رضي الله عنه «أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال «يا أيها الناس . قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد عبدالله ورسوله [1] ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزوجل» رواه النسائي بسند جيد .

أعماله وصحت ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والاعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة كما في الحديث «الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني شيئا منهما عذبته [2]» وفي الحديث «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر [3]» وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً اليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ؛ وأما المادح فقد يفضي به المدح الى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها ؛ كما يوجد كثيرا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم ، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والالهية والملك ، كما تقدمت الاشارة إلى شيء من ذلك . والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح ، صيانة لهذا المقام ، وأرشد الامة الى ترك ذلك نصحاً لهم ، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده ، او يضعفه من الشرك ووسائله (٢ : ٥٩ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) ورأو أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات وحسنة من أعظم الحسنات !

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعد وأبي هريرة ، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان

(٢) رواه أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص (*) باسناد رجاله رجال الصحيح .

(*) قوله (رواه أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص) الخ . اقول واخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (لا يدخل النار احد في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان ولا يدخل الجنة احد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء) .

(٣) في قرة العيون : فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان : العبودية الخاصة والرسالة . والنبي (ص) أكلهما . وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه . وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره . فلا يذكر في الاذان والتشهد والخطب الا ذكر معه . صلوات الله وسلامه عليه .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلوّ .

الثانية : ما ينبغي أن يقول مَنْ قيل له أنت سيدنا .

الثالثة : قوله « لا يستجرينكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله « ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي » .

واما تسمية العبد بالسيد فاختلف العلماء في ذلك .

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد : اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر . فمنعه قوم ، ونقل عن مالك . واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له « يا سيدنا » قال « السيد الله تبارك وتعالى » وجوّزه قوم ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للانصار « قوموا إلى سيدكم [1] » وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف اليه . فلا يقال للتميمي سيد كِندة ، ولا يقال الملك سيد البشر . قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هـذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فان السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك ، والمولى والرب ، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق . انتهى

قلت : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى (٦ : ١٦٤ قل أغير الله أبغي رباً) « أي إلهاً وسيداً » وقال في قول الله تعالى (الله الصمد) « أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد » وقال ابو وائل « هو السيد الذي انتهى سؤدده » . وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار (قوموا إلى سيدكم) فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به ، فيكون في هذا المقام تفضيل والله أعلم .

---

(٢) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتياً على حمار قد أسندوه لانه كان مريضاً من جرح أصابه من المشركين في الخندق . وقد دعا به رسول الله (ص) ليحكم في بني قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فكان هذا القول منه (ص) لانه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده فامرهم أن يقوموا لينزلوه ولانه جاء لهذه القضية ، فاراد ان يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة . وكان سعد بن معاذ سيد الاوس ورئيسهم رضي الله عنهم .

باب

(ما جاء في قول الله تعالى « ٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يوم القيامةوالسموات‌مطويات‌بيمينه‌سبحانه‌وتعالى‌عمايشركون»)

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنّا نجد أن الله يجعل السموات على إصْبَع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثّرَى على إصبع وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بَدَت نواجذه تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)

قوله (باب قول الله تعالى « ٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ») أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت في قريش . وقال السُّدّي : ما عظموه حق عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حقّ قدره ما كذبوه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف — وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال : ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه . والامام احمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الامام احمد : حدثنا معاوية حدثنا الأعمش ، عن ابراهيم عن علقمة

وفي رواية لمسلم « والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك أنا الله »

وفي رواية للبخاري « يجعلُ السموات على إصبع والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع » أخرجاه

عن عبدالله قال « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على اصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول أنا الملك ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر . قال : وأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) الآية . وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به .

وقال الامام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الاشقر ، حدثنا أبو كدينة [1] عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال « مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه — وأشار بالسبابة — والأرض على ذه ، والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) » وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به . وقال : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخاري : حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخاري في موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمي القاسم بن يحيي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال « ان الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون

---

(١) اسمه يحيي بن المهلب البجلي الكوفي قال الحافظ بن حجر في تقريب التهذيب : صدوق من السابعة روى له الترمذي والنسائي أيضاً .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا « يَطْوِي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »

وروى عن ابن عباس قال « ما السموات السبع والأرضون السبع في كفِّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم »

وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثني أبي قال قال رسول الله ﷺ « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرسٍ »

قال وقال ابو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الارض » .

وعن ابن مسعود قال « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام وبين كل

السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضاً من هذا الوجه . ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الامام احمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم . فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرّنّ به اهـ .

قوله (ولمسلم عن ابن عمر — الحديث) كذا في رواية مسلم . قال الحميدي وهي أتم ، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه . وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماء بيمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم .

سماء خمس مائة عام وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرشُ فوق الماء . والله فوق العرش « لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبدالله .

ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى . قال : وله طرق .

قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته . وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته [١] وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم باحسان ، واقتفى أثرهم على الاسلام والايمان :

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنها تدل تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقاً بلّغه أمينه أمته ، فان الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين . وتلقى الصحابة رضي رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى (٣: ٧ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وكذلك التابعون لهم باحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بها وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ولم يجحدوا شيئاً من الصفات ، ولا قال أحد منهم : ان ظاهرها غير مراد ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه . بل أنكروا على

---

(١) في قرة العيون : وأن العبادة لا تصلح الا له سبحانه وبحمده ، ولا يصلح منها شيء لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لمن دونهما .

من قال ذلك غاية الانكار ؛ فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الاسلام احمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ ، وكلام الصحابة والتابعين ؛ وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه ، مثل قوله تعالى (٣٥ : ١٠ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (٣ : ٥٥ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ) وقوله تعالى (٤ : ١٥٨ بل رفعه الله اليه) وقوله تعالى (٧٠ : ٣و٤ ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح اليه) وقوله تعالى (٣٢ : ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه) وقوله تعالى (١٦ : ٥٠ يخافون ربهم من فوقهم) وقوله تعالى (٢ : ٢٩ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله تعالى(٧: ٥٤ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش ؛ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ؛ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله (١٠ : ٣ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا بعد إذنه — الآية) فذكر التوحيدين في هذه الآية . قوله تعالى (١٣ : ٢ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى عـلى العرش) وقوله تعالى (٢٠ : ٤و٥ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (٢٥ : ٥٨ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ٥٩ . الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل بـه خبيراً) وقوله تعالى (٣٢ : ٤ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفـلا تتذكرون ٥ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كـان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقوله (٥٧ : ٤ هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعمـوم

رؤيته . وقوله تعالى (٦٧ : ١٦ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ١٧ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقوله تعالى (٤١ : ٤٢ تنزيل من حكيم حميد) وقوله (٤٥ : ٢ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله تعالى (٤٠ : ٣٦ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ٣٧ أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) . انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفـاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين . فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والاقرار به إيمان ، والجحود به كفر » رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح . قال : وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال : لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينـا التصديق . وقال ابن وهب : كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبدالله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فاطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ولا يقال كيف ؟ و « كيف » عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة . أخرجوه » رواه البيهقي باسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية ، قال البخاري في صحيحه : قال مجاهد (استوى) علا على العرش. وقال : اسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقول (الرحمن على العرش استوى) أي ارتفع . وقال محمد ابن جرير الطبري في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أي علا وارتفع وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك قول عبدالله

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة . ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم » أخرجه أبو داود وغيره .

بن رواحة رضي الله عنه :

شهدت بأن وعد الله حـــق	وأن النار مثوى الـكافرينـا
وأن العرش فوق المـاء طاف	وفوق العرش رب العالمينـا
وتحمـله ملائكـة شــداد	ملائـة الإلـه مسومينـا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق ، قال : سمعت عبدالله بن المبارك يقول « نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية » قال الدارمي : حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك : قيل له « كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه » .

وقد تقدم قول الأوزاعي : كنا — والتابعون متوافرون — نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال في هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله في السماء وعلمه في كل مكان : ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء . وهذا لفظه في كتابه .

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمثلوا ولم يكيفوا ، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم . وكذلك أنكر جميع الصفات . وقتله خالد بن عبدالله القسري وقضته مشهورة ؛ فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية ، فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ، ومالك والليث بن سعد والثوري ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى . فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة : ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي : أنبأنا بو عبد الله الحافظ . آخبرني محمد بن علي الجوهري — ببغداد — حدثنا ابراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول : كنا — والتابعون متوافرون — نقول : إن الله فوق عرشه . ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات .

وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ؛ وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه ، كما نفى عن نفسه فقال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) اهـ من فتح الباري .

قوله (عن العباس بن عبد المطلب) ساقه المصنف رحمه الله مختصرا ، والذي في سنن أبي داود : عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ ؛ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب « قال والمزن » قالوا والمزن . قال « والعنان» قالوا والعنان — قال أبو داود : لم أتقن العنان جيداً — قال « هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا لا ندري . قال إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء التي فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات . ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك » وأخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) .

الثانية : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة : التصريح بذكر اليدين وأن السموات في اليد اليمنى . والأرضين في الاخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

الثامنة : قوله كخردلة في كف أحدكم .

التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .

وقال الحافظ الذهبي : رواه أبو داود باسناد حسن [1] وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه « ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام » ولا منافاة بينهما . لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلا ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد ، لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوما باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد . وروى شريك بعض

---

(١) في إسناده الوليد بن أبي ثور لا يحتج بحديثه . وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد . وقال العلامة ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود : أما رد الحديث بالوليد بن أبي ثور ففاسد ، فان الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه ابراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك . ومن طريقه رواه أبو داود . ورواه أيضاً عمرو بن أبي قيس عن سماك . ومن حديثه رواه الترمذي عن عبد بن حميد أخبرنا عبد الرحمن بن سعد عن عمرو بن أبي قيس . اه ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبي ثور عن سماك . وأي ذنب للوليد في هذا ؛ وأي تعلق عليه ؟ وانما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهي علته المؤثرة عند القوم اه .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة : إن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض .

الثامنة عشرة : كثف كل سماء مائة سنة .

التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة . والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

هذا الحديث عن سماك فوقفه . هذا آخر كلامه [1] .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم ،

---

(١) في قرة العيون : قلت : وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن فلا عبرة بقول من ضعفه .

وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الالهية لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد ؛ وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، فقام ببيان التوحيد الذي دعت اليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد . فالدعوة الى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه ، وأعطاه القدرة على الدعوة اليه ، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته ؛ فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب ؛ ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة ليس لهم التفات الى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب الى العلم . وأما من ينتسب الى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الكلام ، وظنوا أنهم على شيء ، فقبلوا ما وجدوه عنهم ، فقرروا مذهب الجهمية ، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات . وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الامة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا . فهدى الله هذا الامام الى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها ، فلله الحمد على توفيقه وهدايته الى الحق حين اشتدت غربة الاسلام فضل عنه من ضل من أهل القرى والامصار . وغيرهم . وبالله التوفيق .

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار اليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

والعلم أقسام ثلاث ، ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الاله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وصلى الله على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ، ولا عبرة بقول مَن ضعّفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها .

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله ﷺ ؛ وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه .

وبالله التوفيق ؛ والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كمل مقابلة وتصحيحاً وقراءة على يد شيخنا العلامة المحقق الفهامة ، بقية أهل الاستقامة ؛ الشيخ عبدالله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢ .

نبذة مختصرة من ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن حسن

مؤلف فتح المجيد

قال الشيخ ابن بشر في كتاب (عنوان المجد) في حوادث سنة ١٢٤١ :

وفيها أقبل من مصر الشيخ العالم النحرير ، البحر الزاخر الغزير ، مفيد الطالبين ، المحفوف بعناية رب العالمين ، جامع أنواع العلوم الشرعية ، ومحقق العلوم الدينية ، والأحاديث النبوية ، والآثار السلفية ، وارث العلم كابراً عن كابر ، الذي صارت الأصاغر بإفادته شيوخا أكابر ، قاضي قضاة الاسلام والمسلمين مفتي فرق الأنام الموحدين ، وناصر سنة سيد المرسلين ، الموفق لاصواب في الجواب ؛ الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ قدم على الامام تركي بن عبدالله قدس الله روحه ، ففرح وأكرمه غاية الاكرام ، واغتبط بطلعته خاص المسلمين والعام ، فعظموه وقاموا بما يستحقه من الإعظام ، وبذل نفسه للطالبين وانتفع بعلمه كثير من المستفيدين — ثم ذكر العلماء الأفاضل من آل الشيخ وغيرهم الذين استفادوا من الشيخ وانتفعوا بعلمه وتخرجوا عليه ، وهم جملة كثيرة . ثم قال : فضربت اليه آباط الابل من أقطار نجد والإحساء ؛ وظهرت آثار البركات من تعليمه وفشا. كيف لاوهو من شجرة مباركة أضاء نور طالعها للمسلمين وفشا ، ولاح وميض برقه حين غشي ، فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يهدي الله لنوره من يشاء . اللهم يا سميع الدعاء ، يا إله الأرض والسماء ؛ نسألك بأسمائك الحسنى أن تجزيهم عنا وعن المسلمين أحسن ما جزيت من دعا إلى توحيدك ، وأن تجعل العلم النافع فيهم وفي عقبهم باقياً إلى يوم لقائك وشهودك .

وقد صنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن مصنفات في الأصول والفروع ، أكثرها رداً على أهل المقالات ، ومن غلط منهم في الصفات ، وله مصنف

فيما يحل ويحرم من الحرير ، فمن طالعه دله على علمه الغزير ، رداً على من أباح لبس المحرمة الروغان التي ابتلى الناس بلبسها في هذا الزمان ، واختصر شرح التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله بن شيخ الاسلام الذي سبق ذكره لأنه مات قبل أن يتمه .

وكان كثيرا ما يتعهد أهل بلدان نجد بالمراسلات والنصائح ، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمر دينهم ، ويذكرهم نعمة هذا الدين ، واجتماع شمل أهل الاسلام عليهم ، وما منّ الله به على أهل نجد في آخر هذا الزمان . والحمد لله أولا وآخراً . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

الفهرس

٣ تقديم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز
٥ مقدمة الشارح
٨ شرح البسملة
١٤ معنى التوحيد
١٧ معنى العبادة
٢١ معنى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)
٢٣ معنى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)
٢٤ معنى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم)
٢٩ وصية محمد
٣٠ حديث معاذ حق الله على العباد
٣٦ فضل التوحيد
٣٩ حديث عبادة من شهد أن لا إله إلا الله . الخ
٤٢ معنى لا إله إلا الله
٤٥ معنى محمد رسول الله
٤٦ معنى ان عيسى عبدالله ورسوله وكلمته
٥٠ حديث عتبان بن مالك : ان الله حرم على النار
٥٧ علو الله على عرشه .
٦٠ حديث : لو أتيتني بقراب الارض خطايا
٦٤ من حقق التوحيد دخل الجنة
٦٤ معنى أن ابراهيم كان أمة
٦٨ من يدخل الجنة بغير حساب
٧٧ باب الخوف من الشرك
٧٩ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام
٨٠ خوف النبي ﷺ على أمته من الشرك
٨٥ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله
٨٧ بعث معاذ إلى اليمن يدعوهم إلى التوحيد
٩٣ إعطاء علي الراية يوم خيبر وأمره أن يدعوهم إلى الاسلام
٩٨ لأن يهدي الله بك رجلا واحداً واحداً خير لك الخ
١٠١ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله
١٠٢ الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة
١٠٩ براءة ابراهيم مما يعبد قومه إلا الله
١١٠ معنى واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا
١١٢ معنى اتخاذ الأنداد من دون الله
١١٦ من من الذي يحرم ما لهوعمه

١٢١ من الشرك اتخاذ الحلقة والخيط ونحوهما
١٢٢ حديث عمران بن حصين في تعليق الحلقة
وأنها لا تزيد صاحبها ألا وهنا
١٢٥ حديث من تعلق تميمة فلا أتم الله له الخ
١٢٩ باب ما جاء في الرقي والتمائم
١٣٠ حديث ابن مسعود : الرقي والتمائم والتولة شرك
١٣٤ حديث : من تعلق شيئاً وكل اليه
١٣٥ حديث رويفع : من تقلد وتراً فان محمداً منه بريء
١٣٩ باب من تبرك بشجرة ونحوها
١٤٢ حديث أبي واقد الليثي في ذات أنواط
١٤٤ لتركبن سنن من كان قبلكم
١٤٧ باب ما جاء في الذبح لغير الله
١٤٩ حديث علي : لعن الله من ذبح لغير الله الخ
١٥٥ حديث دخل رجل الجنة في ذباب الخ
١٥٦ باب لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير الله
١٥٩ حديث فيمن نذر بأن ينحر ببوانة
١٦٢ باب من الشرك النذر لغير الله
١٦٦ حديث : من نذر أن يعصي الله فلا يعصه
١٦٧ باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
١٦٨ ما يقول من نزل بمكان يخافه
١٧٠ باب من الشرك الاستغاثة بغير الله ودعاء غير الله
١٧٢ تعظيم رسول الله غير الغلو فيه
١٧٣ الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفا
١٧٦ (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك) الخ
١٧٨ (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون) الخ
١٧٩ (ومن أضل ممن يدعو من دون الله) الخ
١٨٢ (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)
١٨٣ قوله ﷺ انه لا يستغاث بي
١٨٦ باب (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون)
١٨٨ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير .
١٩١ (ليس لك من الأمر شيء)
١٩٥ (وأنذر عشيرتك الأقربين)
١٩٩ باب قول الله (حتى إذا فزع عن قلوبهم)
٢٠١ حديث أبي هريرة : إذا قضى الله الأمر في السماء الخ

٢٠٤ حديث اذا أراد الله أن يوحي يوحي بالأمر الخ
٢٠٩ باب الشفاعة
٢١٢ قول ابن القيم رحمه الله في الشفاعة
٢١٤ من أسعد الناس بشفاعة رسول الله (ص)
٢١٦ باب نك لا تهدي من أحببت
٢١٧ حديث المسيب في وفاة أبي طالب
٢٢٢ باب ماجاء ان سبب كفر بني آدم الخ
٢٢٤ معنى (وقاموا لاتذرن آلهتكم ولا . الخ
٢٢٨ قال ابن القيم لما ماتوا عكفوا على قبورهم
٢٢٩ لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى
٢٣١ إياكم والغلو فانما أهلك من كان قبلكم الغلو
٢٣٤ التغليظ على من عبد الله عند قبر صالح
٢٣٥ حديث أم سلمة في كنيسة الحبشة
٢٣٧ حديث عائشة : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد
٢٣٩ حديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد
٢٤٣ حديث ابن مسعود : إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد
٢٤٨ الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا الخ
٢٤٩ اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد
٢٥٠ وجد المسلمين دانيال في تستر لما فتحوها
٢٥٢ اللات والعزى
٢٥٤ لعن الله زوارات القبور الخ
٢٥٩ باب ما جاء في حماية المصطفى الخ
٢٦١ لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا عليّ حيث كنتم
٢٦٧ ما جاء في أن بعض هذه الامة يعبدون الأوثان
٢٦٨ قول اليهود : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا
٢٦٩ معنى (عبد الطاغوت)
٢٧١ وقال الذين غلبوا على أمرهم الخ
٢٧٢ لتتبعن سنن من كان قبلكم
٢٧٢ حديث ثوبان : إن الله زوى لي الأرض الخ
٢٧٦ إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين
٢٧٩ سيكون في أمتي كذابون ثلاثة
٢٨١ الطائفة المنصورة أهل الحق
٢٨٥ باب ما جاء في السحر

٢٨٦ ما هو الجبت والطاغوت
٢٨٨ السبع الموبقات
٢٩٢ حد الساحر : ضربه بالسيف
٢٩٣ باب بيان شيء من أنواع السحر
٢٩٥ من اقتبس شعبة من النجوم
٢٩٦ من سحر فقد أشرك
٢٩٧ إن من البيان لسحراً
٣٠٠ باب ما جاء في الكهانة
٣٠١ من أتى عرافا فصدقه لاتقبل له صلاة
٣٠٣ من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد
٣٠٣ التحذير من الطيرة والكهانة والسحر
٣٠٣ من هو الكاهن والعراف
٣٠٧ باب ما جاء في النشرة
٣٠٨ ما هي النشرة
٣١١ باب ما جاء في التطير
٣١٣ حديث: لاعدوى ولا طيرة الخ
٣١٦ لا نوء ولا غول
٣١٧ أحسنها الفأل
٣٢٠ من ردته الطيرة فقد أشرك
٣٢٣ باب ما جاء في التنجيم
٣٢٥ ما جاء في تعلم علم الفلك
٣٢٨ الاستسقاء بالنجوم
٣٣١ عقوبة النائحة إذا لم تتب
٣٣٦ (لا يمسه إلا المطهرون)
٣٣٩ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً
٣٤٣ محبة الله
٣٤٤ محبة النبي
٣٤٨ من أحب في الله أبغض في الله ووالى في الله
٣٥٢ قول الله : إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
٣٥٢ أقسام الخوف
٣٥٤ «إنما يعمر مساجد الله» الآية
٣٥٤ «ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي الخ
٣٥٧ من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله
٣٦٠ وعلى الله فتوكلوا الخ ..
٣٦٢ (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)
٣٦٣ معنى ؛ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين
٣٦٥ ما قال ابراهيم حين ألقي في النـــار
٣٦٦ باب قول الله (أفأمنوا مكر الله)
٣٦٨ اليأس من روح الله والأمن من مكر الله
٣٧٠ باب من الايمان بالله الصبر على أقدار الله
٣٧١ معنى قول الله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه)

٣٧٣ براءة الرسول ﷺ من ضرب الخدود الخ
٣٧٣ من رحمه بالعبد تعجيل عقوبته في الدنيا
٣٧٧ باب ما جاء في الرياء
٣٧٨ (قل إنما أنا بشر مثلكم الخ)
٣٧٨ الله أغنى الشركاء عن الشرك
٣٨٠ اخوف النبي ﷺ على أمته من الريـــاء
٣٨١ باب من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا
٣٨٣ أول من تسعر بهم النار يوم القيامة
٣٨٤ أنواع الرياء
٣٩٣ باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله
٣٩٥ قول الامام احمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد ويذهبون الى رأي سفيان الخ
٣٩٩ اتخذوا أحبارهم ورهبانهـــم أربابا من دون الله
٤١٢ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات
٤١٧ ما ورد عن علماء السلف في المتشابه
٤٢٠ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها
٤٢٢ قول الله (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)
٤٢٤ من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر
٤٢٨ باب ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله والنهي عن الحلف بالآباء
٤٣٠ باب : قول ماشاء الله وشئت
٤٣٥ باب من سب الدهر فقد آذى الله
٤٣٨ باب التسمي بقاضي القضاة
٤٤٢ باب احترام أسماء الله
٤٤٥ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله والرسول
٤٤٩ باب قول الله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراءمسته ـ الآية
٤٥١ حديث أبرص وأقرع وأعمى
٤٥٣ باب قول الله (فلما آتاهما صالحاً ـ الآية)
٤٥٨ قول الله (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)
٤٦٠ معنى يلحدون في أسمائه
٤٦٢ باب : لا يقال السلام على الله
٤٦٤ قول :اللهم اغفر لي إن شئت
٤٦٦ لا يقول : عبدي وأمتي
٤٦٨ لا يرد من سأل الله
٤٦٩ من صنع لكم معروفا فكافئوه
٤٧٠ لا يسأل بوجه الله إلا الجنة
٤٧٢ ما جاء في اللهو
٤٧٣ ابن تيمية :كلامه على القدر
٤٧٨ النهي عن سب الريح

٤٧٨ ما يقول عند هياج الريح
٤٧٩ قول الله (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)
٤٨٠ قول ابن القيم: في ظن السوء بالله والذين يظنونه
٤٨٦ ما جاء في منكري القدر
٤٩٢ ما جاء في المصورين
٤٩٣ بعث علي إلى اليمن لهدم القباب وطمس التماثيل والصور
٤٩٣ قول ابن القيم فيما ابتدعه الضالون من بدع القبور محادة الله ولرسوله
٥٠٠ ما جاء في كثرة الحلف
٥٠١ ثلاثة لا يكلمهم الله
٥٠٥ ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه
٥٠٦ وصايا النبي ﷺ لقواد جيوشه بأن لا يغلّوا ولا يغدروا ولا يقتلوا وليدا الخ
٥١٠ ما جاء في الاقسام على الله
٥١٢ لا يستشفع بالله على خلقه
٥١٦ ما جاء في حماية النبي حمى التوحيد
٥٢٠ ما جاء في قول الله (وما قدروا حق قدره
٥٢٠ حديث الحبر الذي جاء يصف كيف يقبض الله السموات والارض
٥٢٢ ما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الارض
٥٢٢ بعد ما بين كل سماء والتي يليها والسابعة والكرسي ، والكرسي والعرش
٥٢٥ الايمان بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بلا تمثيل ولا تعطيل
٥٢٧ حديث الأوعال الذي رواه العباس

مطبوعات مكتبة الايمان

آخر ترام النزهة ـ شارع قنال المحمودية ت ٤٢٠٢٣٣٣

★ الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

لابن تيمية تقديم الشيخ عبد العزيز البرماوى

★ رسالة الغيبة

لابن تيميةتقديم الأستاذ / منير السيد

★ طريقنا الى القبر عذاب أم نعيم

للأستاذ محمد كمال غلاب

قدم له الشيخ /عبد العزيز البرماوى

★ اسلامنا لا يهون

للأستاذ / محجوب موسى

★ الجهاد والأفغانى

للشيخ ابو بكر حابر الجزائرى

★ نجدة المكروب فى الأذكار والدعوات التى بها تنكشف المصائب والكروب

للدكتور توفيق علوان

★ منهاج الفرقة الناجية

للشيخ محمد بن جميل زينو

★ قطوف فى الشمائل المحمدية

للشيخ محمد بن جميل زينو

★ يا ابنتى رسالة لبنات جيل القرن العشرين

★ ورد المحاسبة

★ متعة العروس والزواج السعيد للأستاذ / شافع توفيق المحامى

★ واجبات الأخ المسلم للامام الشهيد حسن البنا

